AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00976 8833

DT
77
A4
19

00-B5064
Pwt 27-6-00

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

TY

ال

قررت نظارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب
في المدارس الاميرية

DT
77
A4
1913

تاريخ مصر

بقلم

هند اسكندر عمّون

THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN CAIRO
LIBRARY
1913

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

962/
Am64e
Gen.

٩٦٢
٥٣ . ت

27634

فهرست

	صحيفة
مقدمة الكتاب	٦
جغرافية مصر	٩
أقسام تاريخ مصر ، الدور الخرافي	١٧
الدور المجهول	٢١
الفراعنة وعائلاتهم	٢٣
أقسام العصر الجاهلي	٢٤
الدور المنفي	٢٥
الدور الطيبي الأول	٣٥
دولة العمالقة	٣٩
الدور الطيبي الثاني	٤٣
الدولة الصاوية	٥١
انقسام مصر الى دول صغيرة	٥٣
تغلّب ايثيوبيا على مصر	٥٣
الفتح الفارسي	٥٨
سقوط العائلات المصرية	٦٢
الدولة اليونانية	٦٥
البطالسة	٦٧
الدور المسيحي ، رومة والرومانيون	٧٨
الفتح الروماني	٨٠
مدنية مصر القديمة ، الديانة المصرية	٨٩

صحيفة

شرائع المصريين	٩٢
علوم المصريين	٩٣
الصنائع المصرية ، آداب المصريين	٩٥
الكتابة المصرية القديمة	٩٦
دول الدور الاسلامي	٩٨
العرب و بلادهم	٩٩
الخلفاء الراشدون	١٠١
الدولة الاموية	١٠٨
الدولة العباسية	١١٩
الدولة الطولونية	١٣٥
الدولة العباسية للمرة الثانية	١٤٧
الدولة الأخشيدية	١٥١
الدولة الفاطمية	١٥٨
الحروب الصليبية ، الحملة الاولى	١٧٣
الدولة الأيوبية	١٨٣
الحملة الصليبية الثالثة	١٩٠
الحملة الصليبية الرابعة ؛ الحملة الخامسة	١٩٥
الحملة الصليبية السادسة	١٩٨
الحملة الصليبية السابعة	٢٠١
دولة المماليك البحرية	٢٠٤
دولة المماليك الجراكسة	٢٢٨
الدولة العثمانية	٢٤٣
الفتح الفرنساوي	٢٦٢

صحيفة

الأسرة العلوية ، ولاية محمد علي	٢٧٤
الحملة على الوهابين	٢٧٨
الحملة السودانية ، حرب اليونان	٢٧٩
الحملة على سوريا	٢٨٠
الحرب الاولى مع تركيا	٢٨١
الحرب الثانية مع تركيا	٢٨٢
اصلاحات محمد علي	٢٨٤
ابراهيم باشا	٢٩٠
عباس باشا الأول	٢٩٠
محمد سعيد باشا	٢٩٢
قناة السويس	٢٩٣
اسماعيل باشا	٢٩٥
تدشين قناة السويس	٢٩٩
توفيق باشا	٣٠١
ثورة عرابي	٣٠٢
الاحتلال الانكليزي	٣٠٥
ثورة المهدي	٣٠٦
عباس باشا حلمي الثاني	٣٠٨
استعادة السودان	٣٠٨
نظرة عمومية في احوال مصر الحاضرة	٣١٠

مقدمة

أصبح علم التاريخ من العلوم الاجتماعية المهذّبة التي يُعوَّلُ عليها في بثِّ روح النشاط في صدور الأفراد لإنهاض المجموع . لذلك عنيت الأُمَمُ بدرس تاريخها ، وجعلت الحكومات لهذا العلم مقاماً ممتازاً في برنامج تعليمها ، لأنَّ لا شيء يُحبِّبُ الى النشء وطنَهُ مثل درس تاريخ هذا الوطن ، وتفقُّهِ علل الأدوار التي مرّ بها من ارتفاع وانحطاط

ولم يغب هـذا الأمرُ عن بال ذوي الحلّ والعقد في الديار المصرية ، فأولوهُ عنايةً كبرى ، وأوسعوا لتـاريخ مصر محلاً خصوصيًا في برنامج المدارس للبنين والبنـات

وهذا ما حدانا الى وضع هذا التاريخ لابناء وطنٍ عزيز يجبُ علينا درسُ امجادهِ الغابرة لنزداد حبًّا بهِ وتفانياً في خدمتهِ . وقد توخّينـا في وضعهِ أسهل الأساليب من حيث التبويب والتنسيق وسرْد الحوادث لتقريبهِ الى فهم التلاميذ ؛ فأهملنا التفاصيل المسهبة التي لا يسعُها نطاق كتابٍ مدرسيّ ، دون أن يخلّ هذا الايجاز بايراد الوقائع وارتباطها بعضها ببعض . وقد عوّلنا في تقرير الحوادث على اوثق المصادر من قديمةٍ وحديثةٍ . فحاز عملنا رضى من يُعدُّ رضاهم خيرَ شهادةٍ ، فقرَّرت نظارة المعارف تدريس هذا الكتاب في المدارس الاميرية ، كما تقرّر في كثيرٍ من المدارس الخصوصية الحرّة . وكفانا بذلك منشطاً للمثابرة على خدمة مصر العزيزة

تاريخ

مصر القديم

من أول عهد التاريخ حتى سنة ٦٤٠ بعد المسيح

THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN CAIRO
LIBRARY

الفصل الأوّل

جغرافية مصر

﴿ حدود مصر ومساحتها ﴾ — إن الولاية المصرية الخديوية تشغلُ الزاويةَ الشمالية الشرقية من قارَّة أفريقيا وجزءًا صغيراً من آسيا هو شبه جزيرة سينا . ويحدُّها شمالاً : البحر الأبيض المتوسط ؛ وشرقاً : الخطّ الذي عيَّنتهُ لجنة التحديد العثمانية - المصرية ، وهو يمتدُّ مستقيماً تقريباً من نقطةٍ بالقرب من رفح على البحر المتوسط الى نقطةٍ أُخرى قرب طابه على رأس خليج العقبة ، وكذلك خليج العقبة والبحر الأحمر ؛ ويحدُّها جنوباً : خط العرض الشمالي الثاني والعشرون ما خلا مسافة قليلة في وادي النيل حيث يمتدّ الحدُّ كثيراً لجهة الشمال ، وبذا تخرجُ منهُ بلدة فاراس والبلدة الواقعة جنوبيها ؛ وغرباً : خطّ غير معيَّن يمتدّ من خليج السلوم الى الغرب من واحات سيوه ومنها للجنوب الى ان يتقابل مع خط العرض الشمالي الثاني والعشرين

ويبلغ امتداد اقليم مصر ١,٠٣٠ كيلو متراً طولاً ، ومساحتها نحو ٩٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربَّع . وتبلغ مساحة القسم المأهول منها الذي في وادي النيل ٣٠,٠٠٠ كيلو متر مربَّع ، تضاف اليها مساحة الواحات البالغة

١٠٠٠٠ كيلو متر مربع تقريباً وبعض أراضٍ مزروعة في شبه جزيرة سينا وعلى شاطئ البحر الشمالي الغربي

﴿ وصف مصر ﴾ — تتكوّن مصر على الخصوص من سطح منخفض مؤلَّف من حجارةٍ كلسية ورملية تقطعها من جهةٍ منخفضاتُ وادي النيل وخطُّ الواحات ، ومن أُخرى سلسلة صخورٍ جرانيتية تتألف منها شبهُ جزيرة سينا وجبالُ الصحراء الشرقية التي تمتدُّ شمالاً من جبال اواسط أفريقيا ، فتبلغ أعلى قممها ٢٠٠٠ متر ارتفاعاً . وتبلغ أعلى القمم في شبه جزيرة سينا (١) ٢٦٠٠ متر

وينخفض هذا السطح تدريجاً الى البحر الأبيض المتوسط والى الواحات الغربية . وتمتدُّ سلسلةُ المنخفضات الواقعة فيها هذه الواحات شمالاً وجنوباً الى مسافة ٢٠٠ كيلومتر تقريباً من النيل . أمَّا ساحل مصر الشمالي فمستوٍ ورملي وخالٍ من الموانىء الطبيعية تفصلهُ في أهم جزءٍ منهُ عن الأراضي الزراعية بحيراتٌ قليلة العمق . وساحلها الشرقي صخري لا يمكن الوصول اليهِ إلاَّ من مواضع قليلة

ولا ريب ان اعظم هبات القطر الطبيعية هو وادي النيل ؛ ويُقسم الى قسمين : يعرف أولهما بالدلتا ؛ وقد سميَ كذلك لمشابهتهِ لحرف دلتا △ (الذال) باللغة اليونانية . ويسمى ايضاً مصر السفلى او الوجه البحري ، وهو مثلَّثٌ رأسهُ القاهرة وقاعدتهُ البحر المتوسط . ويعرَف

---

(١) شبه جزيرة سينا مثلث ضلعه الاكبر على البحر المتوسط . والقسم الشمالي منها نجدٌ قاحل يُعرف بصحراء التيه

ثانيهما بالوجهِ القبلي أو الصعيد أو مصر العليا ، وهو نجدٌ مستطيل بين القاهرة واسوان [١]

وتكتنفُ وادي النيل من الجانبين حجارةٌ رملية ثمَّ الى مسافةٍ شمالاً هضباتٌ مكسيةٌ ، ثمَّ صخورٌ شاهقة حتى بني سويف حيث تبتعد عنهُ الجبال فتنتهي السلسلة الشرقيـة قرب البحر الأحمر ، والغربية قرب ساحل البحر المتوسط غرب الاسكندرية . ويتضح من ذلك اختلاف الوادي في العرض بين نقطةٍ واخرى . على أنَّ متوسط السهل المزروع منهُ يبلغ ١٢ — ١٥ كيلومتراً بين القاهرة وأسيوط و ٨ — ١٠ كيلومترات بين أسيوط واسوان

ولقد أصاب هيرودُتُس المؤرّخ اليوناني في قولهِ : « ان مصر هبةٌ من هبات النيل » ، فهو مورد حياتها الوحيد ، ومصدر تربتها السوداء . وقد كانت الدلتا قديماً خليجاً من خلجان البحر الابيض المتوسط ، فما زال النيل يترك فيهـا على توالي الزمان طبقاتٍ من غِرْيَنِهِ ، حتى ارتفع الغِرْيَن عن سطح الماء ، فكانت منهُ الدلتا الحالية . على أنَّ سواحلَ مصر قليلةُ الخصب جداً لما فيها من الملح الكثير . وتدلُّ آثار مدنها وقصورها على أنها كانت أحسن حالاً في الأزمنةِ الغابرة منها في الزمن الحاضر

---

(١) كانت مصر تقسم قديماً الى ٣ أقسام : مصر العليا ، أي من الصعيد الى النوبة ، وقاعدتها مدينة طيبة ، ومصر الوسطى وقاعدتها مدينة منف قرب اهرام الجيزة ، ومصر السفلى المسمَّاة بالدلتا وكانت عاصمتها مدينة هليو بوليس

﴿ النيل ﴾ — إنَّ نهر النيل أطولُ الانهارِ في أفريقيا وثانيها طولاً في العالم . ويبلغ طولهُ من شلاَّلات ريبون الى البحر الابيض المتوسط ٥,٦٠٠ كيلومتر ومتوسط عرض مجراهُ يزيد عن ٧٠٠ متر

ويجري النيل متمعجاً في سهولٍ منبسطة تكسوها الغابات والحراج، وتكثر فيها المستنقعات والآجام ، حتى اذا اجتاز الخرطوم انساب في نجادٍ اكثرها قاحل ، واعترضتهُ في سيرهِ صخورٌ تعرف بجنادل النيل (شلاَّلاتهِ) وعددها ٦ ، واحد منها في أعاليهِ ، والخمسة الباقية بين الخرطوم واسوان . فاذا انتهى الى اسوان جرى جرياً بطيئاً ، فاذا قرب من القاهرة ، انقسم الى فرعين ينصبَّان في البحر المتوسط : الواحد في رشيد ، والآخر في دمياط

وكانت الدلتا تروى في الأحقاب الماضية من فروع النيل الثلاثة وهي البيلوسي [١] شرقيها ، وقد جفَّ منذ زمان بعيد ، والسبنيتي [٢] في وسطها وهو المعروف الآن بفرع دمياط ، والقانوبي [٣] غربيها وهو المعروف الآن بفرع رشيد . وكانت هذه الفروع متصلةً بعضها ببعض بسلسلة من فروع صغيرة ، بعضُها طبيعيٌّ وبعضها اصطناعي ، بلغ عدد ما يصبُّ منها في البحر المتوسط رأساً سبعة عشر فرعاً

﴿ هبوط النيل وفيضانه ﴾ — تلفح القطرَ المصريَّ في اواخر أبريل

---

(١) نسبة الى مدينة بيلوس المسماة في التوراة بلبنه

(٢) نسبة الى مدينة سبنيت وهي المسماة الآن بسمنود

(٣) نسبة الى قانوب وهي اليوم ابو قير

ريحٌ تعرف بالخماسين ، فتكسوه غباراً أزرق ، وتحوّل بعض جهاته الى بادية رمضاء ، وتشقق تربته ويأخذ النيل حينئذٍ في الهبوط الى ان يصير اتساعه نصف اتساعه المعتاد ، ولا يبقى من مائه الاّ جزء من عشرين جزءًا مما كان عليه في اكتوبر ؛ ثمّ يعود الى الإرتفاع السريع ولا ينقضي الشهر عليه الاّ وقد بلغ الأرصفة (الجسور)

ويبلغ النيل معظم ارتفاعه في النوبة في أواخر أغسطس ، وفي القاهرة والدلتا في اواخر سبتمبر ؛ ثم يستمرّ على حاله ثمانية أيام متوالية ، ويعود بعدئذٍ الى الهبوط شيئاً فشيئاً الى ان يرجع في دسمبر الى مجراه الأصلي فلا يتجاوزه حتى زمن الفيضان التالي

وسبب ارتفاعه هطل الأمطار في فبراير في منابعه وحيث بحيرات أواسط أفريقية التي تمدّه بمائها ، فيفيض بسرعة شديدة وتمدّه في طريقه روافد عديدة منها بحر الغزال والسوبات والنيل الأبيض والنيل الأزرق وبحر العطبرة فيبلغ أشدّه

﴿ البحيرات ﴾ — أهمّ بحيرات مصر أربع : مريوط (مسطّحها ٥٩,٠٠٠ فدّان) وادكو (مسطّحها ٥٠,٠٠٠ فدّان) والبرلّس (مسطحها ١٤٠,٠٠٠ فدّان) والمنزلة (مسطّحها ٤٠٧,٠٠٠ فدّان)

﴿ الواحات والأودية ﴾ — في مصر خمس واحات ، هي : سيوه ، والبحرية ، والفرافرة ، والداخلة ، والخارجة . وفيها واديان هما : وادي النطرون ووادي البحر بلا ماء

﴿ مواردها الاقتصادية ﴾ — أهمّ موارد ثروة القطر هي الزراعة ،

التي يشتغل بها ثلاثة أرباع السكان ، وأهمّ المحصولات هي القطن والأذرة والقمح والأرز والحمّص والشعير والفول والعدس وقصب السكّر والبرسيم ؛ وأنواع البقول والفاكهة والازهار المعروفة

ومن النباتات المائية : البردي ، وقد اتخذهُ القدماء للكتابة ، وكان شعار الدلتا ، والبشنين وكان شعار طيبة ، وهو ثلاثة أنواع : أزرق وأبيض وأحمر . ولا يوجد في مصر الاّ القليل من أشجار الخشب فتجلب الأخشاب من الخارج

ومن الحيوانات الداجنة : الجمال والخيل والحمير والبغال والبقر والجاموس والماعز والغنم . ولكنّ المواشي لا تفي بحاجة السكان فتورَّد حيوانات للذبح من الخارج بما قيمتهُ مليون جنيه في السنة . أمّا الحيوانات الوحشية فقليلة ومنها الذئب والضبع والثعلب وابن آوى والقنفذ . وكان في مصر قديماً التمساح والأسد والنمر والفهد وفرس البحر . ومن دبابات مصر : العقرب والنمل والجراد والبعوض . وقد اتُّخذت احتياطات مفيدة لازالة الحمى الملارية بإبادة البعوض في الاسماعيلية وبور سعيد وغيرها . ومن الزحافات الحيات السامّة وغير السامّة . ومن الطيور : الغراب والحدأة والصقر والبوم والبكاشون والحمام والدجاج والبط وطيور مائية أُخرى . أمّا السمك فكثير في النيل وفي البحيرات التي تقرب من البحر المتوسّط

أما المعادن في القطر المصري فقليلة منها الذهب والزمرُّد والفيروز في أرض الصحراء الشرقية وفي شبه جزيرة سينا ، والصودا في وادي النطرون ، ويُستخرج الملح من الملاّحات التي على الساحل وخصوصاً في

جهة المكس ، والنترات والفصفات في صحراء الوجه القبلي ، والحجر المعروف بالبسلط المستعمل لتبليط الطرُق ويستخرج من أبي زعبل بالقرب من القاهرة ؛ وآبار زيت البترول في جمسا على البحر الأحمر

﴿ المواصلات ﴾ — كانت ولا تزال أهمية مصر الاقتصادية متوقفة على أمرين كبيرين احدهما خصب تربتها ، وقد تقدَّم الكلام عليهِ ، وثانيهما موقعها في نقطة اجتماع طرُق التجارة بين الشرق والغرب ، ونشأ عن فتح قناة السويس تحويل تجارة آسيا البحرية عن طريق رأس الرجاء الصالح الى مصر . وطول هذه القناة ١٦١ كيلومتراً ، ومتوسط عرضها ٣٠ متراً من الأسفل وبين ٨٠ و ١٣٥ متراً من الأعلى وعمقها ١٠ أمتار . وفي الصحراء مسالك تصل بين الوادي والواحات والبحر الأحمر وتقطع ممرَّات السلسلة الشرقية خارقة سينا وسوريا ، وهذه المسالك كانت مسلوكة من قديم الزمان . أما المواصلات الداخلية فبسكك الحديد وهي على نوعين : اميرية ، وزراعية ضيقة تديرها شركات . وقد أدخلت السكك الحديدية الى مصر في زمن المغفور لهُ عباس الأوَّل . ويبلغ مجموع طولها الآن ٥،٠٩٤ كيلو متراً . وهناك ايضاً مواصلات كثيرة بواسطة الملاحة في النيل ؛ ويبلغ طول القسم الصالح للملاحة من النيل والترع ٣،٥٤٠ كيلو متراً

﴿ الاقليم ﴾ — تدخل مصر في المنطقة الحارَّة رغم ان القسم الاكبر منها واقعٌ شمال خطّ السرطان ، وحرُّها شديد في النهار ولكنَّ وطأتهُ تخفُّ كثيراً في الليل بسبب شدَّة الاشعاع ، وتبلغ الحرارة في مصر

الوسطى في فصل الصيف ٤٣ درجة في ميزان سنتغراد ، وتنخفض في الشتاء الى درجة الصفر ، أمّا على شواطئ البحر المتوسط فانّ الطقس اكثر اعتدالاً . وأمّا في الجنوب فالقيظ صيفاً والبرد شتاءً أشدُّ منهما في سائر أنحاء القطر . ويخيّم فوق القطر ضبابٌ في أيام الشتاء صباحاً الاّ أنهُ لا يدومُ طويلاً . وتهطل الأمطار على سواحل البحر المتوسط في فصل الشتاء ، ويبلغ متوسط قياسها في العام نحو تسعة قراريط ، ولكنها قلّما تقع جنوب الدرجة الحادية والثلاثين من العرض الشمالي . أمّا القاهرة فلا يزيد متوسط ما يقع فيها على قيراط ونصف قيراط

ويغلب على القطر المصريّ في فصل الربيع هبوب الرياح الجنوبية ، وهي المعروفة بالخماسين لأن مدّة هبوبها ٥٠ يوماً تقريباً ، وتسكن عادة عند غروب الشمس . وتهبُّ فيهِ أيضاً الزوابع ، وهي أعاصير عالية من الرمال تحاكي عموداً قائماً في الجوّ يسير بسرعةٍ عظيمة جداً

ومن الاحداث الجوّية التي تكثر في مصر السراب ، ويظهر في الصحراء والأراضي الغابرة بجوار البحر الأبيض المتوسط

الفصل الثاني

أقسام تاريخ مصر — الدور الخرافي — الدور المجهول

أقسام تاريخ مصر — يقسم تاريخ مصر الى خمسة أدوار وهي :

١ً الدّور الخرافي وينتهي بالطوفان

٢ً الدّور المجهول ، يبتدئ من الطوفان و ينتهي سنة ٥٠٠٤ ق.م. يوم استتبت للمصريين حكومة منظمة

٣ً الدّور الوثني ، ويُعرف بالجاهلي ، يبتدئ سنة ٥٠٠٤ ق م. وينتهي بحكم القيصر ثيودوسيوس الذي نهى عن عبادة الأوثان ، وأمر باعتناق المسيحية سنة ٣٨١ ب. م.

٤ً الدّور المسيحي ، ويعرف بعهد النصرانيّة ، يبتدئ سنة ٣٨١ ب. م. وينتهي بالفتح الاسلامي لمصر سنة ٦٤٠ ب. م. على يد عمرو بن العاص في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

٥ً الدّور الاسلامي و يبتدئ من سنة ٦٤٠ ب. م.

الدور الخرافى — اختلف قدماء المصريين في أصلهم فزعم بعضهم ان الالهَ «فتاح» صنع الرجل الأول من الخزف ، وزعم البعض الآخر ان تسعة من الآلهة خلقت في البدء ، «نو»[١] وكان الالهُ «رَعْ»[٢] في باطنهِ ،

(١) المحيط الأول (٢) «رَعْ» هو الالهُ الشمس

ثم ظهر على سطحهِ فبدّد الظلام وقسم الكونَ الى يابسة وماء . ولما رأى اليابسة موحشة مقفرة ذرفَ دموعاً حارّة أوجدت الحيوان ، وأنبتت النبات ، وكانت السماء لا تزال منبسطة على سطح الارض فدخل الالهُ « شو » بينهما ورفع السماء على ذراعيهِ وجعل لها من قمم الجبال الشامخة عمُداً تدعمها وتمنع سقوطها ؛ فصارت الارض كصندوقٍ مربع يكتنفهُ الماء من كل جانب ، ارضهُ اليابسة ، وجدرانهُ الجبال ، وغطاؤهُ السماء

وكانت دموع الآلهة الاخرى ، كدموع رَعْ تحيي وتميت فتأتي دموع الآلهة الصالحة بالصالح ، ودموعُ الآلهة الشريرة بالشرّير

خلق « رَعْ » الانسان طاهراً سعيداً ولكنَّ الآلهـة الشريرة أوصلتهُ تدريجاً الى حالهِ الحاضرة من الفساد والشقاء . على انَّ الالهَ « توت » علّمهُ الكلام ومبادئ الحضارة وأطلعهُ على سرّ الكتابة بعد ان كان يعيش في الغابات كالسباع و يأكل اللحوم نيئة مثلها

ثم حكم « رَعْ » الأرض دهراً طويلاً ، وأقام في عين شمس محاطاً بحاشيـة من الآلهة وكان يخرج معها كل صباح في زورق بديع الصنع ، فيطوف بها حول الأرض زائراً كل بلد ، مصلحاً بين رعاياهُ ، متفقداً أحوالهم ، محسناً اليهم معيناً لمحتاجيهم ، موصلاً اياهم من خزينتهِ الخاصة ومعلماً لهم مقاومة الأمراض والارواح الشريرة . ولما شاخ وانحنى ظهرهُ احتالت عليهِ خادمتـهُ ايزيس وأخذت منهُ طِلَسْماً ورثهُ عن والديهِ؛ ومن مزايا هذا الطلسم انهُ يُبقي حاملهُ معتلياً عرش الملك ويقيهِ كل أذًى ، فزالت بذلك سلطة « رَعْ » الأرضية . ولما رأى الناس أنهُ

لا يصلح للملك تآمروا عليـهِ ، يريدون خلعهُ ، فأدرك نياتهم وجمع اليهِ الآلهة وقصَّ عليهم الأمر ، فحكموا على بني البشر بالقتل وعهدوا في تنفيذ الحكم الى الإلهة « هاتور » وما زالت تفتك بهم فتكاً ذريعاً الى أن أشفقَ « رَعْ » على من بقي منهم فأنقذهم منها . ولكنهُ أبى ان يحكم قوماً ينكرون الجميل فتركهم وصعدَ على ظهر بقرة الى السماء ، وهو الذي يُرى فيها كل يوم من الصباح الى المساء

وخلف «شو» أباهُ «رع» في الملك ؛ ولكنهُ كرهَ الأرض وصعد الى السماء في زوبعةٍ بعد تسعة ايام من ارتقائهِ كرسي الملك

وخلف « سيبو » أخاهُ «شو» فكان ملكَ السماء والأرض والجحيم والماء والرياح والجبال والبحار . وخضع الشعب كلهُ لسلطانهِ الاَّ أولاد الحية الكافرة « أبوبي » ، فكانوا يهاجمون مصر في حالك الليل بطريق البرازخ ، ويفتكون بالأهلين ، ويسرقون ما تصل اليهِ أيديهم ، ويعودون من حيث أتوا قبل طلوع الفجر . وكان « رع » قد حوَّط المدن بأسوار منيعة ، ووضع في هيا كلها طلاسم تقيها أذى الأعداء . ففتح سيبو يوماً صندوقاً منها فيهِ حيَّة هائلة بغيةَ اطلاقها على العدو ؛ فنفثت سماً أصابهُ بحروق وقتل من كان حواليـهِ . ولما رأت الآلهة ما حلَّ بهِ أرشدتهُ الى خصلة من شعر « رَع » اذا هو لمسها شفي ففعل ؛ ثم اطَّرحها في بحيرة فتحوَّلت الى التمساح المعبود « سُبكو »

ولما رزق « سيبو » ابنهُ أوزيريس سمعَ الشعب صوتاً من السماء ينادي : « هوذا سيد الكلّ » فقابلهُ بالهتاف والسرور . ونال اوزيريس

حظوة في عين الإله رَع فنصبَّهُ ملكاً على مصر وزوَّجهُ بأختهِ ايزيس وجعلها شريكتهُ في الملك . وعلَّم اوزيريس المصريين الفلاحة ، واخترع لهم الآلات الزراعية . وعلمتهم ايزيس الطحن بالرَّحى والغزل ونسج الكتَّان ومبادىء السحر والطب لمقاومة الأمراض والأرواح الشريرة ، وسنَّت لهم قوانين الزواج الشرعي

ووضع لهم اوزيريس طقوس العبادة والترانيم الدينية ، وضرب أياماً معلومة للاحتفالات والأعياد ، ووضع كتباً في الدين . ويروى انهُ بنى طيبة ؛ وقيل انهُ وُلد فيها فقط . ثم عهد بالملك الى ايزيس ورحل عن بلادهِ مع الإلهِ توت وغيرهِ من الآلهة وزار واياهم كل شعوب الأرض ، وعلَّم بني البشر الصنائع التي علمها للمصريين ، وملك قلوبهم بلطفهِ ولينهِ وفصاحتهِ ورخامة صوتهِ وحسن عزفهِ على الآلات الموسيقية . ثم قفل راجعاً الى بلادهِ فلاقاهُ أخوهُ « تيفون » الهُ الشرّ ، ودعاهُ الى وليمة شائقة قصدَ الايقاع بهِ واغتصاب ملكه . فأجاب اوزيريس الدعوة غيرَ عالم بما أضمرهُ لهُ اخوهُ من السوء . فقتلهُ تيفون غدراً ووضعهُ في صندوق من خشب وأقفلهُ عليهِ اقفالاً محكماً وطرحهُ في أحد فروع النيل . ولما علمت ايزيس بالأمر مزَّقت ثيابها ، وقصَّت شعرها ، وانطلقت تبحث عنهُ فعثرت عليهِ قرب مصبّ النهر تحت ظلال شجرة من السنط ، فأخذتهُ وأخفت جثتهُ في مكان امين . ولما رزقت ابنها « هوروس » انصرفت الى تربيتهِ في الخفاء خوفاً من عدوّها الألد تيفون

وشبَّ « هوروس » وعلم بما كان من خيانة عمهِ فاضطرَّهُ الى التنازل

عن أرض الدلتا ، فانقسمت مصر بذلك الى مملكتين : الأولى الوادي ، وهي واقعة بين منف والشلاَّل الأول ، وظلَّت في قبضة تيفون ، والثانية الدلتا ، وكانت من نصيب هوروس

ثم حكمت مصر عائلتان من الآلهة كان أكثر ملوكهما في قتال دائم مع خلفاء تيفون فكانت الحرب بينهم سجالاً . وامتدت فتوحات بعضهم الى الفرات من جهة والى الحبشة من أخرى . ولكن بعضهم جنح الى السلم فانصرف الى سنّ الشرائع ، وتحسين نظام البلاد ونشر العلم . وأشهر هؤلاء الملوك « توت » رويَ عنهُ أنهُ تولى الملك مدة ٣٢٢٦ سنة . وهو أوَّل من وضع قواعد النبوة والسحر وعلّم المصريين البحث في أحوال الفلك ، وأوجهِ القمر ، وحركة الشمس ، وقسَّم السنة فجعل الشهر القمري ٣٠ يوماً ، والسنة ١٢ شهراً وقسم السنة الى ثلاثة فصول : أوّلها فصل فيضان النيل ، وثانيها فصل نموّ الزرع ، وثالثها فصل الحصاد . وسمّى شهور السنة بأسماء الالهة فجعل الشهر الأول « توت » وهو يقابل الشهر الثامن من السنة المسيحية ، والشهر الثالث « هاتور » والثامن « رانويت » الهة الحصاد وهلمَّ جرًّا

وبعد انتهاء حكم السلالتين المذكورتين صعد الالهة الى السماء وحكم الكهنة البشر . وسيأتي الكلام عنهم في الفصول التالية

الدور المجهول — كلُّ ما يعرفهُ المؤَرخون من تاريخ هذا الدّور ظنٌّ وتخمين ، والظاهر من الآثار التي عثروا عليها حتى الآن ان المصريين هاجروا من آسيا الى مصر بطريق برزخ السويس ، واستوطنوا في أول

الأمر الدلتا وتسمّوا باسم قائدهم مصرايم [١] بن حام بن نوح . ثم تكاثروا وانتشروا في الوادي ، دانيهِ وقاصيهِ ، واختصوا بعضاً منهم بالمحافظة على الوطن والدفاع عنهُ ، وسلّموا مقاليد حكومتهم الى الكهنة ، فانقسم المصريون بذلك الى ثلاثه أقسام : الكهنة وهم أولو النفوذ ، والجند ثم العامة . وكانت عاصمة الكهنة في ذلك الدور مدينة طيبة الشهيرة بآثارها

(البقرة هاتور)

(١) ومن هذا الاسم اشتقت لفظة مصر

الفصل الثالث

الفراعنة وعائلاتهم — اقسام العصر الجاهلي — الدور المنفي

الفراعنة وعائلاتهم — من الصعب على المؤرخ أن يكتب تاريخ المصريين الأقدمين لتوغلهِ في الجاهليـة الأولى التي لم تحفظ الايام الا النزر الأقل من آثارهـا للاستدلال عليها. غير أن الذي آثره بعض المؤرخين القدماء، واستنتجـهُ بعدهم رجال البحث، وعلماء الآثار، مما توفقوا الى اكتشافهِ من المخطوطات الهروغليفية والعاديات المحفوظة هو الذي يحتوي ملخّصهُ هذا الفصل من تاريخ مصر على عهد ملوكها في العصر الجاهلي

المصريون كغيرهم من الشعوب في صدر جاهليتها رفعوا ملوكهم عن درجات البشر الى مصاف الآلهة، واعتقدوا فيهم اعتقادات شتى. من ذلك زعمهم ان للملك نفسين: الواحدة سيدة الصعيد والاخرى سيدة الدلتا. وكان يلقب بفرعون وهي لفظة مصرية أصلها «فاراه» ومعناها نور الشمس، وفي رواية أخرى ان فرعون لفظـة مركبة من اسمي قصرَي الملك پير وعوى اللذين كانا رمز الصعيد والدلتا. وكان المصريون يعتقدون بتناسل الفراعنة من الالهِ الشمس تناسلاً شرعياً فاذا مات فرعون ارتفع في الفضاء ولحق بها، واذا انقرضت ذريتهُ أو خلع عن سرير الملك تزوج الفرعون الجديد باحدى بنات سلفهِ لتكون من أولادها ذرية للشمس؛

ولذلك اعتقد المصريون ان ملوكهم ابناء عائلة واحدة ، تعددت فروعها ، فكانت منها عائلات مختلفة ترجع كلها الى أبيها الاكبر . وقد قسم مانيثون في تاريخ مصر الذي وضعهُ بأمر بطاميوس فيلادلفس ، الملوك الاوَل من عهد مينا حتى عهد الاسكندر الى ٣١ عائلة . ويقال ان عدد العائلات التي حكمت مصر من عهد مينا الى يومنا ٤٥ عائلة منها ٣٤ عائلة جاهلية ، وواحدة مسيحية وعشر اسلامية . وكانت الوطنية منها تسمى باسم البلد الذي خرج ملوكها منها كالعائلة الطيبية نسبة الى مدينة طيبة ، والاهناسية نسبة الى اهناس وتسمى الاجنبية باسم بلادها كالفارسية نسبة الى بلاد فارس والايثوبية نسبة الى ايثوبيا

أقسام العصر الجاهلي — يقسم هذا العصر الى خمس دول وهي :

١ً الدولة القديمة او الدور المنفي ؛ بدأت بالعائلة الاولى وانتهت بالعاشرة وكانت عاصمتها منف

٢ً الدولة الوسطى ، أو الدور الطيبي الاول ؛ بدأت بالعائلة الحادية عشرة وانتهت بالسابعة عشرة وكانت عاصمتها طيبة

٣ً الدولة الجديدة ، أو الدور الطيبي الثاني ؛ بدأت بالعائلة الثامنة عشرة وانتهت بالعائلة العشرين . وكانت عاصمتها طيبة ايضاً

٤ً الدولة الصاوية بدأت بالعائلة الحادية والعشرين وانتهت بالحادية والثلاثين الفارسية

٥ً الدولة اليونانية ؛ من سنة ٣٣٠ الى سنة ٣٠ ق . م .

الدور المنفي — يبتدئ سنة ٥٠٠٤ ق . م . بالعائلة الاولى المنفية وينتهي سنة ٣٠٦٤ بالعائلة العاشرة

(العائلة الاولى الطينية) — عدد ملوكها ٩ ومدتها ٢٥٣ سنة — سميت بالطينية نسبة الى مدينة طينة [١] ، وهي أول عائلة ملكية حكمت مصر بعد الكهنة

كانت حكومة الكهنة حكومة ظلم واستبداد فثار عليها الجند تحت قيادة الزعيم مينا [٢] واضطرّها الى الاعتراف بهِ ملكاً على مصر . وكان ذلك في سنة ٥٠٠٤ ق . م .

وكان مينا عاقلاً فأبقى للكهنة شيئاً من نفوذهم وأجاز لهم ملاحظة أعمالهِ منعاً للفتن وارضاءً للمعتصمين بالدين . على انهُ عمل على اضعاف ذلك النفوذ شيئاً فشيئاً الى ان جعلهُ اسماً لغير مسمى . وكان عادلاً محباً للاصلاح فسنّ القوانين والشرائع التي سار عليها خلفاؤُه ، ووضع أول نظام سياسي في مصر ، وقسم المملكة الى ٤٤ ولاية ، جاعلاً لكل واحدة منها والياً يدير شؤونها تحت مراقبتهِ ، وبنى مدينة منف [٣] وجعلها قاعدة لملكهِ . ومما اشتهر بهِ هذا الملك أنهُ حوّل النيل عن مجراهُ الأصلي في سفح الجبل الغربي الى مجراهُ الحالي ، وكانت مياههُ تضيع قبلاً في صحراء ليبيا فسدّ

---

(١) طينة مدينة معروفة عند الافرنج بمدينة تينيس Thinis وكانت بجوار جرجا الحالية (٢) Ménès او Ména ويسمى بالعربية منا ومينيس وميناوس وبالقبطية مينه (٣) حيث الآن البدرشين وميت رهينه

مجرى النهر من الجنوب، وأنشأ سدًّا (١) يمنع اتجاهَ الماءِ نحو الغرب فجفَّ النهر من الامام، ثم رفع السدّ فأخذ الماءُ مجراهُ الحالي، فتحسَّن بذلك الري ومن ثم تحسنت الزراعة

ومما يروى عن مينا أنه غزا ليبيا وضمها الى مملكتهِ، ثم وجَّهَ التفاتهُ الى نشر العلوم وجعل عاصمتهُ «منف» مركزاً لها وظلت الى عهد اليونان دار المعارف فأتاها العلماء والفلاسفة من كل أنحاء الأرض

ومات مينا بعد ان تولّى الملك ٦٢ سنةً وخلفهُ ابنهُ تيتا. ويؤثر عن هذا انهُ وضعَ كتباً في علم الجراحة والطبّ، وشيد قصراً عظيماً في منف. وليس سوى هذين الملكين من ملوك العائلة الأولى مَن هو جدير بالذكر

(العائلة الثانية الطينية) — عدد ملوكها ٩ ومدتها ٣٠٢ سنة — أول ملوكها «بصاو» وفي أيامهِ زلزلت الأرض زلزالاً شديداً في مدينة بوبست المعروفة الآن بتلّ بسطه فهلك فيها كثيرون. ومات بصاو بعد ان حكم ٣٨ سنة. وخلفهُ كيكيوس؛ واليهِ نسب المؤرخون وضع عبادة الحيوانات وخصوصاً العجل أبيس بمنف، وقد ملك ٣٩ سنة

ثم خلفهُ «يينوتريس» ويقال أنه أول من سنّ القانون الذي يبيح للنساء توليّ الملك. وزعم ان الملك نائب الآلهة وابن الالهِ الشمس وأنهُ يندمج فيها بعد موتهِ فنتج عن هذه الدعوى احترام المصريين لملوكهم

---

(١) يعرف هذا الجسر الآن بجسر القشيشة بناهُ مينا من تراب بحيرة احتفرها عند مدينة منف

احتراماً دينياً يقربُ من العبادة . ومات « ينوتريس » بعد ان ملك ٤٧ سنة . ومن ملوك هذهِ العائلة أيضاً « استنس » وقد أتمّ رسالة تيتا الطبية . ولم تنقرض هذهِ العائلة حتى أتت على اخضاع مصر كلها لحكمها وجعلت منها أمة واحدة

(العائلة الثالثة المنفية) — عدد ملوكها ٩ ومدتها ٢١٤ سنة — سميت كذلك نسبة الى مدينة منف ؛ وأول ملوكها نخروفوس . ويروى ان الليبيين ثاروا عليهِ في أول عهدهِ بالملك فأصلاهم حرباً عواناً ؛ وحدث ان القمر خسف والقوم يقتتلون فحسب الليبيون الخسوف دليلاً على غضب الآلهة لعصيانهم ، فارتعدوا خوفاً وكفّوا عن القتال مستسلمين . ومات نخروفوس بعد ملك ٢٨ سنة

وخلفَهُ توزورترُس وكان عالماً بالطب وكتب فيهِ ، وذهب بفنّ قطع الاحجار ونحتها الى حد الكمال . وكان ملكهُ ٢٩ سنة

وآخر ملوك هذهِ العائلة ، واسمهُ سنفرو ، هو أول فرعون وقف لهُ المؤرخون على أثر صحيح ؛ فقد وجدوا نقوشاً بارزة على صخرة في احد أودية الطور تمثل فوزهُ على البرابرة المستوطنين بادية العرب . وأغار سكان جبل الطور في عهدهِ على حدود مصر فغزاهم واستخرج من جبلهم الجواهر والحجارة النفيسة . وكان محباً لرعاياهُ شجاعاً عادلاً فأحبهُ المصريون وظلوا بعد موتهِ يعبدونهُ حتى عصر البطالسة

ومن أشهر الآثار التي خلفتها لنا هذه العائلة أبو الهول في الجيزة ، وهو تمثال حيوان هائل ، لهُ جسم أسد ورأس انسان اشارة الى القوة

والعقل . وقد نحتوهُ من صخرةٍ في صحرآء ليبيـا ، ورمزوا بهِ الى الإله الشمس ، ووضعوهُ بحيث يظهر نظرهُ مشرفاً على الوادي من أقصاهُ الى أقصاهُ

(العائلة الرابعة المنفية) — عدد ملوكها ١٤ ومدّتها ٢٨٤ سنة — تدل الآثار الكثيرة التي تركتها لنا هذهِ العائلة على حزم بعض ملوكها وحكمتهم، وحسن ادارتهم البلاد . ومما يؤثر عن هؤلاء الملوك أنهم حصروا اهتمامهم في اصلاح شؤون مصر الداخلية ، مكتفين من حين لآخر بغزو الليبيين سكان الواحات الواقعة غربي النيل ، والاعراب الذين كانوا يقطنون الجهة الشرقية بين النيل والبحر الاحمر . أما حدود مصر الاخرى فكانت صحارى جدبآء لا يخشى عليها اعتداء جار . على ان بعض فراعنـة هذهِ العائلة رغبوا في شبهِ جزيرة طور سينا لما فيهـا من الاودية المملوءة من مناجم النحاس والفيروز ، فاحتلوها واستخرجوا معادنها أجيالاً طوالاً ، وأنشأوا في محلات كثيرة منها سدوداً تحبس مياهَ الأمطار ؛ فكانت منها بحيرات صناعية صغيرة تصلح لريّ بعض الأراضي واتربيـة الماشية . ولم يتنبّـه أحد من هؤلاء الملوك الى احتلال هذهِ الواحات الصناعية احتلالاً تاماً يمنع التعدي عليهـا . ولم يكن بين اراضي آسيا الممتدة وراء الصحراء ، التى نشأت منها فيما بعد بلاد فلسطين ويهوذا ، و بين مصر سوى علاقة تجارية ؛ فكانت القوافل تسير ابداً على هذهِ الطريق بين أفريقيا وآسيا ، اما الجيوش فلم تطرقها قط

ومن أعظم ملوك هذهِ العائلة : خوفو أو خيوبس ويؤثر عنهُ انهُ

بنى الهرم (١) الأكبر في الجيزة في خلال ثلاثين سنة . ويقال انه أقفل المعابد وحرّم القرابين ثم سخّر المصريين في البناء فكان يستخدم منهم كل ثلاثة اشهر مئة ألف عامل . ويبلغ ارتفاع هذا الهرم اليوم ١٣٧ متراً وضلع قاعدتهِ ٢٣٥ متراً وهو مؤلف من مئة صفّ من الحجارة الجسيمة الهائلة ؛ قيل ويمكن ان يبنى بحجارتهِ جدار ارتفاعهُ ٦ أمتار وطولهُ نحو ٤٠٠٠ كيلومتر . وفي الهرم المذكور حِجَرٌ منها واحدة تعرف بحجرة الملك واخرى بحجرة الملكة ؛ وهناك دهاليز تؤدي الى هذهِ الحجر ، وكوة فتحها عمرو ابن العاص

وخفرع أو خفرن تولى الملك ٦٦ سنة وبنى لهُ هرماً يشبهُ هرم سلفهِ الاَّ انه أصغر منهُ وسماهُ « آر » ومعناهُ الكبير . وقد نسب المؤرخون الى خوفو وخفرع الاستبداد والظلم لتسخيرهم الرعية في بناء الهرمين . ويروى ان المصريين اخرجوا جثتي هذين الملكين من قبريهما وكسروا تابوتيهما انتقاماً وبغضاً . على ان غيرهم من المؤرخين يحسبون هذهِ الأحاديث روايات ملفقة

ومنكورع باني الهرم الاصغر المجاور لهرمَي خوفو وخفرع وقد سماهُ « حور » أي الأعلى وكان ملكاً عادلاً رؤوفاً بالرعية ففتح الهياكل التي أقفلها سلفهُ ، وأباح للناس العبادة والتفرغ الى شؤونهم الخاصة . وقد وجدت جثتهُ في تابوت من حجر الصوَّان داخل هرمهِ فنقلتهُ الدولة

---

(١) وقد وقف الباحثون في هذه الايام على اطلال نحو ستين هرماً في مصر الوسطى بين الفيوم والقاهرة . اما هرم خوفو فاسمهُ (خوت) ومعناه البهي

الانكليزية الى دار العاديات في انكلترا . ومن النقوش المحفورة على غطاء تابوتهِ (١) ما يدل على انهُ كان ملكاً لكل البلاد المصرية ؛ ويستدل من آثار أخرى أن الزراعة كانت في عهد هذهِ العائلة على أحسن حال من الفلاح والتقدم ، وان الصناعة كانت بالغة من الاتقان شأواً بعيداً ، وعندنا مئات من القبور تشير بما هي عليهِ من حسن الصنع وبما فيها من النقوش الجميلة الى الدرجة السامية التي بلغها فنّا البناء والنقش في ذلك الزمان

(العائلة الخامسة المنفية) — ملوكها ٩ ومدتها ٢٤٨ سنة — أول ملوكها كما يؤخذ من الآثار الملك « اسكاف » ، وكان محترماً من الكهنة لتعبده ومحبتهِ للرعية . وكان فقيهاً محباً للعلم . وقيل انهُ وضع فنّ الهندسة ورصد الكواكب ، وسنّ قانوناً للاستقراض يجيز للانسان ان يرهن مدفن أبيه على مبلغ يستدينهُ ويستخدم الدائنُ المدفن الى ان يستوفيَ الدين . ومات اسكاف بعد ان تولى الملك ٢٨ سنة . ثم خلفهُ سفرس فبنى هرماً الى شمال قرية بوصير سماهُ « حعبا » ومعناهُ بعثة الروح . وكان المصريون يحبون سفرس كثيراً ، فلما مات أقاموا لهُ معبداً خاصاً بهِ وعيّنوا لعبادتهِ أياماً معلومة لا يعبد فيها غيره من الآلهة

ومن ملوكها « نفرار كارع » وفي أيامهِ عمرت البلاد واتسع نطاق العلم . ومن اشهر آثار هذهِ العائلة مقبرة سقارة ذات الرسوم البديعة والصور الغريبة : فهناك صائدو الاسماك ، وقانصو الطيور ، وزارعو الارض

---

(١) غرقت السفينة التي أقلتهُ على مقربة من البرتغال ولم ينجُ سوى الجثة وغطاء التابوت

وهناك مواشٍ ترعى ، وسفن تشقّ عباب الماء ، ورسوم ورموز كثيرة غير تلك . وقد بنى هذهِ المقبرة ودفن بها « تي » صهر الملك « عنوسر » سابع ملوك هذهِ العائلة ، ولا تزال صورة « تي » في دار العاديات الى اليوم

والظاهر من تاريخ هذهِ العائلة انها سارت على خطة العائلة الرابعة من حيث نشر الأمن ، وتأييد النظام ، والاهتمام ببناء القصور والقبور ، وتوفير اسباب الثروة والفلاح ؛ ومع ذلك فقد اخذت مصر على عهدها في دور الانحطاط الذي انتهى بالسقوط . وكان امراء الولايات حتى ذلك العهد يتولون الامارة بالأرث ويستقلون بالحكم في ولايتهم . وكانوا في مقابل ذلك يدفعون الى الملك اتاوة معلومة ، ويمدونهُ عند الحاجة بالجند والذخيرة . وما زالت هذه الولايات الاقطاعية تزداد قوة وغنى الى ان قام ، في عهد تاسع ملوك هذهِ العائلة ، الامير « أوناس » أحد امراء هذهِ الولايات وأصلهُ من جزيرة اسوان [١] وثار على الملِك وشاطرهُ الملك . وكان بموت هذا الملك انقراض العائلة المنفية الخامسة

(العائلة السادسة الاسوانية) — ملوكها ٦ ومدتها ٢٠٣ سنوات — انقسمت مصر في اول حكم هذهِ العائلة الى مملكتين مستقلتين بين الملكين تتي وأتوس ؛ فكان الأول يحكم الدلتا ، وهو آخر ملك خرج من

---

(١) اسوان وتسمى ايضاً بجزيرة الذهب لوفرة التبر النقيّ في رمالها ويوجد فيها مقياس النيل المشهور وتعرف ايضاً عند الافرنج بجزيرة الفيل (Eléphantine) لأن قدماء المصريين كانوا يسمونها « آب » أي الفيل ، ويقال انها كانت سوقاً لمبيع سنّ الفيل

منف ، وأتوس يحكم الصعيد ، وهو أول ملوك العائلة السادسة الاسوانية . وكانت قاعدة ملكهِ جزيرة اسوان ، وقد قتلهُ قومهُ بعد ان حكم ٣٠ سنة

وخلف « پيبي مريرع » تتي وأتوس ، ملكاً على مصر كلها ، وأقام في جزيرة اسوان وكان شديد البأس محباً للغزو فحارب القبائل المستوطنة شرقي الدلتا وغربيّها ، وأخضعها ونكّل بأهلها تنكيلاً وقهر بلاد النوبة وأدخل النوبيين في سلك الجيوش المصرية . وبعد ان استتبّ لهُ الأمر صرف همهُ الى تسهيل أسباب التجارة بين مصر والخارج فأنشأ طريقاً بين قنا ومينا القصير على ساحل البحر الأحمر ، وبنى في هذهِ الطريق عدة فنادق وحفر فيها جملة آبار للشرب

وكان لهذا الملك وزير خطير يدعى « اونا » شبَّ في بلاط الملك « تتي » ونال منهُ التفاتاً خاصاً وعناية كبرى . ثم استوزرهُ الملك پيبي فكان ساعده الأيمن ، ومشيره الحكيم

ومما يروى عن پيبي أنهُ أصلح معبد دندره ، ولقب نفسهُ بابن حاتحور ويقال انهُ اعتنى كثيراً باستخراج المعادن وبناء مدينة لهُ في مصر الوسطى . وقد مات بعد ان حكم ٥٣ سنة

وخلفهُ ابنهُ مرينرع الاول فضاعف سلطة « اونا » بتسليمهِ اليهِ مقاليد حكومة الصعيد بتمامها ، وكانت أيام ملك مرينرع هذا أيامَ سلام وسكينة ، وقد حكم سبع سنين . وخلفهُ الملك « فيوبس » وكان مدبراً حازماً ، فبلغت مصر في أيامهِ من النفوذ وبُعد الصيت مبلغاً عظيماً ، وحافظت على حدودها ورونقها برغم الفتن والثورات التي حدثت في

عهدهِ ومن أعظم انتصاراتهِ اخضاعهُ الزنوج في جنوب مصر والقبائل الأسيوية الرحّالة . ثم مات بعد ان حكم مئة سنة كاملة

وخلفهُ مرينرع الثاني . وقتل في السنة الثانية لارتقائهِ الملك

ثم خلفتهُ اختهُ زوجتهُ الملكة نيتوكريس ، وقد وصفها مانيثون بالحسن والكمال . ولما استتبّ لها الملك عمدت الى الأخذ بثأر أخيها فأعدت في قصر تحت الأرض ذي نفق يصل الى النيـل ، ولمية شائقة دعت اليها كثيرين من الأعيان وبينهم قتلة أخيهـا . ولما انهمكوا في الأكل والشرب أفاضت عليهم ماء النيـل من النفق فغرقوا جميعاً ؛ ثم خشيت غضب الشعب وانتقامهُ فانتحرت وانقرضت بموتها العائلة السادسة

(العائلتان السابعة والثامنة المنفيتان ، والتاسعة والعاشرة الاهناسيتان)

— بعد انقراض العائلة السادسة الاسوانية تولت الملك عائلتان من منف ثم خلفتهما عائلتان من امراء هيراقليو بوليس (١) وكانت قاعدة ملكهما مدينة اهناس بمديرية بني سويف . ولم يتوصل أحد من المؤرخين الى معرفة شيء من أخبار هؤلاء الملوك ، ولا توفق الباحثون الى العثور على أثر من آثارهم ؛ حتى ان ماينثون نفسهُ لم يذكر عنهم شيئاً ولم يتعرّض لذكر أسمائهم . وكل ما يروى عن هذهِ العائلات انما هو ظنون . فكأنما مصر استغرقت في الكرى مدة ٤٣٦ سنة ، ولم تستفق الا بانتهاء الدور المنفيّ وابتداء الدور الطيبي

(١) لفظة يونانية الاصل سمّي بها قسم من أقسام الصعيـد في الزمن القديم وكانت قاعدتهُ اهناس وتعرف قديماً بخينتسو

خلاصة

الدور المنفي

لم يهتمّ ملوك العائلة الرابعة بما هو خارج عن حدود مصر الطبيعية ولم يخرجوا منها الاّ لاحتلال شبهِ جزيرة طور حيث أنشأوا مستعمرات وطيدة الدعائم خصصوها لاستخراج المعادن

وكان الأمن في داخل مصر عاماً والنظام سائداً ، ولا شاغل للفراعنة الاّ بناء قبورهم الهائلة ، وهي اهرام عديدة ممتدّة من الفيوم الى القاهرة على حدود صحراء ليبيا . وأعظم هذهِ الاهرام هرم خوفو وهرم خفرن وهرم منكورع في الجيزة

ولما قامت العائلة الخامسة أخذت سيطرة منف في الانحطاط وسيطرة الولاة الاقطاعيين في مصر الوسطى في الازدياد . ثم اغتصبت المُلك احدى عائلات هؤلاء الولاة ، وأصلها من جزيرة أسوان ، فكانت منها العائلة السادسة ، وابتدأ أحد ملوكها وهو بيبي الأول بافتتاح النوبة ، وأخضع الأمم المستوطنة شرقي الدلتا وغربيها ثم عاد الملك بعد موتهِ بمدة وجيزة الى منف ، وكان ذلك في زمن العائلتين السابعة والثامنة ، ثم ما لبثت ان فقدتها الى الأبد

وجاءت بعدهما عائلتان من مدينة هيراقليوپوليس ، وهما التاسعة والعاشرة ، فمهدتا طريق الانتقال من الدولة القديمة الى الدولة الوسطى . ثم دبّت الحياة السياسية في مصر الجنوبية واستقرت فيها حكومة البلاد الى ان قام ملوك العائلة الحادية عشرة واستولوا بعد حروب طويلة على مصر واتخذوا مدينة طيبة عاصمة لهم . وكان ذلك في سنة ٣٠٦٤ ق . م

الفصل الرابع

الدور الطيبي الاول — دولة العمالقة

الدور الطيبي الاول — يبتدئ سنة ٣٠٦٤ بالعائلة الحادية عشرة وينتهي سنة ١٧٠٣ ق. م. بالعائلة السابعة عشرة

(العائلة الحادية عشرة الطيبية)—ملوكها ١٦ ومدتها ٤٣ سنة— وقد أخذ تاريخ مصر على عهدها في الظهور بعد الخفاء ، وحكم امراؤها في بداية الأمر تحت سلطة ملوك العائلة السابقة الاهناسية الى أن قام بالأمر «أنتف عا» الرابع فاستقل بحكم الوجهِ القبلي ، واتخذ طيبة[1] قاعدة لهُ وأخضع أهالي آسيا الشمالية فكان واضع أساس هذهِ الدولة الجديدة . ثم خلفهُ (منتوجتب) الرابع فنزع الدلتا من ملوك اهناس وأصبحت مصر بتمامها في قبضة يدهِ وجاء بعدهُ (سنخ كارع) فبنى الفنادق للقوافل التي كانت تأتي بالبضائع والسلع من الهند و بلاد العرب وحفر العيون تسهيلاً للمواصلات التجارية بين مصر وآسيا . ثم قامَ ملوك دون سلفائهم حكمة ودراية فما زالوا في ضعف وتقهقر الى ان انقرضت عائلتهم ، وخلفتها العائلة الثانية عشرة الطيبية

(العائلة الثانية عشرة الطيبية) — ملوكها ٨ ومدتها ٢١٣ سنة — ولما استتب الأمر لهذهِ العائلة أخذت تعمل على توحيد حكومة البلاد واعادة

---

(١) في مديرية قنا

AUC - LIBRARY

نظامها واحياء مدنيتها الأولى بعد أن أمست على وشك السقوط تتنازعها عوامل الاهواء وتنتابها كوارث الفتن . وما زالت هذه العائلة تجاهد الى أن جمعت كلمة البلاد وضمت شتيتها ووحّدت في طيبة سلطانها ؛ ثم شرعت في احتلال اثيوبيا والنوبة وغيرهما من البلاد المجاورة احتلالاً نهائياً . وكان أول ملوكها « امنمحعت » الأول ، وقد قاتل جميع الاعداء الذين تألبوا عليهِ من ليبيين ونوبيين واسيويين ، وقهرهم حول قلعة تاتوي غربي منف ، وما زال بهم حتى أخذ منهم منف وطردهم من مصر . وبعد استقلالهِ عشرين سنة بالملك أشرك معهُ فيهِ ابنهُ الأكبر . ولما حانت وفاته دعاهُ اليهِ وقال لهُ :

« يا بُنيّ لقد اصبحتَ حاكم الأقاليم الثلاثة — ويعني بذلك الوجهَ القبلي والوجهَ البحري والنوبة — فاقتدِ بأحسن ما كان يفعلهُ أسلافك وحافظ على نظام الرعية ولا تكن في معزل عنهم ، ولا تعجب بنفسك ، ولا تقتصر على مصاحبة الغني دون الفقير ، ولا تسرع بتقريب الوافد اليك ؛ فان ضمائرهِ خافية عليك »

وقد اعتنى (امنمحعت) المذكور في استخراج الذهب من النوبة ، وقام بغزوات عديدة رجع منها وقد أخضع بني واواي ، وبعض طوائف الزنوج وكانت مدة حكمهِ ٣٠ سنة

واستقلّ بالملك بعدهُ ابنهُ (أوسَورتسن) الأول ، وهو الذي أقام أمام باب هيكل الشمس المدعو « أتوم » مسلّتين من حجر الصوان . وتوجد الآن احداهما في المطرية ، ويبلغ طولها نحو عشرين متراً

وكان أوسرتسن واسع الكلمة والشهرة ، وقد حكم ٤٦ سنة بالعدل والرأفة بالرعية ، فأحبهُ المصريون حباً شديداً ، وعبدوهُ قبل موتهِ وبعدهُ وأطلقوا اسمهُ على جميع ملوك عائلتهِ

ثم جاء بعدهُ أمنمحعت الثاني . ثم اوسرتسن الثاني ويسميهِ مانيثون سيزوستريس . ثم اوسرتسن الثالث وكان عاقلاً ذا حزم وتدبير فشيَّد حصوناً وقلاعاً في وادي حلفا منعاً لدخول الاعداء أرض مصر . وقد وجد الباحثون في أخربة هذهِ الحصون حجرين مكتوب على أحدهما . هذا حدّ مصر الجنوبي ، وُضع في السنة الثامنة لحكم الملك اوسرتسن الثالث المخلد الذكر ،فلا يجوز لأسوَد أن يتعداه الخ

ومن اشهر ملوك هـذهِ العائلة امنمحعت الثالث وهو الذي حفر في الفيوم (١) بحيرة موريس (٢) المشهورة جاعلا سطحها عشرة ملايين متر مربع . ذلك انهُ رأى مصر عرضة للجدب اذا ما هبط النيل ، وللغرق اذا ما فاض ؛ فحفر هذهِ البركة في الصحراء الغربيـة ومدّ اليها ترعتين يجري اليها ماء النيل فيهما ، فكان يسدّها اذا امتلأت ويسقي منها الأراضي الزراعية لدى هبوط النيل . وكان اذا جاء النيل عند فيضانهِ مرتفعاً فوق الحاجة وطغا على شواطيء البحيرة يفتح سدّها فينصب الماء منها الى بحيرة أخرى طبيعية منخفضة عنها على يسارها تعرف ببحيرة قارون

---

(١) اسمها في القديم فايوم أو بايوم ومعناهُ بالهرمسية بلد البحر ، ثم عربها العرب فسموها بالفيوم (٢) موريس لفظة مشتقة من مري ومعناها باللغة المصرية بحيرة

AUC - LIBRARY

وقد بنى هذا الملك في الجهة الشرقية من هذهِ البحيرة قصراً فخماً يعرف باسم لابيرنته[١] فيهِ ٣٠٠٠ غرفة ، نصفها في الطبقة السفلى ونصفها الآخر في الطبقة العليا. وفيهِ أيضاً رحبات فسيحة مسقوفة جميعها بالحجارة وقائمة على أعمدة من الحجر الأبيض الساطع. وفي آخر القصر هرم بديع الرسوم غريبها ، دُفن فيهِ امنمحعت الثالث. وكان ينعقد مجلس الأعيان في هذهِ الدار للمداولة في سياسة البلاد وادارة شؤونها

وبعد ان حكم امنمحعت الثالث ٤٢ سنة خلفهُ امنمحعت الرابع واختهُ الملكة « سبك نفرورع » وهما آخر ملوك العائلة الثانية عشرة. وكانت مصر في عهد هذهِ العائلة قوية راقية منتظمة الشؤون واسعة الارجاء معزّزة بالقلاع والحصون

(العائلة الثالثة عشرة الطيبية) — ملوكها ٦٠ ومدتها ٤٥٣ سنة — لم يوفّق المؤرخون الى الوقوف على تفاصيل أخبارها ، ولكن المعروف عن ملوكها انهم احتفظوا بمجد مصر ووسّعوا حدودها الى ما وراء الشلال الرابع ؛ وقد ظهرت آثار كثيرة في تلك الاصقاع من آثارهم . وفي آخر أيامهم اغتصب الملك منهم قومٌ من مدينة اكسويس[٢]

(العائلة الرابعة عشرة السخاوية) — ملوكها ٧٦ ومدتها ١٨٤ سنة — سميت بذلك نسبة الى سخا ، ولم يذكر (مانيثون) شيئاً من أخبارها

---

(١) اسمهُ بالهرمسية لابوراحونت ومعناهُ معبد فم البحيرة

(٢) في مديرية الغربية وقد قامت على اطلالها مدينة سخا

ولا تعرّض لذكر اسماء ملوكها . وقد قال ماريت باشا بوجود آثار لها في مدينة اسيوط

دولة العمالقة أو الرعاة — وهي تشمل العائلة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة

(العائلة الخامسة عشرة الصانية) — ملوكها ٦ ومدتها ٢٤٩ سنة —

كانت مصر في عهد العائلة الرابعة عشرة في انحطاط وضعف بسبب خلاف السخاويين والطيبيين وتنازعهم الملك . فانتهز بعض القبائل الرحّالة من الشام فرصة هذا الشقاق للاغارة عليها تحت قيادة «سلاطيس» فأتوها وأتلفوا معابدها ومبانيها ، واحتلوا الوجهَ البحري منها ، واتخذوا مدينة « صان »[1] عاصمة لهم وسُمّوا بالرعاة . وأول ملوكهم القائد « سلاطيس » وهو المعروف عند العرب « بالوليد بن روقع » . وقد تولى الملك ١٩ سنة قضاها في القتل والسلب وبناء القلاع ومحاربة الملوك الوطنيين في الوجهِ القبلي واحراق الهياكل والاكثار من معدات الحرب ومضاعفة عدد الجند لصدّ هجمات المصريين

ثم قام بعدهُ بالملك خمسة ملوك حذوا حذوهُ فأبغضهم المصريون بغضاً شديداً لجورهم واستبدادهم . وقد دلت الآثار التي عُثر عليها أخيراً على أن الرعاة كانوا من العرب العمالقة لا من العبرانيين ، كما زعم بعض المؤرخين

(العائلة السادسة عشرة الصانية) — ملوكها ٣٢ ومدتها ٢٦٢ سنة —

ولم يرد من اسمائهم في التاريخ الاّ اسم « ايوفيس » ، وهو المعروف عند

---

(١) في الشرقية

العرب بالريان بن الوليد ؛ وكانت قاعدة ملكهم مدينة صان

نزع ملوك هذهِ العائلة الوجهَ القبلي من أيدي فراعنة مصر ، ومالوا الى حضارة اهلها والتخلّق بأخلاقهم والتدين بدياناتهم . فأحيوا ما اندرس من معالم العمران والتمدن ، واستبدلوا القوة والشدّة بالرأفة واللين ، وتلقبوا بالفراعنة ؛ واهتموا بنشر الأمن والراحة ، واختاروا للمناصب العالية رجالاً محنكين مهذّبين من خيرة المصريين ، وشادوا المدارس ومهروا ملوك طيبة بفنيّ البناء والحفر

وفي عهد هذهِ العائلة وفدت الى مصر السيّارة التي اشترت يوسف من اخوتهِ بعد اخراجهِ من الجبّ ، فباعهُ رئيسها الى فوطيفار وزير فرعون مصر الريان بن الوليد . ثم زجهُ سيدهُ في السجن (١) كما ورد في الكتاب المقدس . وهناك اجتمع على خبّاز الملك وساقيهِ . وحدث ان رأى كلاهما رؤيا وسألا يوسف ان يفسّر لهما ما رأيا — قال الساقي : رأيت في النوم كرمة أمامي ، وفي الكرمة ثلاثة أغصان ، أفرخت أمامي وأزهرت وأثمرت ونضجت عناقيدها ، وكانت كأسُ فرعون في يدي فعصرت فيها العنبَ وقدّمتها لفرعون — فقال لهُ يوسف : في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك ويردّك الى مقامك ، وتقدم لهُ الكأس كما كنت تفعل أولاً ، فاذكرني عند سيدك — وقال الخبّاز : رأيتني احمل فوق رأسي ثلاثة سلال فيها خبزٌ تأكل الطير منهُ — فقال يوسف : بعد

(١) كان السجن الذي زجّ يوسف فيهِ في الجانب البحري من سقارة ومكانهُ معروف للآن لدى ساكني تلك الجهة

ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك . فكان ما قال

وبعد سنتين رأى الريان في نومهِ سبعَ بقراتٍ سمان خرجن من النهر، ثم خرج عليها سبع بقرات اخرى قبيحة المنظر عجافٍ فابتلعت السمان . ثم استيقظ فرعون ، ثم نام؛ فحلم ثانية انهُ رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها ، وسبعاً أخرَ يابساتٍ قد أورقت والتوت على الخضر وابتلعتها . فجمع فرعون السحرة والكهنة والمعبّرين ، واستفتاهم في رؤياهُ ، فقالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . فذكر الساقي حينئذٍ يوسف عند الملك ، فأرسلهُ اليهِ واستفتاهُ في رؤياهُ فقال يوسف : ستكون سبعُ سنيّ خصب يعقبها سبع سنيّ جوع . وأشار على فرعون بحفظ خُمس غلة أرض مصر في سني الشبع لدفع غائلة المجاعة في سني الجدب . فسرَّ منهُ الملك ، وعمل بمشورتهِ ، وجعلهُ اميناً على خزائنهِ واستوزرهُ . وكفى يوسف أهل مصر غائلة الجوع مدة السنين المجدبة بما ادّخرهُ في الخزائن من الحبوب

ولما جاء اخوةُ يوسف الى مصر ليشتروا قمحاً ، عرّفهم يوسف بنفسهِ، وأحضر أباهُ يعقوب اليهِ من أرض كنعان ، وأقطعهم وادي جاسان حيث أقاموا نحو ٤٣٠ سنة ، أصبحوا في اثنائها أمة قوية يبلغ عدد من يمكنهم منها حمل السلاح ستمائة ألف رجل

(العائلة السابعة عشرة الطيبية) — لم يعرف المؤرخون شيئاً عن بداءة حكم هذهِ العائلة ، ولم يأتوا بشيء من أخبار ملوكها . ومن المؤكد

ان خلفاء ملوك طيبة استرجعوا في عهد هذهِ العائلة الصعيدَ وجزءًا من الوجهِ البحري ، وظلّ العمالقة يحكمون صان وضواحيها حيناً من الزمن فانقسمت البلاد بذلك الى مملكتين : تولى احداهما ملوكٌ مصريون وكانت قاعدتها طيبة ؛ وتولى الأخرى الرعاة وكانت قاعدتها صان . ثم ظهرت في طيبة العائلة الثامنة عشرة الطيبية وكانت شديدة الباس فاستقلت بالملك وقضت على الرعاة . ويتضح من تاريخ مانيثون انهم تولوا الحكم ٥١١ سنة

خلاصة

الدور الطيبي الأول

كان هذا الدّورُ دَورَ حروبٍ وفتوحات . وفي عهد العائلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة امتدَّت حدود مصر الى أعالي النيل والنوبة حتى الشلّال الرابع فأصبحت مصر مملكةً كبيرة قاعدتها طيبة. ثمَّ عادَ الملك وقتيًّا الى احدى عائلات الدلتا وهي العائلة الرابعة عشرة السخاوية ، وكانت ضعيفة الجانب فأغار العمالقة على على البلاد في أوائل سنة ٢٣٠٠ ق م . وتولّوا أمورها مدة ٥١١ سنة الى أن طردهم الملك أموزيس الطيبي موسس العائلة الثامنة عشرة

الفصل الخامس

الدور الطيبي الثاني — يبتدىء سنة ١٧٠٣ بالعائلة الثامنة عشرة وينتهي سنة ١١١٠ ق. م. بالعائلة العشرين وكانت عاصمتهُ طيبة أيضاً

(العائلة الثامنة عشرة الطيبية) — ملوكها ١٤ ومدتها ٢٤١ سنة — أول ملوك هذهِ العائلة « أموزيس » الأول ، وكان متزوجاً بابنة ملك ايثيوبيا ، فاتفق مع حميهِ على اخراج العمالقة من مصر . وفي السنة الخامسة من ارتقائهِ كرسي الملك ، جرّد عليهم جيشاً جرّاراً وانضمّ اليهِ أمراء العائلات الملكية المصرية فحاصروا قلعة العمالقة في صان [1] وفتحوها عنوة ؛ ثم طاردهم الملك أموزيس حتى أوصلهم نهر الفرات ، وأبقى منهم على من اعترفوا لهُ بالسيادة والسلطان ، وأقطعهم الأراضي التي في الشمال الشرقي من مصر . ولا يزالُ من نسلهم قوم يقيمون الى اليوم على شواطىء بحيرة المنزلة . ثم عصاهُ النوبيون فقهرهم ، وكان الايثيوبيون محالفين لهُ إكراماً لقداسة زوجتهِ ابنة ملكهم ، فلم يبقَ بعد محالفتهِ لهم واخضاعهِ للنوبيين وطردهِ للعمالقة من يجسر على عصيانهِ . ولما عمّ الأمن مملكتهُ وجّه عنايتهُ إلى ترميم المباني التي أهملها الرعاة ، والى تنظيم شؤون البلاد وتحسين ادارتها الداخلية والخارجية . ثم جدّد بناء مدينة منف ، وشيد الحصون المنيعة ليصدّ بها غارات الأسيويين فجعل مصر

---

(١) في الشرقية وتسمى ايضاً اواريس

بذلك في مأمن من أعدائها الخارجيين . ومات بعد أن ملك ٢٠ سنة ، أعاد في اثنائها الى مصر ما فقدتهُ من الحضارة والنظام والثروة في عدة قرون

ثم خلفتهُ زوجتهُ الملكة « نفرتاري » بالوصاية على ابنها « امنوفيس » الذي كان قاصراً ابّان موت أبيهِ ؛ فظلت تدير شؤون الملك حتى شبّ وليدُها و بلغ أشدّهُ فسلمت اليهِ زمام الأحكام . وكان ميّالاً الى السلم ومحباً للعدل والعمل ، فرتع المصريون ثلاثة عشر عاماً — وهي مدة ملكهِ — في بحابح السلام والرخاء

وخلفهُ « تحوتمس » الأول وكان مولعاً بالغزو ، ففتح الشام والنوبة ومات بعد أن حكم ٢١ سنة

وقام بالملك بعدهُ ابنهُ « تحوتمس » الثاني فبايعهُ أهل الشام والنوبة بلا قتال . وضمّ السودان الى أملاكهِ وكانت لا تزال حتى ذاك العهد ولاية مستقلة . اما مدة حكمهِ فثلاثون سنة

ثم آل الملك الى أخيهِ « تحوتمس » الثالث ولم يبلغ بعد سنّ الرشد فقامت عنهُ باعباء الملك أختهُ « هاتاسو » . ولما استتبّ لها الأمر أقصت أخاها ، واستبدّت بالملك سبع عشرة سنة . وكانت حازمة شديدة المراس ففتحت بلاد « بون » جنوبي بلاد العرب ، واستوردت منها الخشب والصمغ والفضة والحجارة الكريمة . وقد حافظت على حقوق مصر وسيطرتها على البلاد التابعة لها

ولما ماتت عاد الملك الى أخيها « تحوتمس » الثالث وكان من أعظم ملوك مصر وقيل بل أعظمهم . وقد بلغت البلاد في عهدهِ من الاتساع

مبلغاً كبيراً تخفقت أعلامهُ فوق بلاد الحبشة والنوبة والسودان والموصل والعراق العربي واليمن وكردستان وأرمينيا وجزيرة قبرص وغيرها . وقد عصتهُ مراراً هذهِ الولايات فحمل عليها بجيوشٍ جرارة وقاتلها حتى دانت لهُ ؛ ونقش بعد عودتهِ ظافراً صوَر معاركهِ الحربية على جدران الكرنك . وكانت أيامهُ كلها حروباً وشدائد يتقدمهُ فيها النصر أينما توجه . ولما مات ، بعد ان حكم ٥٤ سنة ، ترك مصر ذات سطوة ونفوذ تام بين الأمم

(تحوتمس الثالث)

ثم خلفهُ ابنهُ امنوفيس الثاني فاحتفظ بنفوذ مصر وحدودها ، وأخضع الاشوريين الذين كانوا قد شقّوا عصا طاعتهِ . ومات بعد ان حكم ١١ سنة

وخلفهُ ابنهُ تحوتمس الرابع فتولى الملك ٣١ سنة وظلت مصر في عهدهِ على ما كانت عليهِ . ويرى الناظر في صدر أبي الهول حجراً ارتفاعهُ ١٤ قدماً عليهِ صورة الملك تحوتمس الرابع تمثلهُ خاشعاً وبالقرب منهُ سطورٌ كتب فيها عن لسان أبي الهول ما معناهُ : « أُكلمك بنفسي كما يكلم الأب ابنهُ ، فانظر اليَّ يا تحوتمس ، يا ولدي ؛ أنا أبوك الشمس المشرقة

الموجودة الكاملة ، أعدك بأنك ستملك الارض مشارقها ومغاربها ، وان الأمم ستأتيك بالجزية ، وان عمرك سيطول سنين عديدة »

وملك بعده ابنهُ امنوفيس الثالث ، وقد توالت الحروب في عهدهِ ، وأضافت مصر الى ولاياتها ولايات جديدة من نهر الفرات شمالاً الى النيل الازرق جنوباً

ثم خلفهُ « امنوفيس » الرابع فاقتفى أثر أسلافهِ في الدفاع عن املاك مصر والمحافظة عليها . وفي تلّ العمارنة (بمديرية المنيا) نقوش ورسوم تمثل الملك واقفاً على عربتهِ ووراءهُ بناتهُ يقاتلنَ معهُ ، ويدسنَ بسنابك الخيل جثث القتلى الأسويين . وكان هذا الملك ، قبل ارتقائهِ كرسي الملك كاهناً للالهِ الشمس ، فلما آل اليهِ الملك بعد موت أبيهِ أمر المصريين بعبادة الشمس وحدها ، ونهاهم عن عبادة سائر الآلهة ، واستبدل اسمهُ لما فيهِ من ذكر الالهِ آمون باسم « خوان أتن » ومعناهُ نور قرص الشمس ، أو اشراق الشمس . واختطّ مدينة جديدة بجوار تلّ العمارنة لتكون عاصمةً للبلاد بدلاً من طيبة التي هي مقرّ الاله آمون ، ثم عاجلهُ الموت قبل أن ينتقل اليها . وقد ترك مصر مضطربة لما قام فيها من الفتن التي تأتت عما أدخلهُ دفعة واحدة من البدع في الدين

وبعد وفاتهِ تعاقب على العرش أزواج بناتهِ الخمس ، فأعادوا عبادة آمون ، ولكنهم لم يتمكنوا من اخماد نيران التعصب والشقاق . وفي ايامهم خرجت آسيا من حكم مصر وظلت كذلك الى أن جاءت العائلة التاسعة عشرة

(العائلة التاسعة عشرة الطيبية) — ملوكها ٨ ومدتها ١٧٤ سنة —

وقد جاءت هذه العائلة ومصر واهنة القوى ، آخذ سعدها في الافول وانتهز ولاة الشام التابعون لها فرصة هذا لوهن للخروج عن طاعتها فاضطرّ ملوكها الى المقاومة وسفك الدماء

وكان أول ملوك هذه العائلة « رعمسيس » الأول ، وهو ابن آخر ملوك العائلة السابقة . وقد تولى مصر كبيراً . وفي أول عهدهِ بالملك جمع « ختسارو » (أحد أمراء الحثيين [١] وأعظم قوّادهم) قبائل أمتهِ ، واستولى على كركميش ، وأسس في آسيا الصغرى دولة كانت منها كلكيا والجهات المجاورة لها وحوض نهر العاصي [٢] فعجز رعمسيس عنهم ، وفي آخر أيامهِ أشرك معهُ في الملك ابنهُ « ستي » الأول ومات بعد أن حكم ٩ سنوات

ثم استقلّ ستي بالملك ، فبنى معابد كثيرة ومباني أخرى ، وأتمّ بناء هيكل القمر الذي بدأ بهِ تحوتمس الرابع ، وأقام مسلات عظيمة منها المسلة الموجودة الآن في رومية ، وحفر قناة من النيل الى البحر الأحمر ، وفتح طريقاً للقوافل من أسنا الى مناجم الذهب بجبل اتوكي ، وأخضع السودان والشام وأرمينيا وبابل ونينوى وغيرها من البلاد التي ثارت عليهِ ؛ ولم يقوى على اخضاع الحثيين وأهل العراق والموصل . ومات بعد أن حكم ٥١ سنة ، ودفن في بيبان الملوك بجوار طيبة

---

(١) قوم سكنوا أرضاً واسعة على الشاطئ الأيسر من نهر الفرات

(٢) اسمهُ بالافرنجية (Oronte) وقد ورد في بعض كتب العرب أرنط

وتولى الملك بعدهُ ابنهُ «رعمسيس» الثاني ، ويُعرف عند اليونانيين بسيزوستريس ، وكان قائداً مقداماً ، فسار في البلاد فاتحاً ، وحالفهُ النصر حتى دانت لسلطتهِ ايثيوبيا واليهودية وسوريا وآشور وميديا وغيرها ، واستغرقت هذهِ الفتوحات تسع سنوات قضاها بعيداً عن قاعدة ملكهِ . فحمل غيابهُ أخاهُ « ارمايس » على شق عصا الطاعة . فعاد الى مصر ، وقد عقد ، في حملتهِ على بلاد الحثيين ، محالفة مع قائدهم «ختسارو» وعاملهُ معاملة الاكفاء واعترف لهُ بالاستقلال . وكان ذلك سبباً لنشر اللغة السامية في مصر واختلاطها باللغة المصرية القديمة . وأصبح بعد ذلك حكم مصر موطداً في فينيقيا وسوريا الجنوبية . وقد زاد رعمسيس الثاني على المجد الذي نالهُ بالحرب مجداً أعظم بما سنهُ من الشرائع والقوانين وبما أنشأهُ من الاعمال المفيدة ، وخلّف آثاراً فخمة قد تغلّب بعضها على الزمن ولا يزال قائماً حتى اليوم . على أنهُ كان شديد الوطأة على العبرانيين فسامهم عذاباً شديداً كما ورد في الكتاب المقدّس

وقد أناب عنهُ في آخر حياتهِ ابنهُ خاموس ، ثم مات هذا قبل أبيهِ فحلّ أخوهُ منفتاح محلهُ الى ان مات رعمسيس الثاني . وكانت مدة ملكهِ ٦٧ سنة ، ودُفن في مقبرة بيبان الملوك ، وجثتهُ الآن في المتحف المصري

وخلف منفتاح الاول أباهُ وتوالت في عهده كرات الاجانب على مصر ، واتحد الليبيون واليونانيون وبعض شعوب أوربا فهاجموا بسفنهم الحربية الثغور المصرية دفعةً واحدة من الشمال الغربي ، ثم توغلوا في

البلاد ولم تُدفع غائلتهم الا بشق" النفس . وخلف منفتاح هذا ملوك لم يأتوا بعمل يذكر؛ وحدثت فتنة في الولايات المصرية على عهد آخر هؤلاء الملوك ، فاغتنم الاعداء المتحالفون هذهِ الفرصة ، وأعادوا الكرَّة على مصر وخلعوهُ ، وأقاموا مكانهُ رجلاً من عامة الناس ليتخذوهُ آلةً لتنفيذ مآربهم

وقيل ان خروج بني اسرائيل من مصر بقيادة موسى الذي اختارهُ الرب لاخراجهم كان في عهد منفتاح هذا . وقيل بل كان ذلك في عهد سيزوستريس

وكان الاسرائيليون قد اختاروا الاقامة في مصر ولم يخرجوا مع الرعاة في عهد العائلة الثامنة عشرة فسامهم المصريون من بعدُ العذابَ الأليم ، وحمّلوهم من المشاق" ما لا طاقة لهم بهِ وفي عهد الدولة التاسعة عشرة أمسوا خدماً وعبيداً يحرثون الارض ، ويشيدون المباني ؛ وهم الذين بنوا لرعمسيس المدينة التي عرفت باسمهِ . ولما رآهم الفراعنة يتكاثرون برغم سوء المعاملة خافوا كثرتهم ، وأمروا بذبح صبيانهم (١)

(العائلة العشرون الطيبية) — ملوكها ١٢ ومدتها ١٧٨ سنة —

كان اول ملوك هذهِ العائلة من سلالة العائلة التاسعة عشرة ، ويسمى برعمسيس الثالث وهو آخر ملوك طيبة الغزاة العظام ؛ فقد صدَّ هجمات الاعداء على مصر وأعاد الملك لهُ ولعائلتهِ ، بعد ان خلع الملك الذي أقامهُ عليها أعداؤُهُ ، وبنى لهُ قصراً فخماً واسعاً ، ورسم على جدرانهِ وسقوفهِ

---

(١) راجع الاصحاح الأول من سفر الخروج

وقائعهُ الحربية التي تشهد لهُ بالفضل وعلوّ المنزلة . ومات بعد ان حكم ٣٢ سنة ، ودفن في قبرهِ في بيبان الملوك

وقد حفظ خلفاؤهُ سيادتهم على المدن الخاضعة لهم في أرض فلسطين وفي البلاد المجاورة حيناً من الزمن . وكان بانقراض هذهِ العائلة سنة ١١١٠ ختام الدور الطيبي الثاني

خلاصة

الدور الطيبي الثاني

طردَ الفرعونُ أموزيس الرُّعاةَ، وجاء خلفاؤهُ فأضافوا الى البقاع التي احتلَّها فراعنة الدَّورِ الطيبي الأول فتوحاتٍ أخرى منها بلاد الشام حتى نهر الفرات ، وكثير من مُدُن آسيا الصغرى ، وأفريقيا الوسطى حتى ضواحي بربر . وظلَّت هذهِ البلاد تدفع الجزية لمصر نحواً من مئة سنة على انها بقيت على شيء من الاستقلال الاداري ما عدا النوبة التي الحقت ادارتها بمصر . ثم ثارت الحروب الأهلية في مصر على أثر البدَع الدينية التي أدخلها أمنوفيس الرابع فأضعفتها ، ولم يتمكن فراعنة العائلة التاسعة عشرة من اعادة الوحدة الوطنية فاستقلَّ الحثيّون ، وأقاموا دولةً قوية في سوريا برغم العظمة التي بلغتها مصر على عهد رعمسيس الثاني . وبدأ دور الانحطاط في عهد منفتاح وخلفائهِ

AUC - LIBRARY

الفصل السادس

الدولة الصاوية – انقسام مصر الى دول صغيرة – تغلب اثيوبيا على مصر

الدولة الصاوية[١] – تبتدىء هذهِ الدولة سنة ١١١٠ ق. م بالعائلة الحادية والعشرين، وتنتهي سنة ٣٣٠ ق. م. بالعائلة الحادية والثلاثين الفارسية

(العائلة الحادية والعشرون الصانية) – ملوكها ٧ ومدتها ١٣٠ سنة – وفي عهدها انقسمت مصر الى حكومتين، احداهما في الوجهِ القبلي، وكانِ فراعنتها من كهنة آمون وقاعدتها طيبة، وثانيتهما في الوجهِ البحري، وكان فراعنتها من الصانيين وقاعدتها صان

قال ماسبرو إن أول ملوك صان «سمندَس» التنيسي، وكان ملك طيبة المعاصر لهُ الكاهن «حرحور»؛ فما زالا في قتال وخلاف الى أن فاز سمندس على خصمهِ، وأسقط طيبة. بعد أن سادت دهوراً طوالاً. على أن طيبة لم ترضَ لنفسها بالسقوط بدون مكافحة ولا نضال، فاستعانت باثيوبيا على تشكيل امارة واسعة الأرجاء، يحكمها حرحور، تبتدىء من سهول سنّار وتنتهي قرب اسيوط. وقد خلف حرحور في طيبة، وسمندس في صان، فراعنة لم ترو لنا الآثار عنهم شيئاً يذكر

(١) سميت بالصاوية لأن أشهر ملوك هذه الدولة كانوا من الصاويين

(العائلة الثانية والعشرون البسطية) — ملوكها ٩ ومدتها ١٧٠ سنة — وكانت قاعدتها مدينة تلّ بسطة[١] ويستدلّ من اسماء ملوكها ، واكثرها سامية[٢] ، انهم كانوا في اختلاط ومصاهرة مع ملوك آسيا

كان ملوك الدلتا السابقين الذين تقدّموا هذهِ العائلة يسمحون لولاتهم أن يحكموا الولايات المصرية كملوك مستقلين ، وأن يجنّدوا أقطاعاً عسكرية قوية يديرون أمرها كيفما يشاؤون ، وكان الفراعنة يكلِون في الدفاع عن حقوقهم الى عصابات من الجنود المرتزقة[٣] غير حاسبين لاتساع نفوذ ولاتهم حساباً . وفي عهد العائلة الثانية والعشرين استولت احدى الأُسَر الطيبية الكبيرة القاطنة تلّ بسطه على المناصب السامية في المملكة ؛ وآل بها الأمر الى خلع الملك ، والمناداة بشيشق أو ششنق ملكاً على مصر . ولما استقرّ بهِ الملك حارب ملوك طيبة ، وقهرهم وأخضع مصر . وروى مانيثون ان شيشق هذا هو نفس شيشق الذي لجأ اليهِ يوربعام مستغيثاً بهِ من الملك سليمان . وبعد موت سليمان زحف شيشق على أورشليم بألف ومائتي مركبة وستين ألف فارس ، وقاتل رحبعام بن سليمان وفتح يهوذا عنوة ، ونهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك وأخذ تروس سليمان الذهبية ، ثم عاد الى مصر ظافراً ونقش على جدران الكرنك صورتهُ وصور حروبهِ في أورشليم وتاريخها واسماء المدن التي

---

(١) في الشرقية بالقرب من الزقازيق

(٢) عراقية واشورية وسريانية كنمرود وشيشق وسرجون الخ .

(٣) هي الجنود المستأجرة المعروفة عند الافرنج باسم (Mercenaries)

فتحها بما فيها يهوذا ، وصور الملوك الذين خضعوا لهُ ومنهم الملك رحبعام ابن سليمان ، مكتوف اليدين وفي عنقهِ حبل . وقام بعدهُ ثمانيـة ملوك قضوا سنيّ ملكهم في الدفاع عن حقوق مصر واخماد فتن ولاياتهـا ومستعمراتها الأجنبية . ولم تنقرض العائلة المذكورة الاّ وكانت مصر قد أمست خاضعة للأمم المجاورة لها بعد أن كانت السيدة الآمرة

انقسام مصر الى دول صغيرة — (العائلة الثالثة والعشرون الصانية) — ملوكها ٤ ومدتها ٨٩ سنة — وكانت قاعدتها تنيس (صان)، وقد انقسمت المملكة في عهدها الى عشرين امارة يحكم كلّ واحدة منها أميرٌ مستقلٌ بها

ولم يكن من سبب لدخول مصر في حكم هذهِ العائلة سوى ضعف عزيمة شيشق الرابع ، آخر ملوك العائلة السالفة ، وخروج الوجهِ القبلي عن طاعتهِ ، واكتفائهِ بحكم الوجهِ البحري . فلما مات استولى الصانيون على الملك . وكانت طيبة قد وقعت في حكم الايثيوبيين فاسترجعوها منهم

تغلب ايثيوبيا على مصر - (العائلة الرابعة والعشرون الصاوية) — ملوكها ٥ ومدتها ٦ سنوات — وكانت قاعدتها مدينة صا الحجر [١]

لما مات آخر ملوك العائلة الثالثة والعشرين سعى قومٌ من صا الحجر في نزع السلطة الادارية من أيدي الولاة وطمعوا في تأسيس عائلة ملكية جديدة ، واستعانوا على أخصامهم ومناظريهم بالايثيوبيين ، فرأى هولاء باباً لاحتلال البلاد ثانية واسترجعوا الوجهَ القبلي ، وظلوا والصاويين في

(١) صا الحجر في الغربية وكانت تسمى قديماً سايس

حرب دائمة الى أن ظهر « تفنخت » فاتفق معهم على اعطائهم ما يريدون لقاء الاعتراف بهِ ملكاً على الوجهِ البحري ، وكان مؤسس العائلة الرابعة والعشرين

ومن أشهر ملوك هذهِ العائلة « بوخوريس » القانوني الشهير . حكم الوجهَ البحريَّ سبع سنواتٍ قضاها في النزاع مع الايثيوبيين طمعاً منهُ في في طردهم من مصر ، وطمعاً من هؤلاء في ضمّ الوجهِ البحري الى الوجهِ القبلي الذي كانوا يحكمونهُ ، على انهم لم ينالوا بغيتهم لبُعد « نباتا » عاصمتهم عن البحر الابيض المتوسط ، واستحالة محافظة الملوك المقيمين فيها على الوادي كلهِ ، وكانت قد استمرّت الحرب بينهم وبين مصر نحو مئة سنة بلاطائل ، الى أن تولى « بوخوريس » الملك ، ففاز عليهم حيناً ثم خلعهُ « سباقون » الايثيوبي وأحرقهُ ، واستولى على مصر بتمامها فأسس العائلة الخامسة والعشرين الايثيوبية

(العائلة الخامسة والعشرون الايثيوبية) — ملوكها ٤ ومدتها ٥٠ سنة وكانت عاصمتها « نباتا » وأول ملوكها سباقون الذي أحرق بوخوريس وقد احبتهُ الرعية لأنهُ عاملها بالحسنى ، وساس البلاد بدراية ، وأحيا ما اندثر فيها من المدن الزاهرة والمعابد الفخمة ، وحفر الترَع وقوَّى الجسور ويقال انهُ أول من ألغى قانون العقوبة بالقتل في مصر . وبعد ان نظّم شؤون البلاد وأتمَّ اصلاحاتهِ فيها ، ترك طيبة في حكم اختهِ الملكة امينرتيس ، وذهب لنجدة هوشع ملك اسرائيل ، وحزقيا ملك يهوذا ، وامراء فلسطين وكانوا قد استغاثوا بهِ من عدوّهم الاكبر ملك اشور .

فهزمهم ملك اشور جميعاً . ولما عاد سباقون الى مصر ، ثار عليهِ امراءُ الوجهِ البحريّ ، وردّوهُ ومن معهُ من الاثيوبيين المغلوبين الى طيبة حيث أقام الى ان مات . ثم خلفهُ ابنهُ سبيخون ، فأشعل نار الحرب في الوجهِ البحري منتهزاً لذلك فرصة خلاف الطامعين في السلطة ، فانتصر عليهم لكنهُ لم يكد يرتقي العرش حتى أشهر عليهِ الحرب طهراق الثالث الاثيوبي وقتله واستولى على مصر ؛ ثم شرع يدس الدسائس في الشام بين الولاة التابعين لاشور ، فأغضب ذلك ملكها « اشرحدون » وحارب طهراق وطاردهُ الى ما وراء الشلال الاول في اثيوبيا واستولى على منف ، وأناب عنهُ في مصر والياً يسمى مرزبان . ثم استرجعها طهراق ، ثم استردها الاشوريون ثانية . وما زالت على هذهِ الحال تتنازعها الدولتان الى ان لعب بها الخراب واندثر عمرانها . وكانت العائلة الصاوية تعضد الاثيوبيين آونةً ، والاشوريين أُخرى طبقاً لمصالحها ولمطامعها الخاصة . وقد انتهى النزاع بأن تنازل الأشوريون للاثيوبيين عن مصر لقاء اتاوةٍ معلومة يتقاضونها سنوياً . وكانت حكومة الاثيوبيين ضعيفة ولا سيما في الوجهِ البحري .

(العائلة السادسة والعشرون الصاوية) — ملوكها ٦ ومدتها ١٣٨ سنة — لم يبقَ للاثيوبيين بعد جلاء الأشوريين حكومة مطلقة الاّ في الوجهِ القبلي . أما الوجهُ البحري فقد اقتسم الامارة فيهِ اثنا عشر أميراً مدة ١٥ سنة . وقد كانوا كلهم يداً واحدة على طرد الاثيوبيين من مصر . وفي سنة ٦٥٠ ق.م. طمح أحدهم وهو « بسامتيك » الأول الصاوي الى السيطرة

عليهم ، وأعانهُ على ذلك اليونان من جهة ، وزواجهُ بأميرة من بنات العائلة الملكيـة الاثيوبية من جهة أخرى فاسترجع طيبة واحتلَّ مصر الجنوبية واستقلَّ بالملك . وكانت مصر لا تزال تدفع اتاوة سنوية لاشور فامتنع بسامتيك عن دفعها . وكان مؤسس العائلة السادسة والعشرين

وقد أجمع المؤرخون على انهُ بعث مصر من العدم باصلاح ما دمرهُ الأعداء وبثَّ العلوم وتنشيط الصنائع والفنون ، ولا سيما فنَّ التصوير ، وبتوسيع دائرة التجارة . وكان جانحاً الى السلم ميالاً الى المدنية ، فسعى جهدهُ في نشر الأمن وتهذيب نفوس رعاياهُ . وكان محباً لليونانيين ، معترفاً بفضلهم ، ففتح لهم باباً واسعاً لدخول مصر ورفع علماءهم الى أسمى المراكز ، واتخذ من ابطالهم حرَّاساً وجنوداً للمحافظة على الأمن والنظام . ولما رأى جنودهُ المصريون منهُ ذلك ، حنقوا عليـهِ وجلوا عن مصر تاركينها للدخلاء . وقصدوا الى ايثيوبيا حيث تلقاهم ملكها على الرحب والسعة ، واتخذهم لهُ جنوداً وأعواناً

ولما مات بسامتيك خلفهُ ابنهُ نيخوس ، وكان مقداماً محباً للاصلاح والاستكشاف والغزو ، فأتمَّ ما بدأ بهِ أبوهُ من تنظيم جيوش جديدة وانشاء سفن حربية بملاحظة أمهر مهندسي اليونان . وأعاد فتح قناة السويس وأنشأ اسطولاً بحرياً سافر حول افريقيا خلال ثلاث سنوات . وقد غزا نيخوس سوريا واستولى عليها وقتل يوشيا ملك يهوذا و بلغ الفرات ولم يكد يعود منها منصوراً حتى أدركهُ بختنصر ابن ملك بابل في كركميش وهزمهُ شرَّ هزيمة واسترد منهُ كل الاصقاع التي فتحها هنالك

وخلف نيخوس ابنهُ بسامتيك الثاني ، ولم يملك سوى ٦ سنوات .
ثم خلفهُ ابنهُ « ابرييس » وهو الذي استنجدهُ صدقيا ملك اليهود على بختنصر في عهد النبي ارميا فأنجدهُ ، واستعان بهِ ايضاً الليبيون على اليونان المقيمين في القيروان من بلاد برقة فأمدّهم بجيش هُزم بعد قتال عنيف ، وقتل منهُ كثيرون ، وثار الباقون على ابرييس لأنهُ كان السبب في بلائهم . ولما خشي سوء العاقبة اتبعهم بقائدهِ « أمازيس » مفوّضاً اليهِ تدارك الأمر . فشرع هذا أولاً في اطفاء نار الفتنة وتهدئة الخواطر ، وبينما هو يفعل اذا بجندي أتاهُ ووضع فوق رأسهِ خوذة وصاح بهِ : « إنّا رضينا بك ملكاً » فاغترّ القائد بذلك الوعد ، وانضمّ الى الثائرين على الملك ، وعاد معهم الى مصر حيث قتلوا أبرييس وأقاموا القائد الخائن مكانهُ . وكان هذا ميالاً الى السلم محباً للاصلاح فأخذ يصلح شؤون مصر ويدبّر أمورها بحكمة عظيمة ؛ ورأى بلاد فارس تزداد شيئاً فشيئاً منعة واتساعاً ، فخشي غارات ملوكها على مصر فتحالف ضدهم مع اليونانيين وتزوج ارضاءً لرعيتهِ بحفيدة بسامتيك الأول . ومات للسنة الخامسة والعشرين من حكمهِ . ثم خلفهُ ابنهُ بسامتيك الثالث ولم يمضِ على توليهِ الملك ستة أشهر حتى شنّ الغارة عليهِ « قمبيز » ملك فارس وأدخل مصر في حكمهِ

الفصل السابع

الفتح الفارسي – سقوط العائلات المصرية

الفتح الفارسي – كان الفرس في أول أمرهم قبائل تقيم في البلاد الجبلية بين عيلام وهرمز، يقودها في الحرب ويدير شؤونها في السلم رجل منها يدعى اخيمينيس. ثم تكاثرت تلك القبائل وانتشرت في جميع الاصقاع التي بين مصب نهر طاب وبوغاز هرمز، وانضمت الى مملكة واحدة ملوكها من سلالة اخيمينيس. وقد قام من هذهِ السلالة فرع اخذ بلاد انشان من ملوك عيلام، وجعلها امارة مستقلة استقلالاً ادارياً، الاّ انها ظلّت نحو مئة سنة تعترف للماديين بالسيادة عليها

ولما قام الملك قورش الثاني من سنة ٥٥٨ الى سنة ٥٢٩ ق. م. نهض بالفرس من وهدة الخمول والضعف الى ذروة القوة والرفعة، فحارب استياج كيكاوس ملك مادي وفاز عليهِ فوزاً باهراً وضمّ المملكة المادية الى الفارسية سنة ٥٤٩ ق. م. وفتح ليديا وأسر ملكها كريسوس المشهور بالثروة والسخاء سنة ٥٤٦ ق. م. ثم عهد الى قوادهِ بان يتموا اخضاع آسيا الصغرى، وتحوّل هو بجيشهِ الخاص الى الاصقاع الشرقية ففتح الصغد وبلخ في ايران، وخرّب كلديا، وهزم ملكها نابوناهيد سنة ٥٣٨ ق. م. ولما مات كانت بلادهُ قد أصبحت غنية بالمال وبالرجال، بعيدة الحدود، مرهوبة الجانب

ثم خلفهُ قمبيز من سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٢٢ ق . م . فاستهلّ حكمهُ بقتل أخيهِ سميرديس لمناظرتهِ له في الملك ، ثم فتح مصر سنة ٥٢٧ ق . م وأسس فيها العائلة السابعة والعشرين الفارسية

(العائلة السابعة والعشرون الفارسية) — ملوكها ٧ ومدتها ١٢١ سنة — خلف قمبيز اباهُ وقتل اخاهُ كما تقدم ، ثم شرع يستعدُّ لافتتاح مصر ، وكان قد حدَّثهُ بثروتها واحوالها ، وحسَّن لهُ فتحها رجلٌ يونانيٌّ اسمهُ فانيس . وكان هذا قائداً مصرياً وقع بينهُ وبين امازيس ملك مصر نزاع ونفور ففرَّ من بلادهِ والتجأ الى قمبيز . ولما عقد قمبيز النية على فتح مصر اتفق مع القبائل الرحالة العربية على أن تمدَّهُ بالماء اللازم لعساكرهِ على ظهور جمالها اثناء مرورهِ في الفلوات الشاسعة بين حدود الشام وپيلوزة (طينة) ووعدها لقاء ذلك بان يكون ابداً صديقها الأمين ومعينها عند الضيق . ثم سار وجيشهُ ، يتقدمهم فانيس ، حتى مدينة پيلوزة حيث قابلهم الجيش المصري ، بقيادة بسامتيك الثالث ، خليفة امازيس ؛ وقد انضمَّ اليونانيون الى جيشهِ . ولما عرف المصريون خيانة فانيس قبضوا على اولادهِ ، وكان قد تركهم في مصر عند فرارهِ منها ، وذبحوهم ومزجوا دمهم بنبيذٍ معتّق وشربوهُ في المعسكر . ثم التقى الجيشان ، وبعد قتال عنيف ارتدَّ المصريون على أعقابهم خاسرين . وكان سبب فشلهم ان قمبيز وضع في مقدمة جيشهِ الالوف من الكلاب والقطط ، فلما رآها المصريون ، وهي مقدسة عندهم ، امتنعوا عن القتال ، وظلَّ الجيش اليوناني وحدهُ يكافح الاعداء ، فلم يتمكن من الثبات في

وجههم . وطارد الفرس المصريين حتى دخلوا منف ظافرين ، وجعلوا مصر ولاية فارسية . وابقى قمبيز على بسامتيك ثم اتصل بهِ انهُ يدس لهُ الدسائس فقتلهُ

ولما رأى الليبيون [1] وغيرهم من الأقاليم التابعة لمصر فوز قمبيز الباهر ، خافوا سطوتهُ وأذاهُ فخضعوا لهُ بلا قتال ، ودفعوا لهُ الخراج صاغرين . على أن قرطاجنة وايثيوبيا وواحات سيوه أبت أن تعترف لهُ بالسيادة ، فحاربها مراراً ولم يبلغ منها وطراً

وكان قمبيز شديداً صارماً فاستبدَّ بالمصريين ، ونهاهم عن عبادة العجل آبيس ، وأبطل الشعائر الدينية . وفي هذهِ الاثناء كان نائبهُ في فارس قد أثار عليهِ رعاياهُ ، وولى أخاهُ الملك موهماً الشعب انهُ سميرديس أخو قمبيز . فلما اتصل ذلك بقمبيز أناب عنهُ في مصر اريانديس احد رجالهِ وقصد في الحال بلادهُ لاخماد الفتنة فيها ، ولكنهُ مات قبل ان يصلها بأيام . ثم قام بعدهُ دارا الأول فأحسن معاملة المصريين ، ونظم شؤونهم الداخلية ، وأصلح معابدهم المندثرة ، وأقام لهم عجلاً جديداً يعبدونهُ ، وأعاد فتح قناة السويس تسهيلاً للتجارة بين الهند ومصر ، وفتح طريقاً آخر جديداً بين النيل والبحر الأحمر ، يبتدئ من قفط بالقرب من جرجا ، وبنى معبداً للالهِ آمون طمعاً منهُ باستمالة المصريين اليهِ وإزالة ما كان لمعاملة قمبيز من التأثير السيء في نفوسهم . فخابت امانيهُ وظلَّ المصريون يرقبون فرصة للايقاع بهِ . ثم حدثت فتنة في بعض الولايات التابعة لهُ

(١) ويعرف أهلها بالقوريين

واضطرَّ الى الزحف عليها لاعادتها الى الطاعة ، فثار عليهِ المصريون وخلعوهُ وولوا مكانهُ رجلاً من سلالة بسامتيك الثالث يدعي « خَبَّش » .فقضى ثلاث سنوات يستعد لصدّ هجمات الفرس ، ويبني القلاع والحصون . ومات في تلك الاثناء دارا الأول وخلفهُ ابنهُ « شيارش » فعاد الى مصر عند نهاية الثلاث السنوات المذكورة وقهر خبَّش ، واسترجع مصر وعامل اهلها بالقسوة والاستبداد . ثم عاد الى بلادهِ بعد ان أقام اخاهُ اخيمينيس نائباً عنهُ في مصر

وشبَّت بعد ذلك فتنة في بلاد فارس ذهب شيارش ضحيتها نخلفهُ « ارتحشارشا » ، واغتنم المصريون هذهِ الفرصة للحصول على استقلالهم مرة ثانية ، فأعلنوا خروجهم عن طاعة الملك الجديد ، وقلدوا الملك « ايناروس » بن بسامتيك الثالث . ولما رأى هذا ضعفهُ عن صدّ هجمات الفرس المتتابعة استعان باليونانيين فجهزوا لهُ مئتي سفينة حربية من قبرس وعدداً عظيماً من رجالهم . وبعد حروب طويلة بين مصر وفارس ، فاز ارتحشارشا عليهم ، وظلَّ حاكماً مصر الى ان مات سنة ٤٢٥ ق . م . ، وقام بعدهُ « شيارش » الثاني ثم « سوغديانوس » ، ثم دارا الثاني . وفي عهد هذا الآخير تمكن المصريون واليونان من طرد الفرس واستعادوا استقلالهم التام . وكان ذلك سنة ٤٠٦ ق . م .

(العائلة الثامنة والعشرون الصاوية) — لم يقم منها سوى ملك واحد يدعى أميرتيس . قضى سنيَّ ملكه السبع في اصلاح ما خرَّبهُ الاحتلال الاجنبي . وكانت عاصمتهُ صا الحجر

(العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية) — ملوكها ٤ ومدتها ٢١ سنة — وكانت عاصمتها منديس [١] وفي ايامها سعت فارس مراراً الى الاستيلاء على مصر ثانية فلم تفلح

سقوط العائلات المصرية — (العائلة الثلاثون السمنودية) — ملوكها ٣ ومدتها ٣٨ سنة — وكانت قاعدة ملكها مدينة سبيانيتيس [٢] — وجهَّ ملوك هذه العائلة عنايتهم الى صدّ هجمات الفرس . وكان قوّاد جيوش تلك العائلة من أشدّ أبطال اليونان وأكثرهم دراية بالفنون الحربية فظلّ النصر حليفهم زمناً . وفي ايام « نكتانيبوس » آخر ملوك العائلة الثلاثين ، انتصر الفرس انتصاراً باهراً ، وفرّ نكتانيبوس بخزائنهِ الى السودان . وحكمت مصر العائلة الحادية والثلاثون الفارسية سنة ٣٤٠ ق . م .

(العائلة الحادية والثلاثون الفارسية) — ملوكها ٣ ومدتها ٨ سنوات — طرد ارتحشارشا الثالث نكتانيبوس من مصر . ولما تمَّ لهُ النصر أقام عليها نائباً عنهُ اميراً فارسياً يدعى « فرنده » . وقتل كلّ ابناء ملوك مصر السابقين ، وسلب الرعية اموالها واستبدّ وظلم . وفي ذلك العهد قويت شوكة مقدونيا ، وأخذت تترقب الفرص السانحة لبسط سلطتها على آسيا بتمامها ، هذا وارتحشارشا منصرف الى الاستبداد ، غير حاسب لهذهِ الدولة الجديدة حساباً ، الى ان دسّ لهُ « باغواس » سمّاً في طعامهِ فمات بعد ان حكم سنتين فقط ، وخلفهُ ابنهُ « ارسيس » . ولم يرد

---

(١) حيث الآن أشمون الرمان في الدقهلية التي نسبت اليها العائلة التاسعة والعشرون

(٢) حيث الآن سمنود في الغربية فسميت العائلة الثلاثون بالسمنّودية نسبة اليها

لأرسيس ذِكر عند المؤرخين ولا يعرف عنه شيء سوى انهُ مات لسنتين من ارتقائهِ الملك

وخلفهُ « دارا » الثالث آخر ملوك هذهِ العائلة . وكان معاصراً للاسكندر ملك مقدونيا . وفي عهدهِ اخذت دولة الفرس في الضعف والانحطاط حتى استظهر عليها المقدونيون . وفي سنة ٣٣٠ ق. م. فتحت مصر ابوابها للاسكندر مستجيرة بهِ من ظلم الفرس فأجارها وطرد ظالميها واستولى عليها فكان مؤسس العائلة الثانية والثلاثين المقدونية

وفي متحف نابولي اليوم حجر مصري عليهِ نقوش معارك الفرس مع المقدونيين في مصر ، وذكر نتيجة هذهِ المعارك وتفاصيلها بالكتابة الهيروغليفية

خلاصة

الدولة الصاوية

كثرت في عهد هذهِ الدولة غارات الأسيويين على مصر ، فاضطرّ الفراعنة الى الانتقال نهائيًا من طيبة والاقامة على تخوم آسيا

ولما انقرضت العائلة المتممة للعشرين قامت العائلة الحادية والعشرون في مدينة صان ، ففقدت طيبة أهميتها . على أن الصانيين لم يحسنوا التدبير فثار عليهم الولاة وولّوا الحكم شيشق ، مؤسس العائلة الثانية والعشرين

وكان هذا حازماً حكيماً فأخضع الولاة لحكمهِ ، وساس البلاد بدراية واستولى في أواخر سنة ٩٢٤ ق. م. على اورشليم . وكان خلفاؤُهُ دونهُ حزماً ، فانقسمت

مصر على عهدهم الى ٢٠ ولاية صغيرة . وحاول تفنخت ، في أواسط المئة الثامنة قبل الميلاد ، ان يضم هذهِ الولايات بعضها الى بعض تحت سيطرتهِ ، فسبقهُ الى ذلك ملك اثيوبيا ، واحتلّ مصر بأ كملها وأسس فيها العائلة الخامسة والعشرين ؛ وظلَّت البلاد تابعة لقومهِ نحواً من مئة سنة ، لم تخمد في خلالها الحروب بينهم و بين الصاويين

وفي أيام طهراق ، آخر ملوك العائلة الأثيوبية ، غزا مصر أشرحدون ملك أشور واستولى عليها نحواً من عشرين سنة ، من البحر المتوسط حتى أسوان . ثم قام بسامتيك الأول الصاوي ، فأجلى الأشوريين عن مصر وحكمها من الشلال الأول حتى البحر الأبيض المتوسط ، بعد ان كانت ، على عهد الدور الطيبي الثاني تمتدُّ الى سهول سنّار ؛ فعادت حدودها على عهدهِ الى ما كانت عليهِ في خلال الدور المنفي

وكان بسامتيك ميالاً الى السلم فقضى اكثر أيامهِ في إصلاح البلاد وإنماء ثروتها ، وتوفير وسائل التجارة للأجانب فيها . ثم قام خلفاؤهُ وسعوا في استرجاع الشام وبرقة ثانية ، فعادوا عنهما بالخيبة . واحتفظ آخرُ ملوك هذهِ العائلة «أمازيس» بحقوق مصر ، وأكرم وفادة اليونانيين فيها ، وهو آخر الفراعنة العظام . وفي أيام خليفتهِ ، بسامتيك الثالث ، احتلّ قمبيز مصر ، وظلت في قبضة الفرس ١٨٠ سنة . ثم حرَّرها المصريون وحكموها ٦٦ سنة . ثم استعادها الفرس وما زالت في حكمهم الى ان فتحها الاسكندر

الفصل الثامن

﴿ الدولة اليونانية ﴾

مقدونيا واليونان — الفتح اليوناني — البطالسة

مقدونيا واليونان — مقدونيا بلادٌ واقعةٌ الى شمال اليونان . وقد تغيرت حدودها مراراً . وكانت في بداية أمرها اقطاعية وكان سكانها من أصل يوناني . ولم تكن لها مدنية تُذكر حتى قام بالملك فيها فيليب الثاني سنة ٣٦٠ ق. م. فأنشأ وحدتها ، ووسَّع حدودها ، ومدَّ نفوذها .

وكان في نيتهِ الزحف على بلاد فارس فعاجلهُ الموت سنة ٣٣٦ . على ان ابنهُ الاسكندر الفاتح الشهير تمكن من تحقيق رغائب أبيهِ ؛ فبعد ان استتبَّ لهُ الأمر في بلاد اليونان التي ضمَّها الى مقدونيا ، زحف بجيش جرّار على آسيا الصغرى ففتحها ،

(الاسكندر المقدوني)

وواصل السير الى صيدا وصور ، ودخل في البلاد المصرية حتى واحة سيوه في صحراءِ ليبيا . ثم عاد الى آسيا ، فعبر الفرات ودجلة ، وانتصر على دارا الثالث ملك الفرس في موقعة أربِل سنة ٣٣١ ، واستولى على بلادهِ وما يجاورها من الاصقاع حتى نهر السند . ثم عاد الى بابل حيث أُصيب بحمى شديدة أودت بحياتهِ وهو في الثالثة والثلاثين من عمرهِ ، وكان ذلك سنة ٣٢٣ ق.م. وبعد موتهِ اقتسم قوّادهُ مملكتهُ الواسعة ، فكانت مقدونيا من نصيب انتيپاتر . وظلّت مستقلة حتى استولى عليها الرومان سنة ١٤٨ ق. م. ، وأُلحقت بالامبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الرابع للميلاد ، واستولى عليها بنو عثمان في القرن الخامس عشر

الفتح اليوناني — تبتدىءُ الدولة اليونانية سنة ٣٣٠ وتنتهي سنة ٣٠ ق. م. بالفتح الروماني ؛ وهي تشمل الدولتين الثانية والثلاثين المقدونية والثالثة والثلاثين وهي دولة البطالسة

(العائلة الثانية والثلاثون المقدونية[١]) — ملوكها ٣ ومدتها ٢٧ سنة — فتح الاسكندر المقدوني مصر فيما فتح كما تقدم ، وأسس فيها العائلة الثانية والثلاثين . وقد عامل المصريين بالحسنى ، فاحترم معتقداتهم وعاداتهم . وفي سنة ٣٣١ ق. م. أنشأ مدينة الاسكندرية التي لا تزال الى يومنا من أشهر الثغور التجارية في البحر الابيض المتوسط . ويقال ان الاسكندر وضع بنفسهِ رسوم مدينتهِ ، وخطّ شوارعها ، ورتب مبانيها ؛ ثم أباح سكناها لكل راغب فبلغت من العمران شأواً بعيداً ، وأضحت في زمن

---

(١) وتسمى أيضاً باليونانية

قصير دار العلوم، ومركز تجارة المشرق والمغرب . وبعد ان ولّى الاسكندر على مصر الامير اليوناني «أقليومنوس» عاد الى فتوحاتهِ في آسيا، الى ان ادركتهُ المنية في بابل فنقلت جثتهُ الى منف ومنها الى الاسكندرية حيث دُفن باحتفال عظيم

وخلف الاسكندر في مقدونيا أخوهُ فيلبس أرهيديوس وولدهُ الاسكندر الرابع . ولم يتداخلا في شؤون مصر وادارتها مع انها كانت ولايةً تابعة لمقدونيا، ولكل من هذين الملكين مقصورة في الكرنك عليها من الرسوم الهيروغليفية ما يدل على سلطة المقدونيين على مصر . ولكنها كانت سلطة اسمية لا فعلية لان بطليموس بن لاغوس، احد قواد الاسكندر الاكبر، كان مستقلاً في ادارة مصر استقلالاً تاماً، وظلَّ حيناً ملكها بالفعل دون الاسم ثم تمكن من اعدائهِ ومناوئيهِ جميعاً، فارتقى كرسيَّ الملك ولقب نفسهُ بسوتر بطليموس

البطالسة — (العائلة الثالثة والثلاثون) — تولّى سوتر[1] بطليموس مصر بعد موت الاسكندر سنة ٣٢٣ ق. م . وظلَّ مدةً على عهد خلفاء الاسكندر حاكماً باسمهم الى ان استقلَّ بالملك سنة ٣٠٦ ق. م . فأضاف الى مصر القيروان وسواحل الشام وبلاد العرب وجزيرة قبرس . ثم انصرف الى اصلاح مملكتهِ مقتفياً في ذلك اثر الاسكندر من حيث معاملة المصريين بالحسنى واللين، وتحسين شؤونهم الادارية والمالية، وترقية اخلاقهم وتثقيف عقولهم، واحترام دياناتهم؛ فشيَّد معابد كثيرة وبنى

(١) معنى سوتر «المخلّص»

منارة الاسكندرية ومدرستها المعروفة باسم الرواق . واستقدم لها من اليونان افضل العلماء والشعرآء والفلاسفة لتعليم طلابها ، فقصدها طالبو العلم من افريقيا وآسيا وأوروبا . وصارت الاسكندرية معهداً للفنون والمدنية . وقد أنشأ فيها ايضاً مكتبة نفيسة جمع فيها اقدم الكتب واثمنها حتى بلغت نحو ٤٠٠٫٠٠٠ مجلَّد، ووسَّع نطاق التجارة ، وسهَّل للاجانب اسباب الاختلاط بالمصريين ، فضاقت البلاد بساكنيها واثرت اثراءً عظيماً . ومات سنة ٢٨٣ ق. م. بعد ان عهد بالملك لابنهِ بطليموس فيلادلفس[1] او بطليموس الثاني ، فارتقى الملك وهو في الرابعة والعشرين من عمرهِ ، واقتدى بأبيهِ ، حتى كاد يفوقهُ في نشر المعارف وتوسيع نطاق التجارة . وهو الذى سأل الكاهن مانيثون ان يضع تاريخ مصر باليونانية. وجمع سبعين حبراً من أحبار اليهود ليترجموا لهُ التوراة من العبرانيـة الى اليونانية ، فسميت لذلك بالترجمة السبعينيـة . وكان ديوانهُ مجلس الادباء والشعراء والكتَّاب . وقد عكف على تنشيط العلم والتجارة ، فبلغت مصر في ايامهِ من العمران والثروة مبلغاً عظيماً . وروى أحـد المؤرخين ان عدد المدن المصرية بلغ يومئذٍ ٣٣٠٠٠ مدينة

وأنفذ بطليموس بعثة لاستكشاف أواسط افريقيا ومنبع النيل ومجراهُ فجابت تلك الاصقاع جنوباً وغرباً حتى أواسط النوبة

وأرسل بعثة أخرى لاستكشاف سواحل الخليج الفارسي وسواحل

---

(١) معنى فيلادلفس « محب اخيهِ » وأطلق عليه هذا اللقب من قبيل تسمية الشيء بضدّهِ لاشتهارهِ ببغض اخوتهِ

جزيرة العرب حتى بلاد الهند . وعقد بين مصر والممالك الهندية والسواحل المذكورة معاهدات تجارية جنت مصر من ورائها فائدةً عظمى . وقد مهد سبل المواصلات بتطهير قناة السويس مما كان قد تراكم فيها من الرمال. ومن آثار بطليموس هيكل أنس الوجود عند شلال اسوان . وقد اشتغل في اتمام بنائهِ كل البطالسة الذين خلفوهُ

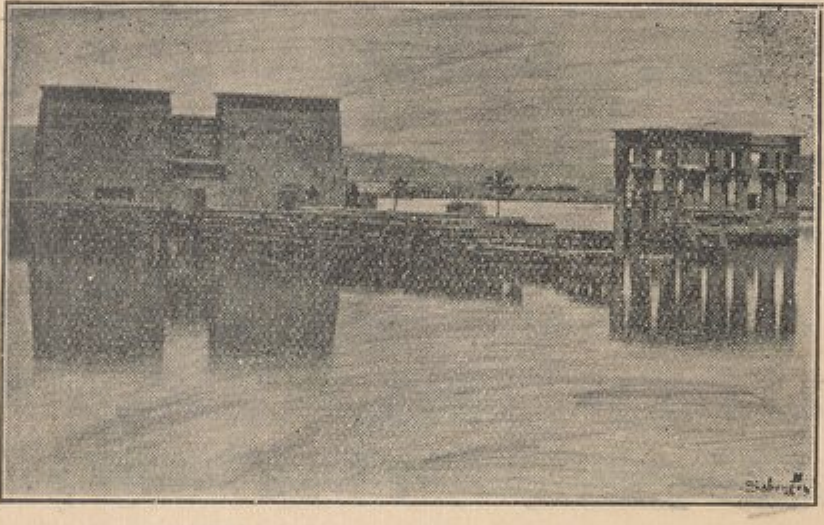

(هيكل انس الوجود)

وكان بطليموس شديد الاهتمام بتوطيد الصلات مع الدول المعاصرة لهُ ولا سيما مع الرومانيين ، وهو اول من اوجد بينهم وبين مصر علاقات سياسية افضت اخيراً الى احتلالهم مصر . وكان ملكهُ ٣٨ سنة

وخلفهُ بطليموس[1] الثالث وكان ميالاً الى الحروب والفتوحات فاستهلَّ حكمهُ بغزو الشام والاصقاع المجاورة للفرات واحتلَّ اذنه وما

(١) أطلق عليهِ لقب « اڤرجيت » ومعناه المحسن وذلك من قبيل تسمية الشيء بضدهِ

يليها وسواحل سيواس وايالة عكا وسواحل الأناضول واجتاز الفرات، واستولى على الجزيرة والعراق وخورستان واذربيجان . ثم بلغهُ خبر وقوع فتنة اهليـة في مصر فترك في آسيا عدداً كبيراً من رجالهِ وقفل راجعاً الى مصر مثقلاً بالغنائم والتماثيل التي كان قد نقلها قمبيز من مصر الى فارس. ولم يكد يخمد نار تلك الفتنة حتى قام سليوقيوس صاحب سوريا للأخذ بالثار واسترجاع ما فقدهُ . فعاد بطليموس الى الشام وفتح دمشق وغيرها من المدن حتى أعاد المملكة المصرية الى ما كانت عليهِ من المجد على عهد رعمسيس الثاني . ولم يعد من آسيا الاَّ بعد ان هزم اعداءهُ هزيمة لا قيام لهم بعدها . وكانت وفاتهُ في سنة ٢٢٢ ق . م . ومدة حكمهِ ٢٥ سنة

وقام بالأمر بعدهُ ابنهُ بطليموس فيلوباتر [١] . وفي أيامهِ أخذت عائلة البطالسة في الانحطاط . وكان وزراؤهُ يحسنون لهُ الانهماك في الملذات والملاهي طمعاً منهم بالاستقلال في الحكم دونهُ . وانتشبت الحرب بينهُ وبين انطيوخس الأكبر ملك سوريا فأضاع في اول الأمر كل الاصقاع التي فتحها أبوهُ في آسيا حتى حدود مصر؛ ثم استعاد فينيقيـا وسوريا . وسار منها الى بيت المقدس، وسأل الكاهن الأكبر أن يدخلهُ الى الهيكل ويريه ما فيهِ . فأبى الكاهن عليـهِ ذلك . فعدَّ بطليموس رفضهُ اهانة، وعاد الى الاسكندرية حيث ذبح خلقاً عظيماً من اليهود المقيمين فيها انتقاماً وتشفياً . وكان متزوجاً بأختهِ ارسنوه، فذبحها ايضاً ومات

(١) ومعناهُ « محب أبيهِ »

سنة ٢٠٥ ق . م . مكروهاً من رعاياهُ وقد خلف من الآثار هيكل ادفو الذي أتمّ بناءَهُ خلفاؤُهُ من البطالسة

وخلف بطليموس ايبفانوس[١] الخامس اباهُ سنة ٢٠٥ ق . م . وهو في الخامسة من عمرهِ ، وكان كل حياتهِ ألعوبة في ايدي وزرائهِ . ولما رأى انطيوخس ملك الشام ارتباك مصر وما آلت اليهِ من الضعف وسوء التدبير ، عمد الى استرجاع الولايات التي اخذها منهُ ملوكها السالفون ، ففتح سوريا وفينيقيا عنوة ، وتأهب لغزو مصر . ثم عرضت لهُ موانع أثنتهُ عن عزمهِ ، فاصطلح مع خصمهِ . وأزوجهُ ابنتهُ كليوبطرا على ان يترك لهُ جميع الولايات التي استردها

وكانت ايام هذا الملك ايام فتن وحروب اهليـة وكان يعمل على اخمادها بالعنف والاستبداد وسفك الدماء حتى آل الأمر بالمصريين الى قتلهِ بالسمّ وتقليد ابنهِ « بطليموس » السادس الملك مكانهُ بعد ان حكم ٢٤ سنة . وقد وجد الباحثون في رشيد حجراً كتب عليهِ باليونانية والديموطيقية والهيروغليفيه شيئاً عن هذا الملك . وهو الحجر الذي مكن شامبليون من حلّ رموز الكتابة الهيروغليفية

تولى بطليموس فيلوماتور[٢] السادس الملك سنة ١٨١ ق . م . وهو في الخامسة من عمرهِ تحت وصاية امهِ كليوبطرا . فأحسنت التدبير وأصلحت شؤون مصر ، وردّت عنهـا غارات انطيوخس الرابع ملك

---

(١) معناهُ « الشهير » ولقب بذلك تهكماً

(٢) فيلوماتور « محب امهِ » لقب بذلك تهكماً لأنهُ كان يبغضها بغضاً شديداً

سوريا . وفي سنة ١٧٠ ق . م . تمكن انطيوخس من أسر ابنها . ولم ينج من سجنهِ الاَّ سنة ١٦٦ ق . م . وبعد ان حكم سنتين بالاشتراك مع اخيهِ بطليموس « افرجيت » الثاني الذي تولى الملك مدة غيابهِ ، اعاد عليهِ انطيوخس الكرة ، فاستعانت عليهِ كليوبطرا بالرومانيين فردوهُ عن مصر بعد حروب طويلة ؛ واكرهوا بطليموس السادس على اعطاء اخيهِ جزيرة قبرس وليبيا والقيروان ليستقلَّ بحكمها . ومات بطليموس السادس سنة ١٤٦ بعد ان حكم ٣٥ سنة قضاها في القتال والكفاح

كان بطليموس السابع ملكاً على القيروان كما تقدم ، فلما علم بموت أخيهِ أسرع الى مصر فوجد امرأة اخيهِ قد نادت بابنها الصغير ملكاً ، فتزوَّج بها قهراً ، وذبح ابنها أمامها في يوم عرسها ، وفتح الاسكندرية عنوة وقتل أنصار اخيهِ عن آخرهم، وظلَّ يقتل ويسلب ويسجن ويستبد بالرعية حتى ثارت عليهِ تريد قتلهُ ؛ ففرَّ من الاسكندرية ولم يعد اليها الاَّ بعد ان هدأَ وزيرهُ الخواطر . وفي آخر أيامهِ أصلح سيرتهُ وعكف على تنشيط العلوم والصنائع ، ووضع كتباً مفيدة اكثرها في علم الحيوان ومات سنة ١١٧

ولما توفي بطليموس السابع استدعت كليوبطرا اولادها ، وولَّت اكبرهم بطليموس الثامن [١] وظلَّ عشر سنوات ألعوبة في يدها تديرهُ كما تشاء وهو لا يجسر على مخالفتها . ثم أثارت الرعية عليهِ لغرض في نفسها فغادر مصر هارباً . واستدعت كليوبطرا أخاهُ اسكندر بطليموس

(١) لقب بسوتر الثاني

التاسع وولَّتهُ الملك . وبعد مدةٍ وقع بينها وبينهُ خلاف ونفور، فحاولت التخلص منهُ ولكنهُ قتلها قبل ان تفعل . وفي سنة ٨٨ فتح قبر الاسكندر المقدوني في الاسكندرية ليغتصب ما فيهِ من الكنوز ، فهاج عليهِ المصريون واضطروهُ الى الفرار ، واستدعوا بطليموس الثامن من سوريا ليتولى الملك فعاد وحكم ٧ سنوات ونصف سنة ومات سنة ٨١ ق . م . اما الاسكندر الأول أو بطليموس التاسع فحاول عبثاً استرجاع الملك ، ومات طريداً

وقام بالملك بعدهُ بطليموس العاشر أو الاسكندر الثاني ، وتزوّج بابنة عمهِ سوتر الثاني او بطليموس الثامن ، وجعلها شريكتهُ في الملك استرضاءً لحزب أبيها . ثم قتلها لسبعة واربعين يوماً من جلوسهِ على العرش . فهاج الناس لهذهِ الخيانة وعزلوهُ سنة ٨٠ ق . م . فكان آخر ملك من سلالة البطالسة الشهيرة . وفي ايامهِ كانت رومة آخذة في التقدم والاتساع ، وقد استولت على سوريا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محاطة بالاعداء من كل جهة

مات بطليموس العاشر بلا عقب ، ولم يبقَ من العائلة الملكية من يخلفهُ ، فولّى المصريون المُلك رجلاً منهم يدعى ديونيسيوس ، ولقبوهُ ببطليموس أوليتس .(١) ولم يعترف الرومانيون لهُ بالملك الآ في سنة ٥٩ ق . م . وذلك بعد ان أعطاهم جزيرة قبرس ، وأجاز لهم التدخّل في شؤون مصر . فكرههُ المصريون لهذا التساهل ولشدّة اهمالهِ ، وثاروا

(١) لقب باوليتس ومعناهُ « الناي » لشدّة ولعهِ بهِ

عليهِ يطالبونهُ بالاصلاح ثم طردوهُ من بلادهم فالتجأَ الى الرومانيين ومكث عندهم ثلاث سنوات حكمت خلالها ابنتهُ الاولى وماتت، ثم ابنتهُ الثانية الى ان عاد فقتلها لاختلاسها الملك. وملك ثلاث سنوات قضاها في ابتزاز أموال الرعية ومات سنة ٥٢ ق. م. مكروهاً كرهاً شديداً من كل المصريين

لما مات بطليموس الحادي عشر سنة ٥٢ ق. م. كان ابنهُ بطليموس الثاني عشر في الثالثة عشرة من عمرهِ، وابنتهُ كليو بطرا في السابعة عشرة. فطمعت هذهِ بالانفراد بالملك دون أخيها، ولكنها لم تجسر على اظهار مطامعها دفعة واحدة، فاكتفت في اول الأمر بان تزوجت بأخيها وشاطرته الملك. وأدرك أوصياء زوجها أمانيها السرية، فاقصوها عن البلاط ومنعوها التدخّل في شؤون المملكة فلما رأت نفسها بلا معين سارت الى سوريا واستنجدت بالرومانيين

وفي هذهِ الاثناء فرّ القائد بومبيوس من وجهِ يوليوس قيصر الى مصر فقتلهُ بطليموس سنة ٤٨ ق. م. استرضاءً لقيصر. على ان قيصر ما فتئَ ان انتصر لكليو بطرا على أخيها رغم ما كان منهُ، فحاربهُ وهزمهُ وولّى أخاها الاصغر مشترطاً عليهِ ان يشرك أختهُ معهُ في الملك. اما بطليموس الثاني عشر فاختار الانتحار على الفشل والوقوع بين ايدي اعدائهِ، فألقى بنفسهِ في النيل، ومات غرقاً بعد ان ملك أربع سنوات

ارتقى الملك بطليموس الثالث عشر سنة ٤٨ ق. م. وتزوجت بهِ كليو بطرا وهو في الحادية عشرة من عمرهِ، ولم يروِ عنهُ التاريخ شيئاً

يذكر . وفي السنة الرابعة والاربعين قبل المسيح ، دسَّت لهُ كليوبطرا السمّ في طعامهِ فمات واستأثرت بعدهُ بالملك

وكانت قبل ذلك بثلاث سنوات قد تبعت يوليوس الى رومة ، وأقامت معهُ حتى مقتلهِ سنة ٤٤ ق . م . ورُزقت منهُ غلاماً دعتهُ قيصرون

ولمَّا قتلت بالسمّ زوجها بطليموس الثالث عشر ولَّت مكانهُ ابنها الطفل قيصرون تحت وصايتها ، فكانت هي الملكة الحقيقية . وقد ساعدها المجلس الروماني على تحقيق أمانيها

ثم انتشبت الحرب بين القائدين انطونيوس واكتافيوس وبين بروتوس قاتل يوليوس قيصر ، فأمدّت بروتس بعمارة بحرية وبعددٍ من رجالها وشيءٍ من مالها خارقة حرمة المعاهدات التي عقدتها مع أعدائهِ

وبلغت خيانتها مسامع انطونيوس وهو في طرسوس فاستدعاها اليهِ لتدافع عن نفسها او تعاقب بما تستحقهُ . فأجابت دعوتهُ على زورق مزدان بنقوش جميلة ، مذهب الحوافي ، مقاذيفهُ من فضة ، وقلوعهُ من حرير مدبج ، وارتدت أفخر ثيابها وأجملها ، وتعطَّرت بأثمن العطور ، وأحاطت نفسها بجواريها ، فلما رآها انطونيوس ، وهي على ما هي عليهِ من الجمال ، شغف بها ، وأصدر حكماً يبرّئها تجاهَ حكومتهِ وعادت الى مصر سالمة فائزة

وبعد ذلك بزمن قصير تبعها انطونيوس الى الاسكندرية فأحسنت ملقاهُ واكرمت مثواهُ وأنستهُ واجباتهِ وبلادهُ

ولما علم المجلس الروماني بذلك ، أشهر الحرب على مصر وأرسل اليها جيشاً كبيراً بقيادة اكتافيوس وكان ذلك سنة ٣٢ ق . م . فقابلتهُ مراكب انطونيوس وكليوبطرا على شواطىء اكسيوم في اليونان حيث اقتتل الجيشان وفاز الرومانيون فوزاً تاماً

ولما رأت كليوبطرا ضعف انطونيوس عن حمايتها ، لجأت الى الجانب الأقوى ، واستنجدت اكتافيوس فوعدها خيراً على ان تتخلص من انطونيوس ، وهو ينوي عكس ما وعد ، أما هي فأشاعت انها ماتت وبلغت الاشاعة انطونيوس فانتحر لساعتهِ

أما اكتافيوس فدخل الاسكندرية منصوراً ، وتولّى البلاد وقتل قيصرون ، وقبض بعد موت انطونيوس على كليوبطرا قاصداً قتلها . فلما أدركت قصدهُ وعجزت عن التسلط عليهِ شأنها مع غيرهِ ، انتحرت بأن وضعت على صدرها ثعباناً ساماً لدغها وأماتها لساعتها . وكان ذلك في ١٥ أغسطس سنة ٣٠ ق . م . فانتهت بموتها دولة البطالسة وقامت على أنقاضها دولة الرومان

till here

خلاصـــة

الدولة اليونانية

عادت مصر القهقرى على عهد الدولة اليونانية من حيث نفوذها السياسي وعلوّ شأنها بين سائر الشعوب ولكنها رقيت كثيراً في نظامها وحكومتها ومعارفها وقوانينها فكان ابناؤها متساوين في الحقوق على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم وقد انصرفوا الى نشر المعارف والعلوم في بلادهم ، فترجمت يومئذٍ التوراة من العبرانيـة الى اليونانية ، وكتب الكاهن المصري مانيثون تاريخهُ المشهور ، وانشئت في الاسكندرية مكتبة نفيسة حوَت من التآليف أشهرها وأنفعها ، ومدارس عالية ، وداراً لجمع التحف والغرائب من كل الاقطار ومعابد ومبانٍ فخمة في الاسكندرية وسائر مدن القطر ومدن النوبة هذا عدا ما رمّمَ من المباني القديمة وأنشئ من المدن الجديدة كأرمنت وأدفو وغيرهما

وكانت قاعدة الدولة اليونانية مدينة الاسكندرية فأتاها أرباب المعارف والعلوم والفنون والفلاسفة والأدباء والحكماء من كل صوب وكانت لهؤلاء اليد الطولى في اضطهاد النصرانية يوم انتشرت في مصر

وقد ظلت الدولة اليونانية قوية محترمة من سائر الدول حتى عهد الاسكندر بطليموس التاسع . ثم ارتقى عرشها ملوك دون سلفائهم حزماً ودراية فأخذت في الضعف والانحطاط وكانت الدولة الرومانيـة يومئذٍ آخذة في التقدم ، تزداد قوة ومنعة واتساعاً فتغلبت على اليونان واحتلت مصر سنة ٣٠ ق .م. وكانت مدة الدولة اليونانية فيها ٣٠٠ سنة

الفصل التاسع

الدور المسيحي – رومة والرومانيون – الفتح الروماني

الدور المسيحي — يبتدئ هذا الدور في مصر في اواسط عهد العائلة الرابعة والثلاثين الرومانية ، اي سنة ٣٨١ للميلاد ، عندما نهى الأمبراطور طيودوسيوس المصريين عن الوثنية وأمرهم باعتناق المسيحية ، وينتهي سنة ٦٤٠ ب . م . بالفتح الأسلامي . على ان المسيحية كانت قد دخلت مصر في الحقيقة منذ أوائل الفتح الروماني ، واعتنقها كثيرون من الوطنيين ، وكانت سبباً للمذابح الشهيرة في تاريخ الشرق ؛ وقد دان بها بعض القياصرة الرومانيين قبل طيودوسيوس قيصر . ولذلك سمى بعض المؤرخين تاريخ الدولة الرومانية بأكمله بالدور المسيحي

رومة والرومانيون — كانت في ايطاليا بلاد تعرف قديماً باسم « لاسيوم » مؤلفة من ثلاثين مدينة مستقلة الواحدة عن الأخرى في ادارتها وشؤونها الداخلية ، متحدة بعضها مع بعض في دفع الاعداء عنها وكان سكانها من أصل يوناني ، عقائدهم ودياناتهم وتعاليمهم يونانية . وكانت أهم تلك المدن مدينة رومة واسمها هذا نسبة الى الأمير روميليوس بانيها سنة ٧٥٣ ق . م . وسمي ساكنوها بالرومانيين نسبة اليها

وكانت الحكومة الرومانية ملكية مطلقة منذ نشأتها حتى سنة

٥٠٩ ق . م . وقد تتابع على عرشها سبعة ملوك أخضعوا تدريجاً كل مدن «لاسيوم» وكان سابعهم ظالماً جاهلاً نخلعهُ قومهُ وأسسوا بعدهُ حكومة جمهورية يرأسها حاكمان يلقّب كل منهما بالقنصل . وظلت هذهِ الجمهورية زاهرة ٤٨٠ سنة ، بلغت في خلالها من القوة والاتساع مبلغاً عظيماً ، وأخضعت لسيطرتها سائر أمم ايطاليا وغيرها من الأمم المعروفة يومئذ

وفي سنة ٤٤ ق . م . أقام مجلس شيوخ رومة يوليوس قيصر والياً عليها ، وأنعم عليهِ بلقب امبراطور وبألقاب اخرى ، ومنحهُ سلطة مطلقة فكان هذا ممهداً لرجوع الملكية . على ان يوليوس لم ينعم بمنصبهِ طويلاً ، فان نصراء الحكومة الجمهورية قتلوهُ غدراً في تلك السنة . ولم يمنع ذلك أغسطس قيصر عن الانفراد بحكم الدولة سنة ٢٩ ق . م . وهو نفس أُكتافيوس الذي فتح مصر سنة ٣٠ ق . م . وجعلها ايالة رومانية . وما زالت بلادهُ تزداد اتساعاً حتى شملت كل افريقيا الشمالية ، وجزائر البحر المتوسط ، وقسماً كبيراً من أوروبا وآسيا . وكان هذا الاتساع العظيم سبباً لسقوط رومة ، لأن ملوكها في العهد الاخير عجزوا عن الاحتفاظ بوحدتها ؛ وكانوا قليلي الدراية والحكمة فأساءوا معاملة رعاياهم المختلفي الجنسية ، ولم يساووا بينهم في الحقوق ، واستبدوا وانهمكوا في ملذاتهم ، فضعفت دولتهم وأخذت في الانحطاط . وفي سنة ٣٩٥ للميلاد قسم طيودوسيوس الأكبر المملكة الى قسمين : المملكة الرومانية الشرقية وجعلت قاعدتها مدينة بيزنطية أو القسطنطية [١] ، والمملكة الرومانية

(١) نسبة الى الامبراطور قسطنطين وهي الآن مدينة الاستانة

الغربية وظلت قاعدتها رومة . وما زالت المملكتان تضعفان يوماً فيوماً حتى فتح البرابرة المملكة الغربية سنة ٤٧٦ للميلاد . ثم فتح بنو عثمان المملكة الشرقية سنة ١٤٥٣ للميلاد

الفتح الروماني — ظلت مصر ولاية رومانية مدة ٦٧٠ سنة . وقد تقدَّم الكلام عن كيفية دخولها في حوزة الرومانيين. وبعد انتحار كليوبطرا وقتل قيصرون ، آل أمر مصر الى أغسطس قيصر ، فأجاز للمصريين المحافظة على عاداتهم ودياناتهم ، ولم يغير شيئاً من شرائع البلاد ونظامها السياسي الذي وضعهُ البطالسة ، ولكنهُ ساوى بين اليونانيين وعامة الشعب بعد ان كانت لهم امتيازات الفريق الحاكم ، فكان أهل الدلتا راضين عنهُ قانعين بما مُنحوا ، لا سيما وانهُ وكَل أمرهم الى قورنيليوس غالُس وكان هذا حكيماً حازماً ، فأصلح وعدَل . على ان أهل الصعيد طمعوا بالاستقلال وثاروا عليهِ حيناً ، لكنهم لم يلبثوا ان خضعوا لهُ صاغرين. فلما استتب لهُ الأمر طمع بالانفراد بحكم القطر، فعزلهُ اغسطس وولى غيرهُ . وثار الاسكندريون على الوالي الثاني فأخضعهم خضوعاً تاماً وفي أيام الوالي الثالث ، رغب أغسطس في احتلال شبه جزيرة العرب ، فأمدَّهُ هذا بجيش مصري ، هلك اكثرهُ وعاد من سَلم منهُ مهزوماً . واغتنم الأثيوبيون فرصةَ ابتعاد هذا الجيش عن مصر لاحتلال اسوان وضواحيها ، فأجلاهم الوالي عنها وطاردهم حتى عاصمتهم نباتا

وفي عهد أغسطس وُلد المسيح في قرية بيت لحم في فلسطين . ولما بلغ من العمر سنتين أتت بهِ أُمهُ مع يوسف النجار الى مصر وأقامت فيها

أربع سنوات ، تجوب بهِ البلاد من موضع الى آخر

ومات اغسطس سنة ١٤ بعد الميلاد المسيحي وخلفهُ طيباريوس قيصر . وكان واليهِ على مصر ظالماً فأثقل كاهل المصريين بالضرائب حيناً الى ان أمرهُ طيباريوس بتخفيضها ففعل

ثم ارتقى العرش الروماني قاليغولا قيصر في سنة ٣٧ للميلاد فاضطهد اليهود كثيراً واقتدى واليهِ بهِ فسامهم في ولايتهِ المصرية كل أنواع العذاب ، وذبح منهم خلقاً كبيراً ، وجرّد الباقين من الامتيازات التى كان قد خصَّهم بها اغسطس قيصر

وحدثت فتنة بين اليهود واليونانيين في الاسكندرية في سنة ٤١ للميلاد على عهد قلوديوس قيصر ، فقتل من الفريقين كثيرون . وطالب اليهود القيصر بحقوقهم التي نُزعت منهم على عهد سلفهِ ، فأعادها لهم ، وأخذ على عاتقهِ حمايتها ؛ فاستتبَّ بذلك الأمن ، وتحوَّل الوالي الى الاصلاح ونشر المعارف ، وتشجيع الصنائع ، وتوفير وسائل الاتجار مع الهند وسائر البلاد الشرقية

وفي سنة ٥٥ للميلاد وهي الثانية من حكم نيرون ، اعتدى اليهود ثانية على اليونانيين واقتتل الفريقان طويلاً . وفي السنة الثانية عشرة من حكمهِ ثار الكهنة وخدام المعابد وسائر أنصار الوثنية في مصر على المسيحيين ونكّلوا بهم تنكيلاً وأذاقوهم من العذاب ألواناً

ولما مات نيرون سنة ٦٨ للميلاد ، انقرضت بموتهِ عائلة أغسطس غير ان خلفاءها احتفظوا ، الواحد بعد الآخر ، بخطتها تجاهَ مصر

والمصريين . وفي سنة ١١٦ للميلاد على عهد طريّانوس قيصر ، ثار اليهود على اليونانيين في مصر وقبرس والقيروان وذبحوا منهم عدداً غفيراً ، وطاردوا الباقين الى الاسكندرية حيث امتنع الفارّون في حصونها . ثم أمدّ طريانوس اليونانيين بجيش عظيم ، كانت بينهُ وبين اليهود معارك عديدة انتهت بانهزامهم وفرارهم الى الصحراء

وفي سنة ١٢١ حدثت فتنة أخرى بين الوطنيين ؛ وكان القيصر يومئذ أدريانوس ، فأسرع بجيوشهِ الى البلاد المصرية وأخمد نيرانها وأزال الجفاء الذي كان بين أهلها ، ورمّم هياكلهم ومبانيهم التي أهملوها خلال فِتَنهم المتتابعة وجدّد بناء مدفن پومبيوس ، وساح في الوادي كلهِ ، وشاد مدينة انتينوى ، ومدّ منها الى البحر الأحمر طريقاً للقوافل

وخلف هذا « انطونينس » قيصر ؛ وفي ايامهِ ثار اليونانيون على واليهِ في مصر ، وقتلوهُ وسلبوا الوطنيين أموالهم ، وأكثروا من اهراق الدماء ، فأتاهم بجيش كبير وقتل زعماءهم وأعاد الأمن الى ما كان عليهِ اولاً .

وفي سنة ١٦١ للميلاد تولى الملك مرقوريلس قيصر وويروس قيصر معاً ، فأباح الأول اعتناق المسيحية للراغبين فيها ، ومنع عن النصارى أذى أخصامهم . وفي سنة ١٧٢ خرج قوم من المصريين على والي مصر باغراء أحد الكهنة المصريين ، وهزموا العساكر الرومانية في الاسكندرية ؛ فأتاها القائد الروماني قَسيوس من سوريا بنجدة كبيرة وأجلى عنها العصاة وتتبّعهم بالقتل

وفي سنة ١٩٦ ب . م . أعاد « سويروس » قيصر للاسكندريين

الاستقلال الاداري الذي فقدوهُ على عهد أغسطس قيصر

وفي سنة ٢١٥ للميلاد أتى « قرقله » قيصر الى الاسكندرية وأعمل السيف في أهلها ، وأباح لجنودهِ السلب والنهب ، واضطهد النصارى فيها وفي سائر مملكتهِ اضطهاداً شديداً

وفي سنة ٢٢٣ للميلاد قام بأمر المملكة الرومانية اسكندر سويرس قيصر ، وكانت أمهُ مسيحية ، فأحسن معاملة النصارى وعضد النصرانية . وفي أيامهِ تقدّمت العلوم والصنائع والفنون في مصر تقدماً عظيماً

ولما تولى الملك دوقيوس قيصر سنة ٢٤٩ كانت النصرانية قد انتشرت في مصر انتشاراً كبيراً ، فاضطهد اتباعها وعذّب وصلب وقتل حتى لم ينجُ منهم الاَّ من فرَّ الى الصحارى أو التجأ الى المقابر والكهوف . وقام خلفاء دوقيوس فحذوا حذوهُ في اضطهادهم

وفي سنة ٢٦٢ للميلاد نادى الاسكندريون بواليهم « مرقس يوليوس اميليانوس » ملكاً على مصر ، فأشهر الرومانيون عليهِ وعلى انصاره حرباً عواناً ، وهزموهُ شرَّ هزيمة وخرّبوا الاسكندرية وقتلوا ثلثي سكانها

وفي سنة ٢٦٨ ، على عهد « قلوديوس » قيصر الثاني ، فتحت زينب ملكة تدمر البلادَ المصرية وشاطرت الرومانيين الحكم فيها

وفي سنة ٢٧٠ للميلاد ارتقى العرش أوريليانوس قيصر فطرد التدمريين من مصر . وطمع بعدهم تاجرٌ مصريٌّ في الاستيلاء على حكم البلاد فكان حظهُ منها كحظهم

وخلف أوريليانوس قياصرةٌ لم يأتوا باعمال جديرة بالذكر في مصر .

وقد تركوها مثقلة بالضرائب متقهقرة اقتصادياً وادبياً . وفي سنة ٢٨٤ تولى الامبراطورية ديوقليطيانوس قيصر . وخرج في أيامهِ واليهِ في مصر عن طاعتهِ ، فسار اليهِ وحاصر الاسكندرية ثمانية أشهر ، ثم فتحها عنوة وأطلق الجنود فيها يقتلون وينهبون ، وأحرقوا منها قسماً كبيراً . ثم أباح دماء النصارى ، وقتل منهم خلقاً كثيراً وأقفل بعض كنائسهم ، وهدم البعض الآخر ، وحمل الناس على عبادة الاصنام قهراً . وهو آخر قياصرة الرومان الوثنيين . وكانت مذابحهُ للنصارى أعظم المذابح وأفظعها ، فصارت لهم تاريخاً يؤرخون بهِ الى يومنا هذا ويسمونه تاريخ الشهداء ، وهو تاريخ السنة القبطية .

وخلف ديوقليطيانوس قيصرانِ اقتفيا أثره في اضطهاد المسيحيين . ثم خلفهما قسطنطين الاكبر ، فاعتنق المسيحية وجعلها دين الحكومة والأمة ، وعطّل الاشغال في ايام الآحاد ، وهدم بعض الهياكل الوثنية وبنى الكنائس ، وكان النصارى حتى ذلك العهد يقيمون الصلاة في الدياميس والكهوف . وقد عمل على تحسين أحوال مصر وترقيتها . على انها ما كادت تنعم باصلاحات هذا الامبراطور حتى وقع فيها بين مذاهب النصرانية خلاف أدّى الى منازعات شديدة ، أخلّت بالأمن وفرّقت بين أبناء الوطن الواحد ، ثم دفعت بهم الى القتال والعداء ، واتخذ قسطنطين مدينة بيزنطية عاصمةً لهُ ، فأمَّها أرباب العلم والصنائع والفنون وغيرهم من الاسكندريين . وكان ذلك من الأسباب التي حطّت من شأن الاسكندرية بعد أن كانت في مقدمة مدن الشرق عمراناً وأهميةً

وفي سنة ٣٧٨ تولى الامبراطورية طيودوسيوس فعمَّم الدين المسيحي في الامبراطورية الرومانية ، ونهى عن الوثنية ، وأخمد الفتن فاستتبَّ الأمن وحسنت حال البلاد ؛ وقبل وفاتهِ ، قسم الامبراطورية الى قسمين : الامبراطورية الرومانية الشرقية وخصها بابنهِ ارقاديوس ، والامبراطورية الرومانية الغربية وجعلها من نصيب ابنهِ أنوريوس

ومن ذلك الحين أصبح لبطاركة الاسكندرية النصيب الأوفر في حكم مصر وادارة شؤونها بعد ان كان عملهم مقصوراً على الامور الدينية وتعليم الشعب . وقد وضعهم أرقاديوس فوق القضاة ووكل اليهم الحكم في الرعيـة ، فجمعوا بين السلطتين الدينية والمدنية . وهو الذي بنى دير القصر في جبل المقطم شرقي طره ، وقد عفت الآن آثارهُ

وفي ايام طيودوسيوس الثاني خليفـة ارقاديوس ، استمرّت الفتن الدينية على ما كانت عليهِ قبلهُ ، واشترك فيها الجيش والعامة ، فعظمت الخسائر ، وتوقف سير الأعمال ، وقُتل كثيرون من أنصار المذاهب المختلفة

وفي أيام مارقيانوس قيصر أغار على مصر الجنوبية بعض القبـائل القاطنة في ما وراء الشلال الاول ، فاجلاهم عنهـا الرومانيون واضطروهم الى دفع غرامة كبيرة . على ان الفتن والحروب الداخلية ظلت قائمة على قدم وساق . وبلغت أشدّهـا في الاسكندرية عندما أيدت الحكومة المذهب الارثوذكسي ، فاشتدَّ القتال بين الفريقين ، وأُحرق قسم من المدينة

وفي سنة ٤٥٧ قام بأمر الامبراطورية ليون الاكبر ، وخلفهُ ليون

الثاني ثم زينون ولم تحسن الاحوال قط . وفي سنة ٤٩١ تولى الملك أنسطاش وأقام اطناسيوس بطركاً في الاسكندرية . وكان هـذا على مذهب الفريق الاكبر من الاسكندريين فخمدت الفتن في البلاد . ثم أغار الفرس على مصر فصدهم انسطاش وحملهم خسائر كبيرة

وفي سنة ٥٢٧ عمد « يوسطنيانوس » قيصر الى ازالة الخلاف الديني وتوحيد المذاهب في مصر بالقوة ؛ فأرسل اليها بطركاً من قبلهِ ، وعهد اليهِ بمنصب الولاية ، وقلده ُ سلطة مطلقة فيما يجريه من الاصلاح ، فأتى الاسكندرية وذبح زعماء المذاهب المختلفة وسائر العصاة ، واخضع الباقين قهراً . فشكى الأهلون ظلمهُ الى قيصر فأغضبتهُ شكواهم ، ودفعتهُ الى التشديد عليهم

وقد بنى يوسطنيانوس للرهبان اديرة حصينة على تخوم مصر وعند سفح جبل سينـا في الطريق من مصر الى سوريا ، وذلك لتكون أشبهَ شيء بمعاقل قائمـة في وجهِ الاعداء . وعقد معاهدات تجارية مع الهند ، فتحوَّلت تجارتها حيناً من بلاد فارس الى مصر ؛ وهدم هيكل ايزيس في فيلوي وسجن كهنتهُ وحمل تماثيلهُ الى القسطنطينية رغبة منهُ في التخلص من زيارات القبائل له سنوياً

وفي سنة ٥٧٨ تولى الحكم « طيباريوس » الثاني . وكان النوبيون وأهل المغرب قد أغاروا على مصر الجنوبية ، فصدَّهم عنها . وكانت ايام مصر في عهدهِ ايام فوضى وفتن . على انهُ بذل جهده ُ في تأييد الكنيسة الوطنية

وفي سنة ٦٠٢ طمع هرقل باغتصاب الأمبراطورية من فوقاس

فأرسل الى مصر القائد بوناخيس ليستميل القوم اليهِ وهزم انصار فوقاس ودخل الاسكندرية ظافراً . ثم أتت جيوش فوقاس المهزومة نجدة من القسطنطينية ، فاستؤنف القتال وقتل بوناخيس وخلفهُ قائد آخر يدعى نيكيتاس ، وكسر جيوش القسطنطينية ففرَّت من وجههِ تاركة البلاد في قبضتهِ

وفي سنة ٦١٠ استتبَّ الامر « لهرقل » قيصر . وفي ايامهِ اغار الفرس على الدلتا وفتحوها عنوة . فرحَّب بهم المصريون ، وفرَّ قوم هرقل من البلاد وحكمها الفرس عشر سنوات

ولما أغار العرب على بلاد فارس بعد ظهور صاحب الشريعة الاسلامية اضطرّ الفرس الى العودة الى بلادهم من كل الانحاء للدفاع عنها . فاستعاد الرومانيون بذلك بعض املاكهم في الشرق بما فيها مصر ؛ على انهم لم ينعموا طويلاً بملكها ، فان العرب دخلوها سنة ٦٣٩ بقيادة عمرو بن العاص وتمَّ لهم احتلالها سنة ٦٤٠ للميلاد

هذا مجمل الحوادث التي جرت في مصر على عهد الرومانيين ؛ وقد تركها هؤلاء وحالتها الادبية في تقهقر ، كما غادرها اليونانيون من قبلهم في تأخر من الوجهة السياسية . ذلك لأن العلماء والفلاسفة وأرباب الأدب هجروها ، الى رومة ثم الى بيزنطية ، رغبة منهم في التقرب الى القياصرة .

اما الزراعة فكانت قد تحسنت كثيراً في القرن الاول من احتلالهم بتحسن الريّ وتطهير الترع . ثم أحدث بعضهم ضرائب فادحة كادت توازي دخل البلاد من زرعها فضج منها الشعب وعلت شكواهم وترك

كثيرون من الزرّاع الفلاحة والاعمال ولجأوا الى اللصوصية أو اعتمدوا البطالة تخلصاً من دفع الضرائب ؛ فسقطت البلاد في الفقر المدقع واستكان الشعب للاستبداد

خلاصة

الدولة الرومانية

أصبحت مصر ولاية رومانية بعد موت كليوبطرا سنة ٣٠ ق . م . وكانت أحوالها تختلف باختلاف أطوار الامبراطرة والولاة الذين كانوا يتولونها . وكثيراً ماطمع هؤلاء الولاة بالاستقلال فحاربتهم رومة وأخضعتهم . وظلت مصر مدة من الزمن ميداناً للفتن بين العناصر وخصوصاً بين اليهود واليونانيين ، ثم بين الوثنيين والمسيحيين على أثر ظهور النصرانية واضطهاد الرومانيين لها . ثمَّ اعتنق قسطنطين الكبير النصرانية ودان بها الفريق الاكبر من رعاياه ، وجعلها الامبراطور طيودوسيوس ديانة المملكة ، فتحوَّلت الفتن في مصر الى ما بين المذاهب النصرانية حتى أقام الامبراطور انسطاش على الاسكندرية بطريركاً على مذهب الفريق الاكبر فسكّن الاضطراب . وفي عهد الرومانيين غزت مصر زينب ملكة تدمر سنة ٢٦٢ وشاطرتهم الحكم نحواً من ثلاث سنوات على أيام اقلوديوس الثاني ، ثمَّ غزاها الفرس وظلوا فيها عشر سنوات على عهد هرقل سنة ٦١٠ . ثم فتحها العرب بقيادة عمرو بن العاص في سنة ٦٣٩ للميلاد

الفصل العاشر

مدنية مصر القديمة

الديانة — الشرائع — العلوم — الآداب — الصنائع — الكتابة

سبق قدماء المصريين شعوبَ العالم قاطبةً في مضمار التمدُّن والترقي ، وأدركوا من العلوم والمعارف والآداب مالم تبلغ اليهِ أُمةٌ في تلك الأعصر الخوالي ، حتى انه ليصحُّ ان تُعدَّ المدَنيـةُ المصرية أماً لمدَنيات شعوبٍ كثيرة أخذت عنها واقتدت بها . وقد خلّف لنا المصريون من الآثار المجيدة ما ينطق بما كانوا عليهِ من التقدُّم الأدبي والمادي والصناعي ؛ ولا يزال علماء العاديات يكتشفون في أيامنا هذهِ أدلةً على أزدهار المدَنية المصرية القديمـة . وفي ما يلي شيءٌ مما كانت عليهِ حالةُ مصر الدينيـة والأدبية والمادية :

الديانة المصرية — كان قدماء المصريين من أشدّ الأمم تمسكاً بالدّين ؛ يدلُّ على ذلك المعابد والهياكل الكثيرة التي لا يزالُ معظمها قائماً حتى يومنا . وأصلُ دينهم مجهول ، ولعلهم أتوا بهِ من آسيا عندما هاجروا منها الى مصر . وكانوا في بداية أمرهم موحدين يؤمنون باللهِ واحدٍ أزليّ مبدع الأرض والسماء ، تعجز العقول عن إدراك جوهرهِ . ثم أَخذوا يعبدون ذلك الالهَ في مظاهرهِ المتعدّدة ؛ فرمزوا الى كل صفة من صفاتهِ

بتمثال أو حيوانٍ أو نباتٍ أو غيرِ ذلك ؛ فأدّى بهم هذا الى الشركِ والوثنية ؛ وقسموا الآلهة الى ثلاث طوائف : آلهة الموتى ، والآلهة الشمسية ، وآلهة العناصر . ومن أعظم آلهة الموتى « أوزيريس » إلهُ الخير ورمزُهُ النيل ، و « وإيزيس » إلاهة الخصب والحياة ورمزُها التربةُ السوداء ، و « أنوبيس » حافظ الموتى ورمزُهُ ابن آوى . ومن أعظم الآلهة الشمسية « رع » الالهُ الاكبر ورمزهُ الشمس ، و « تم » إلاهة الغروب ورمزها العجل منيفس . أما آلهة العناصر فأعظمها « نو » إلهُ الماء ورمزُهُ المحيط ، « وتيفون » إلهُ الشر والفاقة ورمزُهُ الصحراء . وقد تختلف اسماء هذهِ الآلهة باختلاف الاعصر والأماكن التي عُبدت فيها . وكان قدماء المصريين يعتقدون أن آلهتهم تتزاوج ، وتتألم ، وتموت ، وترعى حقوق الجوار ، وتأكل وتشرب ، فكانوا يقرّبون لها القرابين والضحايا من الحيوان والحبوب والأثمار . وكانوا يعتقدون أيضاً أن مقام الإلهِ بالنسبة الى سائر الالهة هو مقام البلد المعبود فيهِ بالنسبة الى سائر البلدان ، فعندما سيطرت طيبة مثلاً على وادي النيل ، جعلت إلهها أمون سيداً لجميع الآلهة . ولما دالت دولتها ، أصبح أمون في المرتبة الثانية بين الآلهة . ومن أشهر الرموز التي أُلّهت وعبدت ابن آوى رمز أنوبيس ، والعجل « أبيس » والجُعَل وكلاهما رمز « فتاح » وغيرها من الحيوانات كالقرد والهرّ والتمساح وفرس الماء والبازي والجعَل أي الجعران . وكانوا يعبدون العجل مدة ٢٥ سنة فاذا لم يمت بعد هذهِ المدة أخذوهُ في مهرجان عظيم وأغرقوهُ في النيل ، ثم أخرجوهُ وحنّطوهُ ودفنوهُ في مدفن العجول

بقرب سقارة ولبسوا عليهِ شعائر الحداد الى أن ينتقوا لهم عجلاً آخر يعبدونهُ

وكانوا يحزنون حزناً شديداً عند هبوط منسوب النيل ويقدمون لهُ القرابين استرضاء . وفي إبّان فيضانهِ كانوا يطرحون فيهِ فتاة عذراء يسمونها « عروس النيل » وقد بقيت هذهِ العادة متبعة حتى نسخها عمرو بن العاص لدُن فتح مصر . وعيد وفاء النيل من المواسم التي يحتفل بها حتى اليوم في البلاد

ولما دخل مصر اليونانيون ثم الرومانيون أخذ كل فريق عن الآخر بعض معبوداتهِ ؛ وصار المصريون يؤمنون بوحي أبولّون ومينرفا وديانا وجوپيتر (المشتري) ومارس . ثم ظهرت النصرانية وانتشرت في العالم فاعتنقها فريق من المصريين . وظلت تنتشر في البلاد حتى أصبحت دينها الرسمي ، واضمحلت الوثنية في مصر بنهي طيودوسيوس عنها . وفي سنة ٦٤١ فتح عمرو بن العاص مصر فدخلها معهُ الاسلام

وقد اعتقد قدماء المصريين بالخلود والثواب والعقاب . وكان الإلهُ الديان اوزيريس ، وكانت مملكتهُ اولاً في بطائح الدلتا . فلما ضاقت برعاياهُ نقلهم منها الى السماء ، وسمّى مملكتهُ الجديدة « حقول الفول » إشارة الى خصبها . وكان قومهُ هناك متمتعين بالسعادة التامة والملذات على اختلاف أنواعها ، يطوفون مع الإله « الشمس » في زورقهِ ولا ينالهم أذًى . ولم يكن يتمكن من الوصول الى مملكة الاموات هذهِ الأَ من حنّطهُ قومهُ وأقاموا له بعض الطقوس الدينية . فمن تمَّ لهُ ذلك بُعث من قبرهِ وسافر الى حقول الفول ، فان كان عاقلاً شجاعاً تغلب على ما يلاقيهِ

من المصاعب ، وبلغ سالماً مملكة الاموات حيث يمثل بحضرة الديّان أوزيريس وأعضاء مجلسهِ الاثنين والاربعين . فيسمع المجلس اعترافهُ ، ثم يزن الإلهُ « توت » قلبهُ بميزان الحق ، فان كان صالحاً أجازوا لهُ الاقامة معهم والا حكموا عليهِ بالنفي المؤبد والتعذيب الأليم . وكان الماثل بحضرة الديان ينفي عن نفسهِ اولاً ارتكاب المحرَّمات ، فيقول : «لم أُعذّب الارملة ، ولم أخدع أحداً ، ولم اكذب قط ، ولم أعبث بالحق ، ولم أعرف الخيانة ولا الكسل ولا التعجرف ، ولم أُدنس الاشياء المقدسة ، ولم أسعَ الى ضرر العبد لدى مولاهُ ، ولم أُجوّع أحداً ، ولم أُبكِ أحداً ، ولم افتك بأحد غدراً أو ظلماً ، ولم أحمل أحداً على ارتكاب جريمة القتل ، ولم أحمّل العامل فوق طاقتهِ ، ولم أغتصب اللبن من فم الرضيع ، ولم أشهد زوراً ، ولم أسرق خبز المعابد ، ولم أُحرز مالاً حراماً الخ »

ثم يعدّد بعد ذلك الحسنات التي أتاها فيقول : «لقد عشت بالعدل ، وتغذيت بالحق ، ونشرتُ الافراح في كل صوب ، وأطعمتُ الجياع ، وسقيتُ العطاش ، وكسوتُ العراة ، ومددتُ للغرقى يد النجاة [1] »

شرائع المصريين وآدابهم — من أمعن النظر في الذنوب والآثام التي تتنصل منها الموتى وفي الصالحات التي تدَّعيها يوم المعاد ، أدرك ما كان عليهِ المصريون من الاخلاق الراقية والمناقب الحميدة . وقد عثر الباحثون في الآثار المصرية على كتابات عن شرائع المصريين وآدابهم نقتطف منها ما يلي :

---

(١) نقلاً عن « كتاب الموتى » الباب ١٢٥

كان يُعاقَب بالقتل كلٌّ من يحلف يميناً كاذبة أو يحنث بيمينهِ ؛ ومن يرى رجلاً يعتدي عليهِ معتدٍ ولا يغيثهُ وهو قادرٌ على ذلك ؛ فان لم يقدر ولم يرفع أمر المعتدي الى أولياء الأمر عوقب بالجلد ومنع عنهُ الطعام ثلاثة أيام ، ويُعاقب بالقتل أيضاً كل من يرفع الى قاضٍ وثيقةً كاذبة ؛ ومن يقتل عمداً سواء كان المقتول عبداً أو حرًّا ؛ وكذلك من يقتل حيواناً مقدساً

وكان يعاقب بقطع اللسان كل من يُفشي أسرار الحكومة للاعداء ؛ ومن لم يكن لهُ عملٌ او حرفة يحترفها لتحصيل رزقهِ ؛

ومن شرائعهم ايضاً ان ناكر الدَّين يُصدَّق بيمينهِ اذا لم يكن عند المدَّعي سندٌ يؤيد دعواهُ ؛ وان للدائن حقاً على ممتلكات المدين لا على شخصهِ ، فلا يجوز للدائن ان يسجن المدين او يمسَّهُ بأذى لانهُ تابع لوطنهِ يخدمهُ في الحرب والسلم

ولم يكن يجوز لاحدٍ ان يحترف حرفةً غير حرفة أبيهِ فكانوا بذلك يتوارثون الصنائع والحرف

وكانت المرأة المصرية حرة كنسائنا اليوم ، نصيبها من الارث نصيب الرجل ، وقد أباح لها شرعهم ان تتصرف بارثها بعد زواجها كيف شاءت ، ولقبوها وهي مزوجة « بسيدة البيت »

علوم المصريين — برعَ المصريون الأقدمون في ثلاثة فروع من العلوم هي : الفلك ، والرياضيات ، والطب

اما في علم الفلك فقد اعتنوا برصد النجوم لمعرفة مواقعها وسيرها

وحركاتها ، فميزوا بين السيّارات والثوابت ، ورصدوا الكواكب التي تيسّر لهم رصدها بالعين المجرّدة ، ووضعوا لها تقاويم . وكان اشهر النجوم في عرفهم الشعرى اليمانية لأن ظهورها كان مقروناً ابداً بفيضان النيل ، فجعلوها لذلك أساس تقاويمهم . ونظّموا الأيام ، والاسابيع ، والشهور ، والسنين ، وزانوا هيا كلهم بالرسوم الفلكية كرسمهم منطقة فلك البروج في معبد دندره

واعتقدَ المصريون بالخرافات فابتدعوا التنجيم وجعلوا لهم أيامَ سعدٍ وأيام بؤسٍ كان المنجّمون يدّعون العلم بها قبل أوانها ، ويزعمون معرفة مستقبل الانسان ، وكيفية موتهِ ، وعقبى مصيرهِ . وكان القوم يحترمون التنجيم احترامهم للنبوّة

وكان للمصريين أيضاً معرفة بالعلوم الرياضية من حسابٍ وهندسة وقد عثر الباحثون على قرطاس من البردي دُوّنت فيهِ قواعد هذهِ العلوم مع شرحها

وقد اشتهروا أيضاً بعلم الطب . ولم يبلغوا منهُ ما بلغوا الاَّ بالتجارب الطويلة . وشهد هيرودوتُس في تاريخهِ بأن المصريين من أحسن الناس صحةً واكثرهم اعتناءً بالأمور الصحية . وقد اختصّ الأطباء كل بمعالجة أمراضٍ معينة . وكان التطبيب عندهم بمقتضى قواعد أُدرجت في كتبهم بعد تجربتها ، فاذا خالفها الطبيب وتوفي عليله عُدَّ قاتلاً عمداً ، وحُكم عليهِ بالإعدام . وكان علم الطبّ على نوعين ، وكثيراً ما استعملا في آنٍ واحد وهما : العلميّ أي المعالجة بالأدوية والعقاقير ، والروحاني أي المعالجة بالرُّقى

والطلاسم والتعاويذ . وقد اشتغل فريق منهم بالبحث عن خواص النباتات والمعادن ، واستخرجوا منها ما ثبت نفعهُ . وقد وجد العلماء قراطيس من البردي كُتب عليها بالهيروغليفية طريقة معالجة الحروق والجراح وكل مرض من الامراض ويرجع تاريخ بعض هذهِ القراطيس الى عهد اتوتيس خليفة مينا . على انهم لم يبلغوا شأواً يُذكر في علم التشريح والفسيولوجيا لان الدين كان يقضي باحترام جثث الموتى فلا يتجرّأون على تشريحها اعتقاداً انها تُبعث مشوَّهة يوم النشر

الصنائع المصرية — من ادق صناعات المصريين صناعة التحنيط لحفظ الاجسام لآمادٍ بعيدة وقد ضاع سرّها . وتفوّقوا في معرفة قطع الاحجار الضخمة ونحتها حتى يستحيل اليوم علينا مع ما لدينا من الآلات ان نقطع في السنين الطوال مسلةً واحدة من عشرات أقامها الفراعنة في انحاء كثيرة من القطر . ولنا من آثارهم البنايات الهائلة كالاهرام والهياكل بما فيها من التماثيل والعُمُد الضخمة . وقد مهروا في صقل الاحجار النفيسة وفي صياغتها وفي النقش بالمينا وفي تقليد تلك الاحجار وفي طبخ الزجاج وتلوينهِ حتى بلغوا في كلها حد الكمال . واحسنوا صنع الاسلحة . واعطوا تصويرهم ألواناً ثابتة لم تمحها الازمان ونراها الآن كأنها بنت يومها . واجادوا في صنع التماثيل من الحجر والبرونز والخشب ولوّنوا المعادن واكتشفوا طريقة المزج بينها واتقنوا الزراعة والنجارة والحياكة ولا تزال الى اليوم في دار العاديات المصرية أقمشة من نسجهم

آداب المصريين — لما غزا الفرنساويون مصر في سنة ١٧٩٨ عثر

أحد رجالهم على حجر اسود بقرب رشيد عليهِ كتابات هيروغليفية ويونانية وظلت الكتابة الاولى غامضة الى ان جاء شمپوليون بالمقابلة بينها وبين اليونانية فكشف للعالم عن تآليف عديدة كتبها المصريون في عوائدهم وآدابهم وأخلاقهم وعلومهم في يوم كانت اليونان لا تزال في مهدها. ومن أشهر تلك الكتب «كتاب الاموات» أو دليل النفس في سفرها الطويل الى الابدية وكتاب انشيء لتربية ابن رعمسيس الثاني . وتآليف كثيرة في الجان واللطائف والنوادر والطب والفلك والتاريخ وسائر العلوم الدينية والعلمية والأدبية

الكتابة المصرية القديمة — دعاها الأثريون بالهيروغليفية ، كلمة ركبوها من لفظتين يونانيتين Hiéros «مقدس» و glypho «حفر» وقامت تلك الكتابة بصوَر وحروف حفرت أو رسمت على حجر او قرطاس من البردي وتركبت من ادوات اربع (١) من حروف هجائية كل منها لصوت كحروفنا (٢) ومن مقاطع لمعانٍ بذاتها (٣) ومن صوَر للدلالة على شيء بعينهِ او على الحرف الاول او المقطع الاول من كلمة أرادوها (٤) ومن اشارات رمزية اشاروا بها الى معانٍ وآداب دينية . وقد حل رموز تلك الكتابة شمپليون الفرنساوي وبرهن باكتشافهِ على انهُ لم يكن لكهنة المصريين كتابة خاصة حفظوا سرها عن العامة ؛ بل كان عند المصريين ثلاثة أنواع للكتابة : الهيروغليفية وهي التي استُعمِلت للكتابة على المباني ، والهيراطيقية ، المشتقة من الأولى ، للكتابة على البردي ، والديموطيقية ، المشتقة من الثانية ، وقد استعملت بعد القرن السابع في المعاملات التجارية

تاريخ
مصر الحديث

يبتدئ تاريخ مصر الحديث بالفتح الاسلامي سنة ٦٤٠، وقد تعاقبت في حكم مصر خلال هذا الدّور الدوَلُ الآتية :

دولة الراشدين	(٦٤٠ — ٦٦١)
الدولة الأموية	(٦٦١ — ٧٥٠)
« العباسية (١ً)	(٧٥٠ — ٨٧٠)
« الطولونية	(٨٧٠ — ٩٠٥)
« العباسية (٢ً)	(٩٠٥ — ٩٣٤)
« الاخشيدية	(٩٣٥ — ٩٦٩) [1]
« الفاطمية	(٩٦٩ — ١١٧١)
« الأيوبية	(١١٧١ — ١٢٥٠)
دولة المماليك البحرية	(١٢٥٠ — ١٣٨٢)
« « الجراكسة	(١٣٨٢ — ١٥١٧)
الدولة العثمانية	(١٥١٧ — ١٧٩٨)
« الفرنسوية	(١٧٩٨ — ١٨٠١)
« المحمدية العلوية	(١٨٠٥ الى يومنا)

---

(١) ورد في صفحة ١٥١ خطأً ٩٦٠ والصواب ٩٦٩

الفصل الأوّل

العرب وبلادهم — الخلفاء الراشدون

شبه جزيرة العرب — شبـهُ جزيرة العرب بلادٌ واقعة في الجنوب الغربي من آسيا . يحدُّها من الشمال العراقُ ، وبريّة الشام وطورسينا ؛ ومن الغرب البحر الاحمر ؛ ومن الجنوب البحر الهندي ؛ ومن الشرق خليج عُمَان ، والخليج الفارسي . وعدد سكانها يتراوح بين عشرة ملايين واثني عشر مليوناً

وتُقسم هذهِ البلاد الى خمسة أقسام وهي : نجْد ومدينتها رياض ؛ واليمامة ومن مدنها اليمامة وهَجَر ؛ والحجاز وفيها مكّة وفي مكة بيت الله الحرام ، والمدينة دار هجرة النبي ، ومن مدنها ايضاً جدّة والطائف ؛ ثم تُهامة وقد اتصلت باليمن ؛ واخيراً اليمن وهو القسم الجنوبي من الجزيرة ومن مدنها صنعاء ومأرب وعدن والقَطيف

العرب — العرب ثلاث طبقات : الطبقـة الأولى البائدة أو العاربة . أتى منهم عاد الى اليمن من جنوب العراق عن طريق الأحساء وعمان وامتدّ الى تُهامة والحجاز . وجاء ثَمود وعَمليق عن طريق برية الشام الى الحِجْر ، فاستقرَّ ثمود هناك ، وانتشر عمليق في بلاد الشام ، وتجاوز الى بريّة طورسينا ، وثبت فرعهُ فيها الى ان كثر واشتدّ فغزا مصر

وكانت لهُ فيها دولة الرعاة . ولقد باد هؤلاء وأولئك واختلطت بقاياهم بالقحطاني فسمّوا لذلك بالعرب البائدة

والطبقة الثانيـة المتعربة وسمّوا بذلك لنزولهم بالبادية مع العرب العاربة وهم ابناء قحطان . ولقد أتوا في طريق عاد الى اليمن، وكانت لهم فيها دول أعظمها الحِمْيَرِيَّة التي امتدَّت في الجزيرة حتى الشام والعراق . وبعد سيل العَرِم (١) أتى بعضهم الشام وشيدوا فيها الدولة الغسّانية، واجتاز بعضهم الى العراق فكان منهم هناك المناذرة ملوك الحِيرة

والطبقة الثالثة العرب المستعربة وهم ابناء اسمعيل بن ابرهيم الأراميّ الساميّ من هاجَر المصرية . وكانت لغة اسمعيل العبرانيـة . ولما صرف ابرهيم اسمعيل عن وجهِ اسحق ابنهِ من سارة ذهبت بهِ أمهُ هاجر الى برية طورسينا وسكن اسمعيل في منازل عمليق ، وتعرَّب هنـاك ابناؤُه فسمّوا المستعربة . وكانت منهم قُرَيش ، وهي القبيلة التي جمعهـا زعيمها « قُصَيّ » من كل اوب الى البيت الحرام . ومنها النبي العربي محمد بن عبد الله بن عبد المطَّلِب بن هاشم بن عبـد مناف بن قصيّ . وقد نشأ يتيمًا فكفلهُ عمهُ أبو طالب . ولما كملت لهُ أربعون سنة أظهر الدعوة . وتوفي سنة ٦٣٢ وهي السنة العاشرة لهجرتهِ ، وكان عمرهُ ثلاثًا وستين سنـة ؛ ودُفن بالمدينة في حجرتهِ حيث قُبض . وكان العرب ، قبل دعوتهِ ، على عبادة الاوثان فدعاهم الى الاسلام والتوحيد ، وأتاهم بالقرآن الشريف

(١) وهو السيل الذي اجتاح سدّ مأرب . وكان هذا السدّ مبنيًّا بين جبلين لحقن المياهِ وريّ الأراضي

الخلفاء الراشدون

(٦٣٢ — ٦٦١ م.) = (١١ — ٤١ هـ)

أبو بكر الصديق (٦٣٢ — ٦٣٤ للميلاد) — بويع بالخلافة سنة ٦٣٢ . وفي عهدهِ فتح العرب الحيرة والشام والبصرة على يد القائدَين الكبيرين : خالد بن الوليد وأبي عُبيدة الجرّاح . ومات أبو بكر في الثالثة والستين من عمرهِ وكانت خلافتهُ نحواً من سنتين

عمر بن الخطاب (٦٣٤ — ٦٤٤) — قام بالخلافة بعد أبي بكر الصِدّيق ، وكان عادلاً بارًّا ، يضع الشدَّة في مواضعها ، واللين في مواضعهِ ؛ وهو أول من لُقّب بأمير المؤمنين ، وأول من وضع التاريخ الهجري في السنة السابعة عشرة للهجرة ، واستقضى القضاة ، واحترم حقوق الافراد . وفي أيامهِ أتمّ العرب فتح العراق وبلاد فارس والشام

وفي سنة ٦٣٩ أخذ عمرو بن العاص يحسّن الى عمَر فتح مصر ، ويزيّن لهُ ثروتها والفوائد التي تعود على المسلمين من امتلاكها ؛ فركن عمر لذلك وقال : « سرْ اليها يا عمرو ، وانا متخيّر اللهَ في مسيرك ؛ فسيأتي اليك في الطريق كتاب مني مسرعاً ان شاءَ اللهُ . فان أدركك وأمرتك فيهِ بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها ، او شيئاً من أرضها ، فانصرف ، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فامضِ لوجهك ،

واستعن بالله واستنصره » . ثم عقد له على أربعة آلاف رجل ، فساروا ، وعمرٌو في طليعتهم ، الى مصر . وادركهم كتاب عُمَر وهم برفح ، فظلّ عمرو يدافع الرسول حتى وصل الى قرية قرب العريش ، قيل له انها من مصر . فدعا بالكتاب وقرأهُ على المسلمين ، وأخبرهم بما كان من توصية عُمَر له . ثم تقدَّم ومن معهُ الى الفرما ، حيث قاتل الروم شهراً كاملاً أشد قتال وهزمهم . وتقدَّم الى مدينة بلبيس ، وأخذها بعد قتال شهر آخر ، ثم سار الى قرية أم دنين ، وحارب فيها الروم طويلاً . ولما أبطأ عليهِ الفتح استمدَّ عمر بن الخطَّاب فأمدَّهُ بأربعة آلاف رجل ، وصلوا اليهِ تباعاً ، وحاصروا معهُ الحصن الذي كان فيهِ الاعداء ، والمقوقس حاكم مصر من قِبَل الروم . وبعد حصار طويل ، سأل المقوقس عمرواً الصلح ، ثم اصطلحا على ان يدفع كل القبط ممن راهق سن الحلم ، ما عدا النساء والشيوخ ، دينارين في السنة عن كل فرد ، وان يكون للمسلمين على القبط حق الضيافة ثلاثة أيام أينما نزلوا بهم ، وان يكونوا لهم أعواناً على سائر المصريين . ولما علم الروم بما كان كتبوا الى المقوقس يقبّحون عمله ، ويأمرونهُ باستئناف الحرب حتى يموت أو يظهر على العرب ؛ فلم يكترث للأمر ، وظلّ والقبط محافظين على ما تعهدوا بهِ لعمرو

ثم سار عمرو ورجالهُ الى الاسكندرية وحاصر أهلها طويلاً . ولما ضعف الاسكندريون عن المقاومة ، سألوا المقوقس التوسط في الصلح عنهم. وبلغ ذلك هرقل فسخط أشدّ السخط ، وبعث بمراكب حربية من بلادهِ ، فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح ؛ فهزمهم عمرو في البرّ

والبحر . ومات هرقل قيصر في تلك الاثناء فخارت بموتهِ قوى الروم ، وهرب اكثرهم من وجهِ الفاتحين ، ودخل عمرو الاسكندرية منصوراً

ولما بلغ عمر بن الخطاب نصر ابن العاص ، أقامهُ والياً على مصر ، فانصرف عمرو على الأثر الى عقد شروط الصلح مع المصريين فارضاً عليهم ما فرض على القبط ما عدا الاسكندريين فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى عمرو ، بدون تحديد لأن الاسكندرية فُتحت عنوة بغير عقد ولا عهد . واشترط غير ذلك من الشروط الضامنة لراحة قومهِ . واعتنق كثير من المصريين دين الفاتحين

وبنى عمرو مدينة الفسطاط المعروفة الآن بمصر القديمة وجعلها قاعدة لهُ . وبنى جامعهُ المعروف باسمهِ الى يومنا ، وحفر خليجاً من الفسطاط الى البحر الأحمر سماهُ خليج أمير المؤمنين ، تسهيلاً لنقل الزاد والغنائم من مصر الى المدينة ومكة . ثم عكف على تنظيم شؤون البلاد ، فأقام المقوقس حاكماً على الاسكندرية ، وعبد اللهِ بن أبي سرح حاكماً على الوجهِ القبلي ، وحفر ترعاً للري ، وانشأ جسوراً لسد المياهِ ، وأصلح مقياس النيل ، واختطّ طرقاً وشاد مباني فخمة ، وأسس محاكم للقضاء بين الناس ، واكرم العلماء والكبراء من الوطنيين وقرَّبهم اليهِ ، وكافأ من القبط من أخلصوا لهُ ؛ فأحبهُ المصريون وأخلدوا في أيامهِ الى السكون والراحة ، واتسعت ثروة مصر ، وزاد ساكنوها حتى كادت المدن تضيق بأهليها . وكان عمرو يصرف من أصل الجزية كل ما يحتاج اليهِ في سبيل الاصلاح ، ويرسل ما يفيض عن حاجتهِ الى عمر بن الخطاب . وظل والياً على مصر

سبع سنوات كاملة ، فتح في اثنائها برقة وطرابلس والنوبة وفرض عليها الخراج

وفي سنة ٦٤٤ قتل أبو لؤلؤة المجوسي عمر بن الخطاب وهو في الثالثة والستين من عمرهِ فكانت خلافتهُ عشر سنوات ونصف سنة

عثمان بن عفان (٦٤٤ — ٦٥٦) — بويع بالخلافة بعد قتل عمر بن الخطَّاب . وكان غنياً بالمال ، جوَّاداً بهِ ، رؤوفاً بالرعية ، بعيداً عن الادّعاء وحبّ الظهور

وفي سنة ٦٤٥ عاد الروم الى الاسكندرية ، وكان عثمان قد فصل عمرو بن العاص عن إمارة مصر وخراجها ، وولى عبد اللهِ بن سعد بن أبي سرح بدلاً منهُ . فلما أتى الروم ، أعادهُ عثمان الى منصبهِ ليقاوم الأعداء ، لأنه كان خبيراً بفنون الحرب . فخرج عمرو الى الروم في البر والبحر ، وهزمهم شرَّ هزيمة ، وقتل قائدهم منويل ، وهدم أسوار الاسكندرية ، وبنى فيها مسجداً سماهُ « مسجد الرحمة » تذكاراً لما منَّ اللهُ عليهِ بهِ من النصر . وأراد عثمان أن يكافئهُ ، فعرض عليهِ يومئذٍ القيادة العامة للجيوش المصرية . ولكنَّ عمرواً رفضها قائلاً : « اكون اذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » إشارة الى أنهُ يتحمل مشقات القيادة ، بينما يتمتع عبد اللهِ بالولاية

وبعد انتهاء الحرب أعاد عثمان عبدَ اللهِ الى الولاية . وفي أيامهِ نقض النوبيون شروط الصلح التي وضعها عليهم عمرو عندما فتح بلادهم ، وكثرت غاراتهم على الصعيد ، فغزاهم عبدُ اللهِ مرة ثانية ،

وحصرهم في مدينة دنقلة ورمى أسوارهم بالمنجنيق ، ولم تكن هذهِ الآلة الحربية معروفة عندهم ، فأرعبهم فعلها وطلبوا من عبد اللهِ الصلح ، على أن يدفعوا له سنويا الجزية المفروضة عليهم ، وهي ثلاث مئة وستين عبداً لا عجوز فيهم ولا طفل ، وان يحترموا حدود مصر ، وان يحفظوا من ينزل بيلادهم أو يطرقها من مسلم أو معاهد حتى يخرجَ عنها ، وان يردُّوا الى أرض الاسلام كل من يلجأُ اليهم من عبيد المسلمين ، الى غير ذلك من الشروط الموافقة لمصلحتهِ . وظلت هذهِ المعاهدة التي عقدت في سنة ٦٥٢ ، مرعيةً بين مصر والنوبة حتى أيام المماليك . وكان النوبيون يهدون اليهِ فوق ذلك اربعين رأساً من الرقيق ، ويبعث اليهم بدلاً منها بهدايا من القمح والشعير والعدس والثياب والخيل . وطال العهد بهذهِ العادة حتى صارت رسماً يأخذهُ أهل النوبة كلَّ سنة عند دفع جزيتهم

وأمر عثمان عبدَ اللهِ بفتح بلاد المغرب ، ففتحها وطرد منها الرومانيين ولكنَّ أهلها عرضوا عليهِ مليونين وخمس مئة دينار مقابل جلائهِ عن بلادهم ، فرضيَ وقفل راجعاً الى مصر

وفي سنة ٦٥٥ نزل الروم بالاسكندرية في ألف مركب بقيادة قسطنطين بن هرقل فهزمهم جيش عبد اللهِ ، وسميت هذهِ الغزوة بغزوة السواري لكثرة سواري مراكبها واجتماعها في نقطة واحدة . وبعد هذا النصر عكف عبد اللهِ على اصلاح شؤون مصر الداخلية ولكنهُ اضطرَّ الى زيادة الضرائب على المصريين فرفعها من اثني عشر مليوناً الى أربعة عشر وذلك لتعويض ماحمَّلتهُ الحرب من النفقات . فثار المصريون ، وخلعوا

عبد اللهِ ، وأوفدوا الى الخليفـة يسألونهُ أن يولي عليهم من يختارون . فحدثت فتنة قتل فيها عثمان وأسرع عبد اللهِ الى المدينة ، تاركاً ولاية مصر في قبضة محمد بن ابي حذيفة

أما سبب مقتل عثمان فهو شقاق وقع بين اصفيائهِ وسائر رعاياهُ ؛ وقد حقد عليهِ هؤلاء لأنهُ كان يولي أقاربهُ الإيالات الكبيرة ويجزل لهم العطاء . وكانت خلافتهُ ١٢ سنة

علي بن ابي طالب[1] (٦٥٦ — ٦٦١) — لم يكد محمد بن أبي حذيفـة يستولي على مصر حتى قتلتهُ شيعة عثمان ، ثم بويع علي بن أبي طالب بالخلافة ؛ فنسب اليهِ معاوية بن أبي سفيان والي الشام مقتل عثمان ، وكان معاوية يسعى الى استمالة البلاد اليهِ لمبايعتهِ . فلما ولّى عليٌّ على مصر قيساً بن سعد عمل معاوية على اكتسابهِ الى حزبهِ بالقـاء النفور بينهُ وبين عليٍّ فلم يُفلح . ولكنهُ أشاع في الشام أن والي مصر على اتفاقٍ معهُ ، فبلغت الإشاعة علياً ، واعتقد بصحتها ، فعزل قيساً بن سعد وولى مكانهُ محمداً بن أبي بكر . وأخذ بعد ذلك حزب علي في الضعف ، وحزب معاوية في النمو ؛ ولم يلبث معاوية أن أرسل جيشاً بقيادة عمرو بن العاص الى مصر فاستولى عليها ، وهزم قوم علي بن أبي طالب ؛ وقد ساعدهُ عليهم عشرة آلاف رجل ممن أقسموا أن يثأروا لعثمان من خلفهِ . ولما علم معاوية بفوز عمرو قلدهُ امارة مصر ووهبهُ كل خراجها على أن ينفق منهُ ما يلزم لادارة الولاية . فظل عمرو حا كما

---

(١) هو ابن عم صاحب الشريعة الاسلامية وزوج ابنتهِ فاطمة

المطلق يديرها كيفما يشاء ويجني خراجها حتى موتهِ . وكانت مدة ولايتهِ في هذهِ المرَّة خمس سنوات لم يحدث فيها ما يستوجب الذكر سوى أنهُ غزا مرتين برابرة ليبيا . ومات عمرو وهو في التسعين من عمرهِ تاركاً لأولاده سبعين كيساً من الدنانير زنتها عشرة آلاف كيلو ذهباً وقد جمعها من خراج مصر ، ويقال انهم لم يستحلّوها فأرجعوها الى بيت مال المسلمين

وفي سنة ٦٦١ قتل عبد الرحمن بن ملجم علياً وهو خارج من بيتهِ الى المسجد فكانت خلافتهُ اربع سنوات وشهرين

الحسن بن علي بن ابي طالب (٦٦١) — بعد قتل علي حضر أصحابهُ الى الكوفة وبايعوا ابنهُ الحسن ، وبايع أهل الشام معاوية . ولما رأى الحسن ان نجاح المسلمين لا يتم الاَّ بجمع كلمتهم وتوحيد أحزابهم ونبذهم العداء والقتال، تنازل عن الخلافة لمعاوية بعد مبايعتهِ بخمسة أشهر

الفصل الثاني

الدولة الأموية

(٦٦١ — ٧٥٠) = (٤١ — ١٣٢)

معاوية بن أبي سفيان — (٦٦١ — ٦٨٠) وهو أول الخلفاء الأمويين . وقد انفرد بالخلافة واستتبَّ لهُ الأمر بعد تنازل الحسن لهُ . وكان معاوية عظيم الهيبة ، وافر الحشمة ، محسناً الى الرعية . وقد ابتكر في الدولة أشياء لم يُسبق اليها ، منها انهُ أقام الحرس والحجّاب ، ومشّى بين يديهِ صاحب الشرطة بالحراب ، ووضع البريد لنقل الاخبار بسرعة

وكان قبل مبايعتهِ بالخلافة قد عهد الى عمرو بن العاص بولاية مصر كما تقدَّم . فلما مات عمرو (٦٦٤) تولى مصر بعدهُ ابنهُ عبد اللهِ بن عمرو . ثم عزلهُ معاوية وولى مكانهُ أخاهُ عتبة بن أبي سفيان . وفي أيامهِ فتح عقبة بن نافع شمال افريقيا وأقيم عاملاً عليها . ومات عتبة سنة ٦٦٥ ، فاستدعى معاوية عقبة بن نافع من برقة ، وعهد اليهِ بأمر مصر ، وسيَّر اليهِ عشرة آلاف فارس ، فكثر جمعهُ واكثر من الغزو والنهب ؛ وبنى مدينة القيروان ، وأقام حولها حصوناً ومعاقل ، وأنزل فيها عدداً غفيراً من عساكرهِ لحين الحاجة ، فاتسعت في أيامهِ خطة المسلمين وتعزز

جانبهم ، واعتنق الاسلامَ كثيرون من البربر

وكان عقبة شاعراً ، فقيهاً عالماً ؛ لكنهُ لم يحسن السياسة والتدبير ، فولى معاوية بدلاً منهُ مسلمة بن مخلد الانصاري ، ثم أمر عقبة ان يسير الى رودس ، وقد كتم عنهُ خبر عزلهِ لهُ ، فتوجه عقبة الى تلك الجزيرة واستولى مسلمة في غيابهِ على امارة مصر ، ولما بلغ ذلك عقبة قال « أخلعاً وغربة »

ثم شرع مسلمة بجمع الخراج لمعاوية ، والغزو في البرّ والبحر . وفي أيامهِ خرج الروم على البرلُّس وقتلوا عدداً من المسلمين وكان مسلمة حكيماً عادلاً ، فأحسن التدبير ، وبثَّ الأمن في كل انحاء مصر ؛ وهو أول من بنى المنارات للمساجد

وفي سنة ٦٦٨ غزا معاوية الروم بألف وسبع مئة سفينة ، وأخذ منهم بعض جزائر اليونان ومضيق الدردنيل ، ولكنهُ لم يتمكن من فتح القسطنطينية برغم حصارهِ لها برًّا وبحراً سنتين كاملتين

ومات معاوية سنة ٦٨٠ فكانت خلافتهُ نحواً من عشرين سنة

يزيد بن معاوية (٦٨٠ — ٦٨٣) — بويع يزيد بالخلافة سنة ٦٨٠ وأقرَّ مسلمة على مصر ، فظلَّت آمنة ساكنة حتى وفاتهِ سنة ٦٨٢ . وكانت ولايتهُ على مصر نحواً من خمس عشرة سنة . ثم عهد يزيد بعدهُ بأمرها الى سعيد بن يزيد الأزدي ، على غير رضى من المصريين ؛ فأعرض هؤلاء عنهُ وظلوا على مقاومتهِ حتى آخر أيامهِ ؛ ولكنهُ كان حازماً

عادلاً ، فلم يثنه بغضهم لهُ عن اتّباع العدل ، والمحافظة على حقوق رعاياهُ واحترام قوانينهم

وكان يزيد غير أهلٍ للخلافة ، فنازعهُ اياها كثيرون ، وبايع أهل المدينة ومكة عبدَالله بن الزُبير . وأراد أهل العراق مبايعة الحسين بن علي ، فقام الشقاق والاضطراب بين المسلمين حتى توفي يزيد سنة ٦٨٣ وكانت خلافتهُ ثلاث سنوات وتسعة أشهر

معاوية الثاني بن يزيد (٦٨٣) — بويع بالخلافة بعد موت أبيهِ وهو في العشرين من عمرهِ ؛ وكان أنصارهُ قليلين والمسلمون في اضطراب شديد ، فتنازل عنها لعبدالله بن الزبير ، ومات بدون عقب لخمسة واربعين يوماً من مبايعتهِ

عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم (٦٨٣) — وبعد موت يزيد ، بايع أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان عبدَالله بن الزُّبير . وكان ذكيّ الفؤاد شجاعاً عادلاً . وهو ممن حضروا فتح عمرو بن العاص لمصر ، ووقَّعوا شروط الصلح التي اشترُطت على الأقباط ، وأعانوا عبداللهِ ابن سعد على فتح سواحل الغرب في خلافة عثمان بن عفان

وظلّ سعيد الأزدي أمير مصر متشيعاً للامويين ، وأبى مبايعة عبد الله . وحذا حذوهُ فريق كبير من المصريين ، فأنفذ عبدُ اللهِ بن الزُّبير عبدَ الرحمن بن عتبة بن جحدم سنة ٦٨٤ وعهد اليهِ بأمر مصر . فسار اليها عبد الرحمن في جمع كثير ، وأخرج من كان فيها من دعاة الامويين ، وفيهم سعيد الأزدي . ثم بايعهُ الناس على غلّ في قلوب بعضهم

وكان مروان بن الحكم قد بويع بالخلافة في أهل الشام فسار اليها وبعث ابنهُ عبد العزيز في جيش الى مصر . وهبَّ عبدالله لاخضاع مروان في دمشق ؛ فهزمهُ مروان . ثم حمل بكل عساكرهِ على مصر ، وفتحها ، وهزم جيوش عبد الرحمن بن عتبة ، وعزلهُ ووضع يدهُ على جميع خزائن مصر ، وقتل ثمانين رجلاً تشيَّعوا لعبدالله بن الزُّبير ، وجعل صلات مصر وخراجها الى ابنهِ عبد العزيز ، وعهد اليهِ بأمرها . ثم سار[1] عنها والحرب لا تزال سجالاً بين دعاتهِ ودعاة خصمهِ . وفي سنة ٦٨٥ مات مروان فكانت خلافتهُ سنتين فقط

عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥) — بويع بالخلافة بعد ابيهِ ، فأقرَّ أخاهُ عبد العزيز على مصر . ثم فتح العراق والبصرة والجزيرة ، وحاصر عبدالله بن الزّبير في مكة سبعة اشهر . ثم ظفر بهِ وقتلهُ واستقلَّ بالخلافة

وفي أيامهِ بنى أخوهُ عبد العزيز أمير مصر ، قنطرة الخليج الكبير

---

(١) لما همَّ مروان بالرحيل قال لهُ ابنهُ : « يا أمير المؤمنين كيف المقام في بلدة ليس بها أحد من بني أبي ؟ قال لهُ مروان : يا بنيَّ عمّهم باحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصفُ لك مودتهم ، واوقع الى كل رئيس منهم انهُ خاصتك دون غيرهِ يكن لك عيناً على غيرهِ . وينقد قومهُ اليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بنيَّ ان تكون أميراً بأقصى الأرض ؛ أليس ذلك أحسن من اغلاق بابك ، وخمولك في منزلك ؟ » ثم زوَّدهُ بعض النصائح ، وأوصاهُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ ، والتأني في العمل ، واستشارة من هم حولهُ ، وودَّعهُ وانصرف

في الفسطاط ، وهدم جامع الفسطاط كلهُ ، وبنى مقياساً للنيل في حلوان . ثم تفشى الطاعون في مصر ، فخرج عبد العزيز منها الى حلوان ، واتخذها داراً لهُ ، وجعل بها الاعوان ، وبنى بها الدور والمساجد ، وعمَّرها أحسن عمارة ، وغرس نخلها وكرمها . وكان الكهنة والاقباط عموماً معفيين من الضرائب والعوائد ففرض سنوياً على الواحد منهم ديناراً ، وعلى البطاركة ثلاثة آلاف دينار . وفتح شمال افريقيا للمرة الثالثة ، وفرض عليها الجزية

وفي سنة ٧٠٥ مات عبد العزيز بن مروان فكانت ولايتهُ على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر ، أثبت في خلالها انهُ لم ينسَ شيئاً من نصائح أبيهِ

وعهد عبد الملك بن مروان ، بعد وفاة أخيهِ ، بأمر مصر الى ابنهِ عبد اللهِ . وولاهُ على صلاتها وخراجها ، وسألهُ أن يقتدي بعمهِ ، ويقتفي آثارهُ . ومات عبد الملك في السنة نفسها . فكانت خلافتهُ عشرين سنة

الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ٧١٥) — توفي عبد الملك بن مروان فبويع ابنهُ الوليد بن عبد الملك الملقب بأبي العباس . فأمَّر أخاهُ عبد اللهِ على مصر ، وأمرهُ بنسخ دواوين مصر بالعربية ، وكانت لا تزال بالقبطية ، فلبى الأمر . وحدث في أيامـهِ نقصان في محصولات مصر فتصاعدت أثمان الحبوب وغيرهـا فتشاءم المصريون منهُ ، لا سيما وانهُ كان يرتشي كثيراً . وكان أخوهُ على بيّنة من أمرهِ . فصرفهُ عن امارة مصر ، وولى بعدهُ قرّة بن شريك من أهل قنّسرين ، فأحيا بعـدهُ بركة الحبش ، وغرس فيها القصب وسمَّاها باصطبل قرّة ، وأمرهُ الوليد بهدم ما بنـاهُ

عبد العزيز في المسجد ففعل . ثم أوعز اليهِ باعادة بناء جامع عمرو ، فبناهُ . وكثيراً ما شكا القبط من جورهِ ونسبوا اليهِ الاستخفاف بدياناتهم لأنهُ كان يدخل ورجالهُ كنائسهم ، ويقطع عليهم صلواتهم . ومات قرَّة لستّ سنين من ولايتهِ . فعهد الوليد بعدهُ بأمر مصر الى عبد الملك بن رفاعة الفهمي

وكان الوليد من أعظم خلفاء بني أمية وأشهرهم . ففتح أواسط أفريقيا ، ونشر فيها الاسلام ، وفتح الأندلس ، وسمرقند ، وطوانة من بلاد الروم ، وحارب تركستان ، والفرس ، والهند ، والقسطنطينية ، حروباً كثيرة عاد منها ظافراً . وكان مولعاً بالمباني الفخمة ، فجدد بناء الحرم المدني ، ووسَّعهُ وبنى الجامع الأموي في دمشق ، وكثيراً غيرهُ من المساجد والقصور . ومات سنة ٧١٥ فكانت خلافتهُ تسع سنين ونصف سنة

سليمان بن عبد الملك (٧١٥ — ٧١٧) — وبعد وفاة الوليد بن عبد الملك بويع بالخلافة اخوهُ سليمان بن عبد الملك الملقب بأبي أيوب ؛ ففتح طبرستان ، وجورجيا في أول سنة من خلافتهِ

وكان والي مصر عبد الملك بن رفاعة فأقرَّهُ عليها . ولكنهُ جعل على خراجها رجلاً يدعى أُسامة بن يزيد ، ولقبّهُ بعامل الخراج . وكان اسامة ظالماً عتياً ، ففرض على المصريين ضرائب فادحة ، منها عشرة دنانير على كل مارٍّ في النيل ، صاعداً أو نازلاً . وكان شديد الاهتمام بزيادة محصولات مصر ، وملاحظة خدمة أراضيها الزراعية ، وتفقدّ ريّها . وفي أيامهِ أغفل

مقياس النيل بحلوان ، وبنى مقياساً آخر في الروضة بين الفسطاط والجيزة
وبينما المصريون في قنوط ثائرون على اسامة يطلبون خلعهُ مات الخليفة ، فسكن جأشهم على أمل أن ينالوا ما يريدون من خلفهِ . وكانت خلافة سليمان نحواً من سنتين وثمانية أشهر

عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠) — مات سليمان بن عبد الملك ولم يكن مِن وُلدِهِ واخوتهِ مَن يصلح للخلافة ، فبويع بعدهُ ابنُ عمهِ ، عُمَرُ بن عبد العزيز الملقب بأبي حفص . وكان عادلاً رؤوفاً برعاياهُ على اختلاف مللهم . ورفع اليـهِ المصريون شكواهم من اسامة ، فعزلهُ وولّى عليهم أيوب بن شرحبيل . وكان هذا وَرِعاً نزيهاً عادلاً ، وقد بلغ من عدلهِ انهُ لما أقفـل الحانات في جميع البلاد قسمَ للغارمين بخمسة وعشرين ألف دينار تعويضاً لهم . وساس مصر بحكمة وانصاف بين أهلها حتى نسي المصريون ما كان من استبداد اسامة وجورهِ . ثم بعث اليهِ الخليفة بالقبض على اسامة وارسالهِ الى دمشق مكبلاً بالحديد ، مسمرة يداهُ ورجلاهُ بأطواقٍ من خشب . ففعل ولكنَّ اسامة مات في الطريق
وبلغ عمر بن عبد العزيز ان حيّان بن شريح يطالب المسلمين بالجزية ، فعظم عليهِ ذلك ، وكتب اليهِ ان يرفعها عمن أسلم . فأحبهُ المسلمون حباً خالصاً

ومات مسموماً في حمص سنـة ٧٢٠ ، لسنتين وخمسة أشهر من خلافتهِ وهو في السابعة والثلاثين من عمرهِ ، فرجعت بعدهُ الخلافة الى سلالة ابن عبد الملك

يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ — ٧٢٤) — بويع يزيد بالخلافة بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وأقرَّ أيوب بن شرحبيل على مصر الى ان مات . ثم ولَّى بعدهُ بشر بن صفوان الكلبي ؛ وفي ايامهِ خرج الروم على تنيس . وبعد يسير ولاَّهُ على أفريقيا وعهد بأمر مصر الى حنظلة بن صفوان أخي بشر ، وأمرهُ بتحطيم ما بقي من التماثيل والاصنام في مصر ؛ فأتلف معظمها . وثار القبط في الحوف ، بين بلبيس ودمياط ، يطالبون بما حُرموهُ من الحرية الدينية فأُخضعوا عاجلاً

وكان يزيد بن عبد الملك سيء السياسة والتدبير ، وقليل الاكتراث بواجبات الخلافة . فلم يذق المصريون وسائر رعاياهُ في مدة خلافتهِ سلاماً . ومات وخلفهُ اخوهُ هشام بن عبد الملك

هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣) — بويع بالخلافة سنة ٧٢٤ ، فصرف حنظلة عن مصر ، وولى عليها بدلاً منهُ أخاهُ محمداً بن عبد الملك بن مروان ، وعهد اليهِ بأمر صلاتها وخراجها . ولم يَكد يدخلها حتى وقع فيها وباء شديد ، فنزع الى الصعيد هارباً ، ثم انصرف الى الاردن ، فعزلهُ هشام عنها ، وولى عليها الحرّ بن يوسف . وفي أيامهِ انتقض القبط لشدّة الضرائب ، فسأل الحرُّ بن يوسف الخليفة إعفاءهُ من الامارة فأعفاهُ ، وولى حفص بن الوليد أسبوعين ، ثم ولى بعدهُ عبد الملك بن رفاعة الذي كان والياً على مصر في زمن الوليد بن عبد الملك . ومات رفاعة في السنة التي أُعيد في خلالها الى مصر نخلفهُ ، بأمر الخليفة ، أخوهُ الوليد بن رفاعة . وكان عادلاً بعيداً عن التعصب ، فأذن للنصارى في ابتناء كنيسة . وفي

أيامهِ قدمت قبيلة قيس الى مصر . ولما مات خلفهُ عبد الرحمن بن خالد وفي امرتهِ نزل الروم على مصر فهزمهم . ثم أقام هشام بعدهُ حنظلة بن صفوان فجار وظلم ، رغم توصية الخليفة لهُ بأن يعامل المصريين بالرفق والعدل ، وشدَّد الضرائب وفرض غيرها على الحيوانات ايضاً ؛ فانتقض القبط ؛ فحاربهم ثم رفع المصريون عامة شكواهم منهُ الى الخليفة فعزلهُ وولى مكانهُ حفصاً بن الوليد الحضرمي ، وكان قد تولى مصر قبلاً

ومات هشام بن عبد الملك سنة ٧٤٣ بعد أن غزا الترك ، وهزم الروم في عدة مواقع . وكانت خلافتهُ نحواً من ١٩ سنة ونصف سنة

الوليد بن يزيد (٧٤٣ — ٧٤٤) — بويع بالخلافة بعد موت هشام فصرف حفصاً عن خراج مصر مع ما عرف بهِ من العدل والاستقامة والنزاهة ، وعهد بالولاية الى عيسى بن أبي عطاء . ولم يكن هذا على شيء من حسن التدبير والانصاف ، فأساء المصريين ، وأثارهم عليهِ . وثار أهل الشام وسائر المسلمين على الخليفة لأنهُ كان أسوأ سياسةً من عاملهِ ، وقتلوهُ بعد مبايعتهِ بسنة وثلاثة أشهر تقريباً

يزيد الثالث بن الوليد (٧٤٤) — بويع بالخلافة وكان المسلمون يومئذٍ في هياج عظيم: بعضهم يطالب بدم الوليد ، وبعضهم يريد الخلافة لسليمان بن هشام . وفيما هم على وشك الثورة ، والمملكة الاسلامية يتهددها السقوط ، أُصيب يزيدُ بالطاعون ، ومات لخمسة أشهر وبضعة أيام من مبايعتهِ

ابراهيم بن الوليد (٧٤٤) — بويع ابراهيم بالخلافة يوم وفاة أخيهِ يزيد . وكان ليزيد ولدان كلاهما أحقّ بالخلافة منهُ ، فسجنهما حيناً ثم قطع عنقيهما حسماً للنزاع . وكان مروان بن محمد يريد الخلافة لنفسهِ ايضاً فحارب جيوش ابراهيم في حمص وهزمها . ثم فتح دمشق فبايعهُ الجميع بما فيهم ابراهيم بن الوليد . وكانت خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً

مروان الثاني بن محمد (٧٤٤ — ٧٥٠) — لما بويع بالخلافة كتب حفص يستعفيهِ من ولاية مصر ، فأعفاهُ ، وولى بعدهُ حسّاناً بن عتاهية التجيبي . ولما دخل حسان مصر أسقط كل فروض حفص ، فثار عليهِ المصريون طالبين حفصاً وركبوا الى المسجد ، ودعوا الى خلع مروان ، وحصروا حسّاناً في دارهِ ، ثم أخرجوهُ عن بلدهم ، وأخرجوا ايضاً عيسى ابن أبي عطاء عامل الخراج . فكانت ولاية حسان ستة عشر يوماً . وولّوا حفصاً للمرة الثالثة كرهاً . وعاد في تلك الاثناء حنظلةُ بن صفوان من افريقيا ، ونزل الجيزة . فكتب مروان بتوليتهِ على مصر . فشقّ ذلك على المصريين ومنعوهُ المقامَ في الفسطاط . وفي سنة ٧٤٥ ولى مروان الحوثرة بن سهيل ، فقدم الى مصر ومعهُ عيسى بن أبي عطاء على الخراج ، وضرب أعناق كل رؤساءِ الفتنة وقتل حفصاً بن الوليد ، واستوى على كرسيّ الامارة . وكانت ولايتهُ ثلاث سنين ونصف سنة . ثم ولى مروان المغيرة بن عبيد الفزاري ، ومات لعشرة أشهر من ولايتهِ . فخلفهُ عبد الملك ابن مروان ، وجعلهُ الخليفة والياً على الصلات والخراج ، وثار في أيامهِ القبط فحاربهم وقتل منهم كثيرين . وأمر باتخاذ المنابر في الكوَر ، ولم

تكن قبله ُ . وهو آخر من تولى مصر من قِبَل الامويين . ولما هزم بنو العباس الخليفة مروان فرَّ هذا الى مصر ، فأرسل عمُّ أبي العباس أخاهُ صالحاً بن علي ليقتفي أثره ُ ويقبض عليهِ . فتبعهُ صالح في جيش كبير وادركهُ في الجيزة ، وقتلهُ سنة ٧٥٠ م فكانت خلافتهُ خمس سنوات وهو آخر الخلفاء الامويين

الفصل الثالث

الدولة العباسية

(٧٥٠ — ٨٧٠ م) = (١٣٢ — ٢٥٧ هـ)

كانت الكيسانية فرقةً من الشيعة تنتسب الى زعيمها كيسان ؛ وهي تقول بإمامةِ محمد بن علي بن عبدِ اللهِ بن عباس عمّ النبي . وقد بايع الكيسانية محمداً سرًّا ، ثم أخذ دُعاتهُ يتكاثرون وينتشرون في البلاد . ولما توفي محمد بن عليٍّ ، عهد بالإمامة بعدهُ لابنهِ ابراهيم . فقبض عليهِ مروان ، آخر الخلفاء الامويين ، وسجنهُ في خُراسان ، فهلك هنالك . وكان قد أوصى قبل مماتهِ بالإمامة لأخيهِ أبي العباس « السفّاح » . فكان هذا مؤسس الدولة العباسية

السفاح (٧٥٠ – ٧٥٤) — بويع السفّاح في الكوفة ، وبعث البعوث لقتال مروان ، فالتقت جيوشهما عند « الزاب » ؛ فأمر مروان القبائل بأن تحمل على عدوهِ ، فتخاذلت ؛ فأباح الأموال للناس على أن يقاتلوا ، فأخذوها بغير قتال ، وتفرّقوا عنهُ . ففرّ مروان لا يلوي على شيءٍ من بلدٍ الى آخر حتى العريش ، وصالحُ بن علي ، عم السفّاح ، مجدٌّ في طلبهِ . فأجفل مروان الى النيل ثمَّ الى الصعيد . اما صالح فنزل

الفسطاط وحارب فيها مَن لقي من رجال مروان ، وأسر منهم كثيرين ، ثم أدرك مروان في الجيزة وقتلهُ ، وبعث برأسهِ الى أمير المؤمنين . وتتبع هذا بني أُمية بالقتل ، فلم يُفلِتْ منهم إلاَّ الرضعاءَ أو من هرب الى الاندلس ، وهذا ما دعا الناس الى تسميتهِ بالسفَّاح

وولى السفاحُ على مصر عمَّهُ صالحاً بن عليٍّ ، فبعث هـذا اليهِ ببيعةِ أهلها ، وأسر وقتل كثيرين من أنصار بني أُمية في مصر ، وقسم الصدقات على اليتامى والمساكين ، وبنى عاصمةً جديدة في « الحمراء القصوى » وجعلها قاعدةً لولايتهِ . ثم ورد عليهِ كتابٌ من السفاح بتوجيهِ ولاية فلسطين الى عهدتهِ ، وترك لهُ أن يُعيّن من يريد خلفاً لهُ في مصر . فاستخلف صالح أبا عون عبد الملك صاحب شرطتهِ (٧٥١) وسار الى فلسطين . ثمَّ كان وباءٌ في مصر ، ففرَّ أبو عون الى يشكر ، تاركاً ادارة مصر الى عكرمة بن عبد الله . فلما اتصل خبرُ هربهِ بالسفاح ، رأى ان يجمع فلسطين ومصر والمغرب في ولايةٍ واحدة ، وأقام عليها عمَّهُ صالحاً ، وفوَّض اليهِ أمرَ الخراج . فعاد صالح الى مصر وعقد سنة ٧٥٤ لأبي عون على جيش سيَّرهُ بهِ الى بلاد المغرب لإخضاع البرابرة . فسار أبو عون ، وحاصرهم في برقة . على أنهُ لم يلبث ان اضطُّر الى العودة الى مصر بسبب تفاقم الخلاف بين المذاهب الدينية ، واشتداد العداء بين دُعاة الدولة الجديدة ، وأنصار سلالة علي بن أبي طالب وغيرهم من الخوارج (١)

---

(١) كانوا في القديم قبل الاسلام يسمّون « خارجيًّا » من خرج شجاعاً أو

وتوفي السفاح سنة ٧٥٤ م فكانت مدة خلافتهِ أربع سنوات

ابو جعفر المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥) — مات السفَّاح ، وأخوهُ أبو جعفر في مكة ؛ فبايعهُ الناس فيها وفي العراق ؛ وقام المنصور الى الأنبار فسلّم اليهِ كبراؤُها الأموال والأحكام

وأقرّ المنصور صالحاً على مصر. واشتدّ الخلاف بين الأحزاب والمذاهب كما تقدَّم ، فكتب الى أبي عون بالرجوع من برقة . فعاد أبو عون وتغلّب على العصاة ، وقطع رؤوس ثلاثة آلاف رجل منهم . ثم أرسل المنصور صالحاً الى فلسطين وعهد الى أبي عون بولاية مصر . ثمَّ عزلهُ وولى غيرهُ . وما زال يولي ويعزل الواحد تلوَ الآخر حتى آخر أيامهِ [1]

وفي سنة ٧٥٩ انضمَّ دعاة الأمويين والعلويين الى برابرة المغرب ، وثاروا على المنصور ، وهزموا الجيوش المصرية في برقة ؛ وكان والي مصر يومئذٍ محمد بن الأشعث الخزاعي ، فخلعهُ المنصور واستخلف حميداً بن قحطبة ، فخرج هذا عليهم بعشرين ألف رجل وهزمهم وقتل زعيمهم . ثم ثار في مصر جمع من العلويين يريدون مبايعة علي بن محمد بن عبدالله العلوي

كريماً وهو ابن جبانٍ او بخيل او نحو ذلك . ثمَّ صاروا في الاسلام يجعلون الخارجيَّ من خالف السلطان والجماعة ومن كان معتقداً بمذهب الخوارج وهم سبعُ فرقٍ من كبار الفرق الاسلامية

(١) في خلال ٨٩ سنة من خلافة الأمويين تولى امارة مصر ٣١ والياً وفي ١٢٠ سنة من خلافة العباسيين تولاها ٦٧ والياً

فهزمهم المنصور ، وكسر شوكتهم بعد قتال عنيف ، وكان يبعث برؤوس قتلاهم الى جامع الفسطاط ليراها العلويون فيتعظون

وفي سنة ٧٦٤ اضطر والي مصر ، وهو يومئذٍ يزيد بن حاتم ، الى منع المصريين من الحج لما كان في الحجاز من الاضطراب . وفي السنة التالية غزا الحبشة من أجل خارجيّ ظهر فيها فظفر بهِ وبدعاتهِ ، فكافأهُ المنصور بأن ضمّ برقة الى ولايةِ مصر

وكان القبط كثيراً ما يثورون على من يُرسَل اليهم لجباية الخراج . ففي سنة ٧٦٧ جمعوا جموعهم في سخا ، وطردوا الجابين. فوجّهَ اليهم يزيد جيشاً ، فكسروهُ مرتين متواليتين . فغضب المنصور وضيّق عليهم ، وأثقل عاتقهم بالضرائب ، فأخلدوا الى السكينة . على أن فريقاً منهم ظلّ يجاهر بالعصيان من حينٍ الى آخر ، حتى أيام الوالي موسى بن علي

وكان المنصور وقوراً ، ذكيّ الفؤاد ، حسن الأخلاق والتدبير . وهو الذي اختط مدينة بغداد[١] وجعلها كرسي الخلافة العباسية . وهو أوَّل خليفة أمر كتَّاب العرب بنقل الكتب الأجنبية الى العربية ككتاب « كليلة ودمنة » لابن المقفّع ، ورسائل ارسطوطاليس في المنطق وغيرهِ ، وأصول اقليدس في الفنون الرياضية

وتوفي المنصور سنة ٧٧٥ فكانت خلافتهُ نحواً من ٢٢ سنة

---

(١) قال الخطيب البغدادي في تاريخهِ ، ان عدد حمامات بغداد بلغ ٦٥ ألف حمام، وانها كانت تضم مدناً وأمصاراً متلاصقة تتجاوز الأربعين. ويقال ان المنصور أنفق عليها أربعة آلاف ألف وثمانمئة وثلاثين ألف درهم

المهدي بن المنصور (٧٧٥ – ٧٨٥) — بويع بالخلافة بعد وفاة أبيهِ ، ووُلي إمارة مصر في خلافتهِ تسعة ولاة ، منهم أبو صالح يحيي التركي (٧٧٩) وكان من أشدّ الناس وأعظمهم هيبةً ، وأقدمهم على اهراق الدماء . فمنع إقفال الدروب في الليل وغلق الحوانيت ، ومنع حراسة الحمامات ، آخذاً على عاتقهِ تعويض الضائع ، وردّ المسروق ؛ فكان الرجل يدخل الحمَّام ، ويضع ثيابهُ ويقول « يا أبا صالح احرسها » فعمَّ الأمن مصر من أقصاها الى أقصاها ، وساد السلام عليها

ومن هؤلاء الولاة ابرهيم بن صالح العباسيّ (٧٨١) وفي أيامهِ خرج دحية بن المعصب الاموي في الصعيد عن الطاعة ، وادّعى الخلافة لنفسهِ ، ودعا الناس لمبايعتهِ ، فتراخى عنهُ ابرهيم حتى انقاد لدعوتهِ عامة أهل الصعيد . فسخط المهدي لذلك ، وعزل ابرهيم وولى موسى بن مصعب ؛ وكان هذا ظالماً غاشماً ، فشدّد على الاهلين في جباية الخراج ، وضاعف الضريبة على الاراضي الزراعية ، وارتشى في الاحكام ، ووضع الرسوم على الاسواق وعلى الدواب ، فكرههُ الجند ونبذوا طاعتهُ . وثار عليهِ عدد كبير من رعاياهُ ، فبعث بجيش الى الصعيد لقتال دحية الاموي ، وخرج هو بجيشٍ آخر على الثائرين ، فانهزم وقُتل ، وظلّ الصعيد في يد دحية . ثم خلف موسى بن مصعب أُسامة بن عمرو ، وحارب دحية وقُتل كسلفهِ ، ثم خلف أسامة الفضلُ بن صالح ولكنهُ لم يأت عملاً يذكر حتى خلافة الهادي

وقد سيَّر المهديُّ ابنهُ الرشيد لغزوِ الروم ، فسار حتى بلغ خليج

القسطنطينية . وكان ملكها لاون قد توفي وولدهُ طفل . فسألت الملكة إيريني العرب الصلح على ان تدفع ٧٠,٠٠٠ ألف دينار جزية سنوية

الهادي بن المهدي (٧٨٥ — ٧٨٦) — وخلف المهدي ابنهُ موسى الهادي ، فأقرّ على مصر واليها الفضل بن صالح . وكان المصريون قد فاوضوا دحية على أن يتفقوا معهُ ، فخرج عليهِ الفضل وهزمهُ ، وأسرهُ وساقهُ الى الفسطاط ، حيث ضرب عنقهُ . وأُعجب الفضل بهذا الانتصار ، وتعالى وتكبر ، وبات يعتقد انهُ ركن الدولة الركين ، فخاف الهادي عقبى صلفهِ وكبريائهِ وعزلهُ ليأمن مطامعهُ

هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩) — بويع بالخلافة بعد وفاة أخيهِ الهادي واقام فيها ٢٣ سنة ولي خلالها على مصر ٢١ والياً ، اولهم علي بن سليمان ؛ وكان هذا تقياً ورِعاً يغار على حرمة الدين ، فنهى عن المنكر والملاهي والخمور ، واكثر من التصدُّق على الفقراء ، ولكنهُ أساء معاملة القبط وهدم الكنائس المحدثة في مصر ، وقد بُذل لهُ في تركها خمسون ألف دينار فامتنع . ونُقل الى الرشيد ان واليهُ طامع في الخلافة ، فعزلهُ واستخلفهُ موسى بن عيسى ، فأذن هذا للنصارى في بنيان الكنائس التي كان قد هدمها سلفهُ

ومن ولاة مصر في عهد الرشيد ابو حفص عمر . وكان لا يقبل من الهدايا إلاّ ما يدخل في بيت المال ، فيبعث الناس بهداياهم ، ويدفعون من الخراج القسط الأول والثاني ، ثم يشكون الضيق والعسر في الثالث ، فيأتي ابو حفص بالهدايا ويحسبها لأربابها ، ويستوفي منها خراج مصر

ومنهم اسحاق بن سليمان ؛ وفي أيامهِ ثار عليهِ في مصر قوم من قيس وقضاعة ، وقاتلوهُ ؛ فأمدَّهُ الخليفة بجيشٍ تحت إمرة هرثمة بن أعين ، وكان في فلسطين ، فسار اليهم وأخضعهم وألزمهم بدفع الخراج

وفي سنة ٧٩٨ قدم الى مصر ١٥,٠٠٠ عربي من الاندلس بنسائهم وأولادهم . وكان قد نفاهم من اسبانيا الامير الاموي « الحكَم » لأنهم ثاروا عليهِ وكادوا يخلعونهُ ، فأذن لهم والي مصر في التوطُّن فيها ، فأقاموا في ثغور البلاد يتعاطون التجارة

وكان عرب الحوف في خلافة الرشيد في عصيانٍ دائم ، وتمرُّد مستمر ، يأبون دفع الخراج ، ويثورون على الجند والولاة ، وفي سنة ٨٠٦ ثاروا ثورة كبرى ، وخرجوا على والي مصر ، وهو يومئذ الحسين بن جميل ، وطردوا جامعي الخراج من اراضيهم ، وقطعوا الطريق ، وأغاروا على بعض قرى الشام ناهبين قاتلين ؛ فبعث الحسين بن جميل بجيشٍ لاخضاعهم ، وبعث الرشيد بآخر ، والتقى الجيشان وأنزلا بالعصاة بلاءً عظيماً ، فسلم أهل الحوف بدفع الخراج حتى موت الرشيد

وفي أيامهِ اراد نيقيفور ، ملك الروم بعد الملكة اريني ، ان يمتنع عن دفع الجزية ؛ فغزا الرشيد بلادهُ واضطرهُ الى دفعها

وكان الرشيد محباً للعلم والعلماء ، باسلاً حكيماً كريماً باسط اليد ؛ ولعلهُ أعظم الخلفاء العباسيين . فقد رفع شأن بلادهِ ، وأعلى قدرها ، ونشر فيها العلوم ، وأمر بترجمة كتبٍ كثيرة من اليونانية الى العربية ، ووسع دائرة التجارة ، وأحسن الى الفقراء وكفى المعوزين

وكانت بينهُ وبين شارلمان صداقة ومكاتبة . وكثيراً ما كانا يتبادلان الهدايا الفاخرة الثمينة . وتوفي الرشيد في طوس (٨٠٩)

الامين بن الرشيد (٨٠٩ — ٨١٣) انتهى الأمر اليـهِ بعد ابيهِ ، وكانت الخلافة بعـده لأخيهِ المأمون ، فعمل على خلعهِ والبيعة لابنهِ موسى . وكان المأمون في خراسان ، فأرسل الى مصر والياً من قبلهِ اضطرّ ، بطبيعة الحـال ، الى مقاتلة والي الأمين ، فهزمهُ هذا وقتلهُ . وكان المصريون فريقين احدهما يعضد المأمون ، والآخر يعضد اخاهُ . فاشتدّ الاضطراب ، وقاتل القوم بعضهم بعضاً . وجهز المأمون لقتال أخيهِ طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين فسارا اليهِ وحاصراه في بغداد . وتمكن طاهرٌ منهُ فاجتزّ رأسهُ وأرسلهُ الى المأمون وصحبتهُ خاتم الخلافة

عبد الله المأمون بن الرشيد (٨١٣ — ٨٣٣) — بويع البيعـة العامة في بغداد بعد قتل اخيهِ ، وغزا الروم وفتح كثيراً من المدن الشرقية التابعة لهم . وقد ولى مصر ١٧ والياً . وفي أيامهِ ثار الاندلسيون الذين كانوا يقطنون شواطئ مصر ومعهم جماعة من الحوفيين ، فاستولوا على الاسكندرية ، وظلوا يقاتلون وينهبون سنواتٍ طويلة والولاة لا يقوون على اخضاعهم . وفي سنة ٨٢٦ انفذ المأمون عبد الله بن طاهر والياً على مصر ، وكان عليها عبيدُ الله بن السري ، فخرج بن طاهر عليهِ ونازلهُ وهزمهُ . ولما عجز ابن السري عن الاحتفاظ بمنصبه بالقوة ، عمد الى ابتياعهِ بالمال فأرسل الى طاهر في حالك الليل ألفاً من الموالي والجواري حاملين اليهِ ألف كيسٍ من الحرير ، في كل كيس ألف دينار ؛ فأبى

طاهر أخذها وسار الى الاسكندرية وحصرها ١٤ يوماً وأخضعها. وسأله الاندلسيون الأمانَ على أن يخرجوا منها الى بعض جزائر الروم. فأمّنهم وخرجوا في الحال بنسائهم وأولادهم وعبيدهم وأموالهم الى جزيرة كريد وملكوها. أما عبدُ اللهِ بن طاهر فأعاد السكينة الى البلاد، وجدّد تنظيم الجيوش وقد كافأهُ الخليفة بأن وهبهُ خراج مصر بتمامهِ ولقبهُ بالمنصور. ولكنهُ لم يكد يبرح مصر الى بلادهِ، حتى ثار الحوفيون ثانية على خلفهِ، الوالي عيسى بن يزيد، لشدة عسفهِ ولزيادتهِ عليهم في الخراج، فهزموه في المطرية، وطاردوه حتى الفسطاط، وقتلوا كثيرين من رجالهِ. وولى المأمون في تلك الاثناء اخاهُ المعتصم أمر الشام ومصر، فجاء المعتصم لنجدة ابن يزيد بأربعة آلاف من الاتراك، ورفع الحصار عن الفسطاط، وأخمد الفتنة، وقتل زعماء الحوفيين ولم يكد يرجع الى بغداد، حتى عادت الثورة الى ما كانت عليهِ قبلاً، وعمت العرب والقبط معاً. فخرج عليهم الوالي عيسى بن منصور سنة ٨٣١، وأوقع بهم أسراً وقتلاً. وظلت الحروب تتوالى، الى ان قدم المأمون الى مصر (٨٣٢). وهو أول خليفة عباسي زار وادي النيل، فأوقع بأهل الفساد، وفتك بعصاة القبط في الحوف، وباع النساء والاولاد عبيداً، وأحرق القرى، واعتنق كثيرٌ الاسلام؛ وامست مصر من ذلك العهد إيالةً إسلامية حقيقية؛ على أنّ فريقاً من القبط ظلّ محتفظاً بدينهِ. وقد عاد المأمون من مصر بعد ان حاول فتح الاهرام دون جدوى

وكان المأمون من أفاضل الخلفاء وعلمائهم وحلمائهم، أتمّ رجال بني

عباس حزماً وحكمةً وفراسة . وقد أخذ من العلوم بقسطٍ ، وتفقهَ وبرع في فنون التاريخ والادب والنجوم وفي الفلسفة وسائر العلوم . فقرَّب اليهِ العلماء والادباء ، وعقد المجالس للمناظرة في الاديان والمقالات ، وشجَّع ترجمة الكتب اليونانية الى العربية ، وكان عظيم العفو جواداً بالمال ، فيهِ دهاء وسياسة ، فأعطى ، ونظَّم ، ونشر الأمن . وتوفي في طرسوس (٨٣٣)

المعتصم محمد بن هارون الرشيد (٨٣٣ — ٨٤٢) — تولى المعتصم الخلافة بعد أخيـهِ ، ولم يقع على عهدهِ في مصر شيءٌ يستوجب الذكر سوى خلافٍ دينيٍّ بين المسلمين في ما يتعلق بتفسير بعض آيات القرآن ، أفضى الى شيءٍ من الاضطراب والاضطهاد . وولى المعتصم على مصر أربعة ولاة كان أحدهم ارمنياً . وكان المعتصم سديد الرأي ، قوي البنية ، نشأ عامياً قليل المعـارف ، وهو أول من أدخل الاتراك في الدواوين ، وهو الذي بنى مدينة سامرّا (أو سُرَّ من رأى) بقرب بغداد

الواثق بالله هارون بن المعتصم (٨٤٢ — ٨٤٧) — بويع في يوم موت أبيهِ ، وفي أيامهِ غزا المسلمون جزيرة صِقلّيـة ، وفتحوا مدينة مسينا ، ولم يقع على عهـدهِ في مصر ما يؤثَر . وكان فاضلاً لبيباً فصيحاً شاعراً ، وقد مات لخمس سنين من مبايعتهِ وهو في الثانية والثلاثين من عمرهِ

جعفر المتوكل بن المعتصم (٨٤٧ — ٨٦١) — تولى المتوكل بن المعتصم الخلافة بعد وفاة أخيهِ ، وعقد البيعة لبنيهِ الثلاثة بولاية العهد ، وهم المنتصر والمعتزّ والمؤيّد . وقد ولى مصر في خلافتهِ سبع ولاة ، ونهى المصريين عن الجدال في القرآن . وفي سنة ٨٥٣ انتهى الروم الى دمياط

على عهد ولاية عنبسة بن اسحاق ، فأحرقوها وقتلوا وأسروا جمعاً كثيراً دون ان يتعرَّض لهم احد ، لأن الحامية كانت تحتفل بعيد الاضحى في الفسطاط حيث اجتمع المسلمون من كل ناحية . فلما بلغ عنبسة خبر الروم خرج عليهم بجيشهِ وكثيرٍ من الناس ، فلم يدرك دمياط الآ وكانوا قد ابحروا ، فبنى الحصون في الفرما ودمياط ليقي البلاد

وفي سنة ٨٥٤ امتنع أهل النوبة عن اداء الجزية ، وهزموا الجيوش المصرية في جبال الزمرُّد ، وأغاروا على الصعيد ونهبوا اسنا وادفو وغيرها ، وكتب عنبسة الى الخليفة في بغداد يستشيره في الأمر ، فأشار عليهِ بالزحف عليهم وتدويخهم . فجهز عنبسة جيوشهُ للقتال ، وجمع ما استطاع من المؤَن والذخيرة والاسلحة والخيل والجمال ، في قفط واسنا وارمنت واسوان وفي القصير على البحر الاحمر ؛ وشحن سبعة مراكب مؤناً ؛ وسار من قوص ٧٠٠٠ مقاتل ؛ قطعوا الصحراء الى مناجم الزمرُّد واقتربوا من دنقلة . وانتشر خبر وصولهم في السودان ، فجمع ملكها علي بابا جيشاً كثيفاً ليقاومهم ؛ ولم يكن للنوبيين من الأسلحة وعدّة الحرب سوى الحراب القصيرة ، ولم تكن جمالهم مروّضة على القتال . فلما رأوا سلاح المصريين وخيولهم ، أدركوا للحال أنهم لن يفوزوا بهم وجهاً لوجهِ فأخذوا يتقهقرون ليحملوا العدو على التوّغل في بلادهم فتنفد مؤنهُ . وكادوا في هذهِ الطريقة يُفلحون ، لو لم تصل في تلك الاثناء المراكب التي كان قد شحنها عنبسة . واضطرّ السودانيون الى الهجوم على الشواطئ ليقطعوا خطَّ المواصلة بين العرب ومراكبهم . على ان القائد العربي أمر

رجالهُ أن يحملوا حملة واحدة على السودانيين عند ما صاروا على مرمى سهم منهُ . فهجم المصريون بين قرع الطبول والأجراس وصلصلة السلاح، فأجفلت جمال الاعداء واحجمت مذعورةً الى الوراء ؛ فاكتسى السهل جثثاً ، واضطرَّ علي بابا الى عقد الصلح مع المصريين ، ودفع متأخر الجزية . وكانت الجيوش المصرية قد قبضت على هذا ، ودفعتهُ الى قائدها ، فأكرمهُ وأجلسهُ على بساطهِ ، وأهدى اليهِ هدايا فاخرة ، ودعاهُ الى زيارة الفسطاط وبغداد ، ثم اطلق سراحهُ بسلام

وكان عنبسة آخر من ولي مصر من العرب ، وآخر أمير صلى بالناس في المسجد ؛ وكان عادلاً حكيماً شجاعاً شريف الاخلاق حسن النية . وقد خلفهُ ولاةٌ أتراكٌ ، فلم يحسنوا الحكم ، واساؤا الى العرب واضطهدوهم كثيراً . على انهم كانوا في الغالب يحسنون معاملة القبط ؛ وقد اعاد لهم بعض هؤلاء الولاة أموالهم واملاكهم التي نُزعت منهم ، واذنوا لهم في بناء الكنائس . وكان منهم يزيد بن عبد الله التركي (سنة ٨٥٦) المشهور بعسفهِ وظلمهِ وتشديده في الضرائب ، وذلك دعا الى الثورة ثانية . وقد جرت على العلويين في ولايتهِ شدائد . وهو الذي بنى في الروضة المقياس [١] الثاني للنيل ، وعزل القبط عن قياسهِ ، بعد ان كان على عهد

---

(١) المقياس عمود رخام ابيض مثمن في موضع ينحصر فيهِ الماء عند انسيابهِ اليهِ . وهذا العمود مفصّل على اثني وعشرين ذراعاً كل ذراع مفصل على اربعة وعشرين قسماً متساوية تعرف بالأصابع ما عدا الاثني عشر ذراعاً الأولى فانها مفصلة على ثماني وعشرين اصبعاً كل ذراع . وذكر المقريزي في خططهِ المشهورة

سلفائهِ خاصاً بهم دون سواهم ، وجعل عليهِ أبا الرداد المعلّم ، وأجرى عليهِ سليمان بن وهب صاحب خراج مصر سبعة دنانير في كل شهر

وكان المتوكّل يضطهد الاقباط ويشدّد عليهم بالضرائب

وفي خلافتهِ كثر عدد المماليك الاتراك في بغداد ، فصار بيدهم الحلُّ والعقد ، والولاية والعزل ، وسطوا على المتوكل باتفاقٍ مع ابنهِ المنتصر وقائدهم « باغر » فقتلوهُ وقتلوا معهُ وزيرهُ الفتح بن خاقان

المنتصر بن المتوكل (٨٦١ — ٨٦٢) — ثمَّ خلفهُ ابنهُ المنتصر باللهِ ، ولم يتهنَّ بالخلافة لاستيلاء المماليك الاتراك على المملكة ؛ فدسُّوا الى طبيبهِ ليسمَّهُ ، ففصدهُ بمبضعٍ مسموم ، فمات لستة أشهرٍ من مبايعتهِ

المستعين بالله (٨٦٢ — ٨٦٦) — أجمع كبار الأتراك ، من الحرس الخاص ، والوزراء والأعيانُ على حرمان ابناء المتوكل من الخلافة ، وأقرّوا فيها المستعين بن محمد بن المعتصم . ثمّ فاز البعضُ الآخر بخلعهِ في سنة ٨٦٦

مقاييس النيل التي وضعت على عهد الخلفاء واسلافهم قال : أول من قاس النيل في مصر يوسف بن يعقوب ، وضع مقياساً في منف ، ووضع الروم آخر في القصر ، ووضعت دلوكة ابنة زبا مقياساً في انصنا ، وآخر في أخميم ، ووضع عمرو بن العاص لدن فتحهِ مصر مقياساً في اسوان ، وآخر في دندرة ، ووضع معاوية مقياساً في انصنا ، فلم يزل يقاس عليهِ الى ان بنى عبد العزيز بن مروان في خلافة اخيهِ عبد الملك مقياساً في حلوان ، و بنى اسامة بن يزيد مقياساً في جزيرة الروضة ثم بنى المتوكل فيها مقياساً آخر فى ولاية يزيد بن عبداللهِ التركي على مصر ، و بذل احمد بن طولون في اصلاحهِ ألف دينار ، و بنى الحارث مقياساً في الصناعة

وفي أيامه اضطهد يزيد والي مصر الرعية اضطهاداً شديداً ، وأحدث أمير الخراج أحمد بن المدبر من الضرائب ما أثقل كاهلها ، فأُهرقت دماء كثيرة ، ولزمت النساء بيوتهن . وما زال الاضطراب منتشراً في البلاد حتى استقل أحمد بن طولون بمصر

المعتز بن المتوكل (٨٦٦ — ٨٦٩) — لمَّا قُتل الخليفة المتوكل استضعف الاتراك الخلفاء ، فاستولوا على المملكة ، وكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه . فكأنما الخلفاء العباسيون لما قرّبوا اليهم الاتراك ، ليدفعوا بهم مطامع العرب ، سقطوا من حيث أرادوا البقاء

ولما خُلع المستعين ، خلفهُ المعتز وهو أبو عبدِ اللهِ محمد بن المتوكل . ولم يكن بسيرتهِ وعقلهِ ورأيهِ بأس . إلاَّ انهُ كان آلة في أيدي الاتراك ، لا يستطيع الحراك ، فاغتنمها أحمد بن المدبر فرصةً لسلب المصريين أموالهم ، فحجز على النطرون وكان مباحاً ، ووضع مالاً على المراعي ورسماً على المصايد ، وأحدث ضرائب فادحة على التجارة والصناعة والمباني والحِرَف الخ ، فانقسم بذلك مالُ مصر الى خراجي وهلالي : فالخراجي ما كان يؤخذ سنوياً عن الأراضي الزراعية ، وما كان يؤخذ هديةً كالغنم والدجاج وغيرهِ ؛ والهلالي هو الضرائب التي كانت تؤخذ شهرياً من التجار وأصحاب الحانات وأرباب الصنائع والحِرَف الخ . ولم يستطع المصريون احتمال هذا العسف طويلاً ، فاضطربت البلاد وكثرت الفتن ، وثار الاسكندريون وحاربوا ذوي الحل والعقد . فقدم مزاحم بن خاقان

من العراق معيناً ليزيد التركي على العصاة وقهرهم وأخضعهم ، وخلف يزيداً في ولاية مصر. ثم امتنع أهلُ الحوف ثم أهل الجيزة وأخيراً أهل الفيوم عن إداء الخراج والضرائب المستحدثة ، فخرج مزاحم عليهم وأوقع بهم وولّى ارجوزَ شرطتهُ فكان عليهم أشدَّ وطأة من مولاهُ

وفي سنة ٨٦٨ التزم الأمير التركي باكباك مال مصر من المعتزّ ؛ ولم يبرح دار الخلافة ، لتبقى يدهُ على الخليفة . بل أرسل الى مصر نائباً عنهُ وقائداً للجيوش المصرية ابنَ زوجتهِ ، أحمدَ بن طولون . وأراد ابن المدبّر ان يكون صاحبَ الحول والطول في مصر ، فنازعهُ ابن طولون النفوذ ، ونمت بينهما البغضاء

وفي سنة ٨٦٩ تنازل المعتزّ عن الخلافة مكرهاً لأنهُ عجز عن دفع مرتّبات الاتراك ، وسجن ومات جوعاً

المهتدى بهه الواثق (٨٦٩ — ٨٧٠) — كان المهتدي من أحسن الخلفاء مذهباً ؛ يجلس للمظالم فيحكم أحكاماً ترتضيها الناس ، وقد اطّرح الملاهي وحرّم الغناء والشراب . وكان سبب موتهِ أنَّهُ قتل بعض الموالي ، فهاج عليهِ الاتراك وأسروهُ وعذّبوهُ ليخلع نفسهُ ، فلم يفعل . فقتلوهُ وهو ابنُ سبعٍ وثلاثين سنة

وفي عهدهِ جاهر العلويون في غرب الاسكندرية بالعداء لابن طولون ، وظاهرهم عدوٌّ آخر — وهو مأمور إقليم اسنا — فنازلهم ابنُ طولون ، وغلبهم ، واضطرهم الى الفرار الى الواحات في بطنِ الصحراء الكبيرة

المعتمد بهه المتوكل (٨٧٠ — ٨٩٢) — وآلت الخلافة الى ابراهيم ،

ثالث اولاد المتوكل ، وهو المعتمد على اللهِ . وكان مستضعفاً ، فغلب أخوهُ الموفّق طلحة الناصر على أمورهِ ، وترك له من الخلافة اسمها

وفي أيامهِ قُتِل باكباك ملتزم مصر ، وضمن مصر بعدَهُ برقوق حمو أحمد بن طولون ؛ فأقرّ صهرهُ أحمد في منصبهِ ، وأطلق يدَهُ في ادارة البلاد . فخرج ابن طولون وظفر بحلب وانطاكية وبقية العواصم . ولما توفي برقوق استقلّ ابن طولون في مصر وأخذ خراجها ، وكانت يومئذٍ عامرةً آهلة . ولم يبقَ للمتوكل عليها من السيادة شيء

الفصل الرابع

الدولة الطولونية

(٨٧٠ — ٩٠٥ م.) = (٢٥٧ — ٢٩٢ هـ.)

السلطان احمد بن طولون (٨٧٠ — ٨٨٤) — مرَّ في ما تقدَّم كيف انَّ ابن طولونَ دخل مصر نائباً عن ملتزمها باكباك، وكيف رسخت فيها قدمهُ، ونفذت كلمتهُ، حتى استقلَّ بادراتها وقد كانت ولادتهُ سنة ٨٣٥. فتعلم وتهذَّب وتخلق بأجمل الاخلاق، فأحبَّهُ امراء الاتراك وأزوجهُ زعيمهم برقوق ابنتهُ. وكان الخليفة المتوكل قد قلدهُ إمارة الستر، فجعل يتردَّد على طرسوس ليأخذ عن أهل العلم فيها، ولم يكن لهُ من العمر يومئذٍ الاَّ ١٩ سنة. ولما رأى الخليفة ولعهُ بالعلوم، أجاز لهُ أن ينصرف اليها، وترك لهُ ألقاب الامارة ومرتّباتها. فأصاب ابن طولون نصيباً وافراً من العلوم والآداب والشريعة، حتى اصبح في ذلك حجةً. واتفق انهُ بينما كان عائداً يوماً من طرسوس، ومعهُ رسولٌ حاملٌ اموالاً وافرة من القسطنطينية الى الخليفة المستعين بالله، هجم على قافلتهِ عصابةٌ من الاعراب، فكاد يفشل رجال ابن طولون لولا ما ابداهُ هو من البسالة والشجاعة حتى ردَّ المهاجمين عن القافلة خاسرين، وخلَّص الاموال. فلما بلغ الخليفة خبرهُ قربهُ اليهِ كما فعل المتوكل من قبل، ووصله بمال جزيل.

ثم جاء مصر سنة ٨٦٨ كما تقدم، نائباً عن باكباك وعمره اذ ذاك ٣٣ سنة. وفي سنة ٨٧٠ استقلَّ بحكم البلاد. وثار عليه أهل برقة والصعيد والنوبة فأخضعهم لسلطانهِ. وخشيَ الموفّق في بغداد ازدياد قوة احمد الى حد سيءِ العقبى، فجرد عليهِ جيشاً لقتالهِ ونزعِ مصر من قبضة يدهِ. ولم يبلغ الجيش المذكور برقة حتى نفذت مؤونهُ فقفل راجعاً من حيث أتى. وكان فشلهُ داعياً الى مضاعفة مطامع احمد بن طولون. وحدث ان ماجور حاكم سورية، توفيَ بعد ذلك بزمن يسير، فاضطرَّ احمد علياً، خليفة ماجور في سورية، الى مبايعته عليها

وفي سنة ٨٧٨ سار أحمد بجيوشهِ ليأخذ لنفسهِ البيعة العامة من كبراء سوريا وأهليها، واستخلف على مصر ابنهُ العباس وهو في الثالثة والعشرين من عمرهِ. وعهد بتدبير الاحكام الى وزيرهِ أحمد الواسطي. ولما بلغ الشام أطاعهُ العدد الاكبر من العمال والأمراء وأخضع قهراً من أبى الاعتراف لهُ بالسيادة، حتى لم يبقَ لهُ منازع. ثم بلغهُ ان ابنهُ العباس بدّد الاموال وشقَّ عصا الطاعة عليهِ، فرجع قاصداً مصر. ولما قرب منها فرَّ ابنهُ العاصي الى برقة، فأنفذ أحمد اليها جيشاً، بقيادة أحمد بن الواسطي، هزم رجال العباس وقتل منهم كثيرين وقبض الواسطي على الهارب وجاء بهِ الى أبيهِ فجلدهُ مئة جلدة، واعتقلهُ وقتل المفسدين الذين أغروهُ وحملوهُ على ما جنى. وكانت سلطة أحمد يومئذٍ تمتد من الفرات وحدود امبراطورية بيزنطية الى برقة، ومن الشمال على البحر الأبيض المتوسط جنوباً حتى اسوان، قرب الشلاَّل الأوّل. ورأى الموَفّق ذلك، فأغرى رئيس الحامية المصرية

التي تركها ابن طولون في طرسوس على خيانة مولاه، والانضمام الى الخلافة؛ ففعل واعتدى على رجال ابن طولون ونوابه في آسيا؛ فعظم الشقاق واشتدّ العداء بين ابن طولون والموفق. وكان هذا غالباً على امور اخيه الخليفة المعتمد، مستبدّاً بأموره؛ فساءت حالهُ وفرّ من بلاده قصد الالتجاء الى ابن طولون في مصر. وكان ابن طولون قد وعده بالذود عنه رغبةً منهُ في التخلص من دفع الضريبة المفروضة على مصر للخلافة، وفي إضعاف سلطة الموفق. على ان الموفق قبض على أخيه الهارب قبل ان يقطع الحدود الشامية، وأعادهُ الى سامرّا أسيراً

وبعث بعد ذلك ابن طولون بجيش للاستيلاء على مكة فصدَّ عنها خائباً. وأظهر ابن طولون استياءهُ من مقاومة الموفق بأن قطع الخطبة والدعاء لهُ في جوامع مصر يوم الجمعة، وبأن عقد في دمشق مجلساً من القضاة قرر فيه عزل الموفق وحرمانهُ من حق الخلافة لأنهُ أساء معاملة المعتمد، ولم يحترم صفتهُ الدينية، وكانت النقود تضرب باسمه واسم الخليفة فقط. ويقال ان قاضياً ورعاً مستقيماً من هولاء أبى توقيع القرار المذكور فزجّ في السجن حيث قاسى الأهوال والشدائد حتى موته

ولم يكن ابن طولون على وفاق مع امبراطور القسطنطينية فأرسل سنة ٨٨١ جيشاً جراراً تحت إمرة قائده في طرسوس لقتاله، كانت لهُ الغلبة وعاد من القسطنطينية مثقلاً بالغنائم. ثمّ كانت معركة أخرى سنة ٨٨٣ بقرب طرسوس بين رجال ابن طولون هنالك، وبين عدد كبير من رجال الامبراطور، فقتل من الأخيرين ٦٠٠٠٠ مسيحي وغنم

المنتصرون مقداراً وافراً من الذهب والفضة والمصوغات والآنية المقدسة والامتعة ومن الخيل ١٥,٠٠٠ حصان

وكان احمد بن طولون ورعاً مقداماً حكيماً ، توّاقاً الى المعالي كريم الخلق، شريف النفس ، حسن السياسة والتدبير ، ماهراً في فن الاحكام . فساس شؤون بلادهِ بنفسهِ ، وبحث بتدقيق في أحوال رعاياهُ ، وبذل جهدهُ في توفير اسباب الراحة والرخاء لكل فرد منهم ، فألغى الخراج الهلالي الذي وضعهُ ابن المدبر عليهم وحسّن الزراعة ، وجدد حفر ترعة الاسكندرية ، وبنى آباراً وسواقيَ وقناطر وغيرها مما يحسّن الري حتى زاد الخراج عما كان عليـهِ على عهد ابن المدبر ، برغم ما ألغاهُ أحمد من الضرائب ، ورمم منارة الاسكندرية وبنى مارستان لمرضى رعاياهُ وخص لفقرائهم أطباءَ يعالجونهم مجاناً ، واحترم علماءهم وقرّبهم اليهِ . وكان يفرّق الطعام في الناس ويدعوهم الى موائدهِ ، ويتصدّق على كل من مدّ اليهِ يدهُ . ولقد قال لهُ مرة متولي صدقاتهِ : أيّد اللهُ الأمير ! إنّا نقف في المواضع التي تفرّق فيها الصدقة فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً ، والمعصم الرائع فيهِ الحديدة ، والكف فيها الخاتم » فقال : « يا هذا كل من مدّ يدهُ اليك فاعطهِ . واحذر ان ترد يداً امتدت اليك »

وأحمد ابن طولون هو الذي أنشأ القطائع ، ذلك انهُ صار من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال تضيق بهِ دارهُ ولا تتسع لهُ ؛ فركب الى سفح الجبل وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى ، واختط موضعها فبنى لهُ قصراً فخماً وميداناً ، وتقدّم الى أصحابهِ وغلمانهِ واتباعهِ ان يختطوا لأنفسهم

حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط . ثم قطعت القطائع ، وهي عدة قطع من الارض يسكن فيها رجالهُ ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها ؛ فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة ، وللفرّاشين قطيعة ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم . وبنى القوّاد مواضع متفرّقة ؛ فعمرت القطائعُ عمارة حسنة ، وتفرّقت فيها السكك والازقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان ، والطواحين والحمامات والأفران الخ . وقد جعل أحمد بن طولون قصرَهُ في وسطها ، وكان يشرف منهُ على كل ما تهمهُ رؤيتهُ

ومن مباني ابن طولون الشهيرة جامعهُ المعروف باسمهِ الى يومنا ؛ وقد قضى البنّاؤون في تشييدهِ سنتين كاملتين . ولهُ جوامع أُخرى منها جامع التنور على قمة المقطم . ومن آثارهِ بئر عفصة عند بركة الحبش ؛ ولهُ من الاصلاحات أشياء كثيرة يضيق المجال عن ذكرها

وفي سنة ٨٨٤ مرضَ احمد بن طولون ؛ ولما أحسَّ بدنوّ أجلهِ استغاثَ بصلوات شعبهِ ، فصعد المسلم والمسيحيُّ واليهوديُّ الى المقطم ، وأقاموا هناك الدعاء الى اللهِ ليشفيَ مليكهم المحبوب . وكانت المعابدُ مكتظةً بالجماهيرِ تضرعُ وتسأل لهُ العافيةَ ، وفرّق المالَ بسخاء على الفقراء . فانتفع الناسُ بموتهِ كما انتفعوا بحياتهِ . ولما دنت ساعتهُ صلّى قائلاً « اللهمَّ ارحم عبدَكَ ، وعلّمهُ قدرَ نفسهِ ، لأنهُ لم يعرف لها قدراً ، وعاملْهُ برحمتك » وتوفيَ في ١١ مايو سنة ٨٨٤ ولم يبلغ الخمسين من عمرهِ ، ودفنَ عند سفح المقطم ، على طريق القرافة الصغرى

أبو الجيش خمارويه (٨٨٤ — ٨٩٦) — وتولّى إمارة مصر بعد احمد بن طولون ولدُهُ خمارويه ، وهو في العشرين من عمرهِ . أما أخوهُ العباس فكان لا يزال معتقلاً ، والرعيةُ نافرةٌ منهُ لأنهُ عقّ أباهُ ، وكفرَ بنعمتهِ . على أن أباهُ اوصى لهُ قبل وفاتهِ بولاية الشام تحت إمارة أخيهِ خمارويهِ ، ولكنهُ لم يتمتّع بتلك الولاية لانّ أخاهُ أمر بقتلهِ لتمنّعهِ عن الاعتراف لهُ بالامارة

ولم يستتبّ الامرُ لخمارويه في الشام بعد قتل أخيهِ ، وذلك ان ابن كنداج ، عامل الخليفة على الموصل ، وابن ابي ساج ، عاملهُ على الانبار ، وغيرهما من الولاة حاولوا نزعَ سوريّا وغيرها مما ملكتهُ مصر في أسيا ، وإعادتهُ الى حوزة الموفق . وكانت حجتهم في ذلك أن خمارويه مغتصب امارة مصر ، بأخذها ارثاً عن ابيهِ دون أن يعيّنهُ فيها صاحب الخلافة . وقد وافقهم على ذلك جيوش دمشق . فعقد خمارويهِ لأبي عبد اللهِ احمد الواسطي على جيشٍ الى الشام ، وعقد لسعد الأعسر على جيشٍ آخر ، وبعث بمراكب لتقيم في السواحل الشامية . فاستمال اعداؤهُ قائدهُ أبا عبد اللهِ احمد الواسطي ، فواطأهم على مأربهم اذ كان يخاف ان يوقع بهِ خمارويهِ ، لأنهُ كان هو المشير عليهِ بقتل اخيهِ العباس . وانضمّ اليهم ايضاً ابن الموّفق ابو العباس من بغداد ، وسار فاتحاً في البلاد حتى دخل دمشق . واتصل ذلك بخمارويهِ فخرج من مصر الى فلسطين بسبعين ألف مقاتل ، والتقى بأحمد بن الموّفق فاقتتلا في « الطواحين » ودارت الدوائر على جيش خمارويهِ ، ونجا هو بنفسهِ وبنفرٍ من جندهِ الى الفسطاط .

اما سعد الأعسر فظلّ موالياً لخمارويهِ وجمع ما تبقى من عساكرهِ، وحارب ابن الموفّق؛ فكانت لهُ الغلبة وأجلى الاعداء الى طرسوس. ثمّ عاد الى دمشق ففتحها وأرسل بشائر النصر الى مصر. ولم يكد يفرح بها خمارويهِ حتى زلزلت أرض مصر زلزالاً هائلا هدم بيوتاً كثيرة وأمات ١٠٠٠ نفس في الفسطاط في يوم واحد؛ على انهُ ظلّ منهمكاً في اموره الشخصية وأغفل أمر البلاد التي أعادها لهُ قائدهُ الباسل. ولما رأى سعد الأعسر اعراضَ سيدهِ واهمالهُ كرهَ أن يظلّ في خدمتهِ. فخرج عن طاعتهِ، وأعلن استقلالهُ بولاية الشام، فكان عملهُ هذا داعية لايقاظ خمارويهِ من خمولهِ، فزحف الى الشام وهزم سعداً، ودخل دمشق سنة ٨٨٦ ثم واصل السير حتى التقى بأبن كنداج، صاحب الموصل، فهزمهُ وتتبعهُ حتى مدينة سامرَّا على نهر دجلة. فاستقرّ لهُ بعد ذلك الامر في مصر والشام. ثم عقد الصلح مع الموفّق. ووقع لهُ الخليفة ووليُّ عهدهِ امراً بتثبيتهِ في امارتهِ

ولما وثق من نفسهِ، وقدر قوتهُ حق قدرها، رأى من الحكمة أن لا يأمن جانب حليفيهِ: ابن ابي ساج، حاكم الانبار، وابن كنداج، حاكم الموصل، فتدخّل بينهما وكانا في خلاف، فشبّت من جرّاء تدخّلهِ حرب في ما بين النهرين كانت عاقبتها شؤماً على المتقاتلين وصفقةً رابحةً لخمارويهِ، فنشر سلطتهُ على تلك البلاد، واعترف لهُ اهلوها بالسيادة عليهم ثم خرج عليهِ ابن ابي ساج في سنة ٨٨٨ واجتاحَ البلاد السورية. فمشى اليهِ خمارويهِ بجيش قوي، وقاتلهُ في جوار دمشق، فهزمَهُ واجلاهُ عن

سوريّا . وما زال يطارده حتى دجلة حيث بنى عرشاً فخماً عنواناً لفوزهِ وسلطانهِ . ثم شبّت فتنٌ في تلك الاصقاع اضطرّت خمارويه الى قضاء سنةٍ أخرى في اخمادِها ، واظهرَ فيها جميعها من الشدّة والبطش ما انزل الرُّعبَ في نفوس اعدائهِ . حتى أنّ الخوف دبّ في نفس حاكم طرسوس الذي كان قد نبذ طاعةَ الطولونيّين منذ سنة ٨٨٣ فعرض خضوعهُ على خمارويهِ ، واعترف لهُ بالسيادة ، وأهدى اليهِ ثلاثين ألف دينار ، والف ثوبٍ ، وكميّة كبرى من الأسلحة . ثم عاد فأردفَ هديتهُ هذهِ بخمسين ألف دينار أخرى . وغزا خمارويهِ ما جاورهُ من الأملاك الرومانية بين سنة ٨٩١ و سنة ٨٩٤ فدوّخها جميعها

وفي سنة ٨٩١ مات الموفّق ، وعقبهُ موت ابن كنداج ، ثم الخليفة المعتمد . ولما آلت الخلافة الى المعتضد في سنة ٨٩٢ ثبّتَ خمارويهِ في مصر وخطبَ ابنتهُ قطرَ الندى ، ولم يكن لها من العمر سوى عشر سنوات . وتبادل الهدايا مع ابيها ، ومهر لها مليون درهم ، وروائح عطرية نادرة جاء بها من الصين والهند ، وبعث اليها بها مع أشياء اخرى ثمينة فاخرة . ولما انقضت سنتان على هذهِ الخطبة ، وكانت قطرُ الندى قد بلغت الثانية عشرة ، احتُفل بزفافها الى الخليفة ؛ فحملت على هودج فاخر ، وحُمِل مَعها ما لم يُرَ مثلهُ ولم يسمع بهِ من قبل . وكان خمارويهِ قد بنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها ، بين مصر وبغداد ، قصراً فخماً ، وأخرج معها اخاها شيبانَ بن احمد بن طولون في جماعة كثيرة العدد ، فكانوا يسيرون بها ، سيرَ الطفل في المهد ؛ فاذا بلغت مرحلةً من مراحل الطريق وجدت قصراً أُعدّ لها ،

فنزلتهُ على الرحب والسعة . فكانت في مسيرها من مصر الى بغداد ، على بُعدِ الشقَّة ، كأنها في قصر ابيها تتنقل ، من مجلس الى مجلس ، بين الاطالس والحرير . وحمل خمارويه معها حلاها وجواهرها في عشرة صناديق كبيرة كان فيها ايضاً أربعة آلاف حزامٍ مجوهر وألف آنيةٍ من الذهب الإبريز أودعتْ فيها الروائح الزكية . وقد كان جملة ما انفقهُ خمارويه على زواج ابنتهِ مليون دينار . ولكنَّ الخليفة شاءَ أن يعيضهُ منها فأعادَ اليهِ السيادة من حثّ على الفراة ، الى برقة على البحر المتوسط ، وأخفض الجزية السنوية التي كانت تدفعها مصر للخلافة الى ٣٠٠,٠٠٠ دينار

ومما يؤثر عن خمارويه ان رواتب جيوشهِ في مصر كانت تبلغ ٩٠٠,٠٠٠ دينار .وكان كثير البذخ والسرف فقيل انهُ كان ينفق ٢٣,٠٠٠ دينار على مطبخ قصرهِ في كل شهر . وولع كابيهِ بتشييد القصور ؛ فاكمل بناءَ قصر القطائع وزخرفهُ زخرفة جميلة ، وحلاّهُ بالذهب ، وزانهُ بصور نسائهِ ومحظياتهِ ، رغم استنكار المسلمين للتصوير ، وصنع فيهِ سريراً رجراجاً من الزئبق كان مسطحهُ نحواً من مئة قدم مربّع ، وكان يترجح فيهِ وقد شدّهُ بحبال من حرير الى اعمدة من فضّة . وانشأَ في باحة القصر بستاناً غرسهُ باشجار الفاكهة على اختلاف اصنافها ، وطعّم المشمش باللوز ، وغيرهُ بغيرهِ . وزرع فيهِ كلّ انواع الرياحين والورود والزعفران على شكل سطورٍ مكتوبة تُقرأ فيها ما شاءَهُ من الحكم والآيات . وبنى في ذلك البستان برجاً حبس فيـهِ كلّ طائر حسن الشكل والصوت ، وانشأَ داراً للسباع واخرى للنّمرة ، ودوراً للفهود وللفيلة وللزرافات ،

وعهد الى جماعة من خدمهِ القصر بحراستها وسياستها . وكان له أسد ازرق العينين برّاقهما يقال له زريق ألِفَهُ وانس بهِ فكان يطلقه في دارهِ فلا يؤذي احداً . وكان اذا نُصبت المائدة في قاعة الاكل ربض زريق بين يدي خمارويه يلتهم ما يرميهِ اليهِ . واذا نام سيّدهُ سهر على حراستهِ لا تغمض له عين . ومما اعتنى بهِ خمارويه كثيراً احراز الخيول الجياد ، فكان يربّيها على السباق والجهاد وقد خصص لسباق الخيل اياماً قامت في البلاد مقام الاعياد

ولما كانت سنة ٨٩٦ اتصل بخمارويه أن بين بعض من كبار خدمهِ وبين بعض نسائهِ علاقات شائنة فعمد الى تحقيق تلك الاخبار بنفسهِ ففاجأهُ أولئك الخونة في سريرهِ واغتالوهُ . ونقلت جثتهُ من دمشق الى مصر ، ودفنت في سفح المقطم ، الى جانب جثة ابيهِ احمد بن طولون . اما قتلتهُ فصلبوا على قوارع الطرق

جيش ابن خمارويه (٨٩٦) — خلف خمارويه ابنهُ « جيش ابو العساكر » وهو في الرابعة عشرة من عمرهِ لا يدرك معنى الحكم ولا يفقهُ أهمية الولاية ؛ فأهمل شؤون البلاد ولم يكترث للادارة بل مال عن كل ذلك الى اللهو واللعب منصرفاً الى شهواتهِ وملذاتهِ ؛ فاغتنم أبو طغج بن جف حاكم سوريا هذهِ الفرصة للخروج عن طاعة مصر واقتدى بهِ سائر الحكام في الشمال فنبذوا حكم ذلك الصبي . وكان الاسراف الذي اقتضاهُ انغماسهُ في الملاهي قد افرغ خزينة البلاد فثار الجند على واليهم الصغير وقتلوهُ قبل أن تنقضي سنة كاملة على ولايتهِ . وكان هو من قبل ذلك قد أوجس شرّاً من اعمامهِ واغتال ثلاثة منهم

هارون بن خمارويه (٨٩٦ — ٩٠٤) — وولّى زعماء الثورة بعد جيش أخاهُ الأصغر هارون بن خمارويه الملقّب بأبي موسى، وأقاموا عليهِ وصياً ابن ابالي، وكان عاجزاً عن القيام بواجبات الوصاية، فاستبدَّ الاتراك بشؤون الملك، وسعى احد اعمام هارون الى الاستئثار بالولاية، فدخل الفسطاط في طليعة جيش كبير ولكنّهُ ارتدَّ مهزوماً. ولم تكن سوريا وطرسوس في تلك الاثناء تحت سيادة أحد من الولاة. على أنَّ الخليفة كان قد ثبّت هارون في امارة مصر والقسم الجنوبي من سوريا، واشترط عليهِ في مقابل ذلك أن يدفع سنوياً للخلافة ٤٥٠،٠٠٠ دينار، وان لا يتداخل البتة في شؤون القسم الشمالي من سوريا. ولما رأى القرامطة ضعف عزيمة هارون، غزوا سوريا وحاصروا دمشق وقاتلوا الجنود المصرية وحملوها خسائر فادحة، فاضطر الخليفة الى تلافي الأمر بنفسهِ فحارب القرامطة وأجلاهم، ثم أرسل من طرسوس عمارة بحرية الى دمياط، وأرسل جيشاً في البر الى العبّاسة على مسيرة يوم من بلبيس. وعرف هارون ذلك فجمع جيوشهُ الخائرة القوى وسار بها الى قتال العدو وصدّهِ ولكنهُ لم يكد يفعل حتى قتلهُ في خيمتهِ، وهو ثمل، عمّاهُ شيبان وعدي

شيبان بن احمد بن طولون (٩٠٤ — ٩٠٥) — ولم يرضَ الناس عن عمل شيبان وخرقهِ لحرمة ابن أخيهِ، وقتلهِ لهُ افتئاتاً وعدواناً فثاروا عليهِ يوم عاد بهم الى مصر وأعلن الملك لنفسهِ، ولم يقبلوا بهِ اميراً عليهم. ثم كتبوا الى محمد بن سليمان قائد الخليفة يستدعونهُ الى مصر. فلبّى دعوتهم وقاتل شيبان وهزمهُ في مواقع كثيرة. واضطرهُ الى الفرار من معسكرهِ

تحت جنح الليل . ثم دخل ابن سليمان الفسطاط ، واستلم ازمّة الاحكام ، وألقى النار في القطائع ونهب اصحابهُ الفسطاط وفتحوا السجون واخرجوا منها المسجونين وافلتوهم في المدينة ، فعاثوا بها فساداً واستباحوا كل محرّم وقتلوا من السودانيين سكانِ القطائع خلقاً كثيراً . ولم يكتفوا بذلك كلهِ بل ساقوا اولاد احمد بن طولون قسراً الى خارج البلاد ونفوهم منها فعفت آثارهم وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز والتشريد بعد نضرة الملك ، فرثاهم الشعراء واكثروا من التفجّع عليهم وذكروهم بكل جميل . وكانت مدة حكمهم في مصر خمساً وثلاثين سنة وبضعة اشهر بلغت البلاد في خلالها ذروة المجد والعزّة والغنى

الفصل الخامس

الدولة العباسية

للمرة الثانية

(٩٠٥ — ٩٣٤ م) = (٢٩٣ — ٣٢٣ ﻫ)

المكتفي بالله (٩٠٢ — ٩٠٨) — أخذ له أبوه المعتضد البيعة قبل وفاته بثلاثة أيام. وكان من أفاضل الخلفاء. وفي عهده تغلَّب محمد بن سليمان على الطولونيين كما تقدّم؛ وأعاد مصر الى حوزة العباسيين (٩٠٥) فأقام المكتفي والياً عليها عيسى بن محمد النوشري. وولّى الخراجَ الحسينَ ابن أحمد المادراني. وقد ظلّت البلادُ تحت سلطة العباسيين، للمرّة الثانية، نحواً من ثلاثين سنة، وهي لا تستقرّ على حالٍ من القلق. وكان الخلفاء أضعفَ من أن يستطيعوا ضبطَ إداراتها. فكانت فريسةً للامراء الاتراك يلعبون بها كيف شاءت أهواؤهم. وكانت الجنودُ التي تأتيها من بغداد، لقمع فتنةٍ، أو ردّ غارة، تثورُ على الولاة اذا توقّفوا عن دفع المرتَّبات، فتزداد مصر بهم شقاءً

وكان محمد بن سليمان، لدن ترك مصر، قد أَخرج منها من بقيَ من الطولونيين. فلم يكادوا يبلغونَ دمشق حتى انسلخ عنهم محمد بن علي الخليج في جمعٍ كثيرٍ ممن كرهَ مفارقة مصر، فعقدوا لهُ عليهم، وبايعوهُ

بالإمرة ، ورجع الى مصر . فخرج عليهِ واليها النوشري بجيشٍ ، فانضمَّ فريقٌ منهُ الى ابن الخليج ، وظلَّ هذا سائراً في البلاد ، حتى دخل الفسطاط ؛ فتولَّى الأحكامَ ، وأمر بالدعاء في المساجد باسم المكتفي ، بصفة كونهِ خليفةَ المسلمين ، واسم ابرهيم بن خمارويه بصفة كونهِ أمير مصر وإن كان مسجوناً ، وباسمهِ بصفة كونهِ نائباً عن الأمير . ففرح المصريون بهِ ، لأنهُ كان يذكّرهم عهدَ الطولونيين . فأرسل المكتفي أبا الأعز في طلب ابن الخليج ، فانهزم أبو الأعز وأُسِر من أصحابهِ جمعٌ كثير . ثمَّ أرسل اليهِ الخليفة قائدَهُ فاتكاً المعتضدي من بغداد ، فتغلّب عليهِ هذا القائد وأسرَهُ ، وأرسلهُ الى بغداد حيث قُتل . وكان حكمهُ في مصر سبعة أشهر وبضعة أيام . وعاد عيسى النوشري الى ولاية مصر ، والحسين المادراني على خراجها

المقتدر بالله وابن المعتزّ والقاهر بالله — (٩٠٨ — ٩٣٣) وقام بالخلافة بعد المكتفي أخوهُ أبو الفضل جعفر المقتدر وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وقد وُلّي الخلافة ثلاث مرات . وكان الجند قد ثاروا عليهِ وعقدوا البيعة لابي العباس بن المعتزّ ، وكان من اكثر العباسيين فضلاً وأدباً ومن الشعراء المعدودين ، على أن المقتدر تمكّن منهُ وقتلَهُ ، فاستقام لَهُ الأمرُ ثانيةً . ثمَّ جرت بينهُ وبين مؤنس المظفر امير الجيوش منافرة أدّت الى خلعهِ للمرة الثانية ، ومبايعة اخيهِ القاهر . ثمَّ أُعيد المقتدر ثالثةً الى الخلافة ، ووقعت حرب بينهُ وبين مؤنس ، فقتِل فيها . ووُلّي أخوهُ القاهر مكانهُ (٩٣٢)

وكان المقتدر في بداية خلافتهِ (٩٠٨) قد أَقرَّ عيسى النوشري على مصر . ولمّا تُوفيَ النوشري خلفهُ تكين الخزري أبو منصور، وأوصاهُ الخليفة بأن يكون على حذَرٍ من الفاطميين . وكانت الدولة الفاطمية قد ظهرت في تلك الاثناء في المغرب وفتحت كلَّ افريقيا الشمالية

وفي سنة ٩١٤ بعث صاحبُ افريقيا المهدي عبيدُ الله الفاطميُّ قائدَهُ حُباسةَ بن يوسف فدخل برقة ، وتوجه منها الى الاسكندرية ففتحها ، وظلَّ زاحفاً الى الصعيد . وفي غضون ذلك قدمت جيوشٌ من العراق مدداً لتكين وانضمَّ اليها الحسين المادراني واحمد بن كيغلغ في جمعٍ من القواد والعساكر ، فتمكن والي مصر بهذهِ القوة من إجلاء جيش الفاطميين عن مصر ، بعد أن حمّلهم خسائر فادحة . وعاد حُباسةَ الى المغرب ، فقتلَهُ المهديّ لفشلهِ

وفي سنة ٩١٥ خلف تكين في مصر ذكا الروميُّ ابو الحسن الاعور . وفي ولايتهِ (٩١٩) عبّأَ المهديّ الفاطميّ جيشاً ثانياً للزحف على مصر بقيادة ابنهِ ابي القاسم ، ففتح الاسكندرية ، وفرَّ الناس من وجه الاعداء الى بلاد الشام . وتوغل الفاتحون في البلاد حتى الاشمونين فيما وراء الفيوم . فجاء مصر « مؤنس » قائد المقتدر باللهِ العباسيّ بجيش كبير ، فتغلّب على جيش ابي القاسم الفاطميّ وردّهُ عن مصر ، ولُقّب مؤنس بالمظفر . وقبل انقضاء تلك الحرب ، مات ذكا الرومي وعاد تكين الى ولاية مصر ثانية ، ثم عزل ، ووليَ ثالثة ورابعة في مدة اثنتي عشرة سنة كانت مصر خلالها في اضطرابٍ مستمرّ

وبعد موت تكين استولى ابنهُ محمد على ولاية مصر (٩٣٤) دون أن يأتيهُ الامر بذلك من الخليفة. فجيَّش محمد بن علي المادراني امير الخراج الجيوش ونازع ابن تكين الولاية. وانقسم الشعب بينهما، فكانت حرب اهلية، زادها هولاً حدوث زلزالٍ شديد أوقع الخراب والدمار في اماكن كثيرة. اما ابن تكين فانهُ انهزم من وجه ابن المادراني الى دمشق. وولَّى الخليفة على مصر محمد بن علي طغج (٩٣٥) فكان هذا رأس الدولة الاخشيدية في مصر

الفصل السادس

الدولة الاخشيدية

(٩٣٥ — ٩٦٠ م) = (٣٢٣ — ٣٥٨ ﻫ)

تولّى الخلافةَ ، بعد القاهر باللهِ ، الراضي باللهِ أبو العباس بن المقتدر (٩٣٣ — ٩٣٩) . وفي أيامـهِ زادت الخلافةُ العباسية ضعفاً : فكانت فارس في يد ابن بويه ؛ والموصلُ وديار بكر في يد بني حمدان ؛ وسوريا وقسم من جزيرة العرب في يد القرامطة ؛ والأندلس في يد عبد الرحمن الأموي ؛ وأفريقيا الشماليـة في يد الفاطميين . ولم يبقَ في يد الراضي سوى بغداد وما والاها

فمهّد اضطرابُ الأمر السبيلَ لظهور الدولة الأَخشيدية في مصر واستقلالها بها مدةً ، حتى تغلّبتِ الدولة الفاطمية

ويرجع أصلُ الأخشيديين الى جفّ الفرغاني ، وقد أتى بهِ الخليفةُ المعتصم بن هارون الرشيد مع من أتى بهم من رجال فرغانة الاشداء . وتُوفيَ جفٌّ في بغداد ، وضرب أولادُهُ في البلاد طلباً للرزق . فاتّصل ابنهُ طغج بعد سنين طويلة بخمارويه صاحب مصر ؛ فولاّهُ طرسوس ، ثمَّ عهد اليهِ بولاية الشام . وبعد مقتل خمارويه ، عاد طغج الى الخليفة المكتفي باللهِ ، فأحسن معاملتهُ ليستميلهُ اليهِ . على أنّ بعض الوزراء

وشى بهِ ، فسجنهُ الخليفةُ ومعهُ ابنهُ أبو بكر محمد . وظلَّ طغج في السجن الى أن مات . أمَّا ابنهُ أبو بكر محمد فقد أُفرج عنهُ بعد موت أبيهِ

ابو بكر محمد الاخشيد (٩٣٥ — ٩٤٦) سافر ابن طغج بعد الإفراج عنهُ الى الشام ، ومنها الى مصر ، حيث اتصل بأبي منصور تكين الخزري . فولّاهُ إقليم الحوف . ثمَّ ترك خدمة صاحب مصر وسار والياً الى الرملة من قِبَل المقتدر ، ثمَّ ولّاهُ الشام (٩٣٠) وولاهُ القاهر مصر (٩٣٣) لكن الاحوال السياسية في الشام حالت دون سفرهِ الى مصر . فأرسل اليها نائباً عنهُ . ولما قام الراضي بالخلافة ، عزل ابن كيغلغ عن ولاية مصر ، وولّى بدلاً منهُ أبا بكر محمداً (٩٣٥) ، فغادر الشام الى الديار المصرية . على انَّ ابن كيغلغ أبى التنازل لهُ عن الامارة . فجرت مواقع بين رجال الفريقين ، انجلت عن انتصار محمد وفرار ابن كيغلغ الى برقة ومنها الى القيروان حيث انضمَّ الى الفاطميين فاستتبَّ الأمرُ لأبي بكر محمد ؛ ودعاهُ ما كانت عليهِ الدولةُ العباسية من تبلبل الاحوال الى إعلان استقلالهِ في مصر . فلم يرَ الخليفة بداً من الاعتراف لهُ بذلك ، ولقبّهُ بالأخشيد ، فكان رأس الدولة الاخشيدية . ومعنى الأخشيد « ملك الملوك » ؛ وهو لقب ملوك فرغانة ، التي جاءت منها هذه العائلة

وفي سنة ٩٤٠ سار محمد بن رائق صاحب فلسطين الى غزو الشام ، وكان عليها الامير بدر بن عبد الله الأخشيدي من قبل الأخشيد ، فحاربهُ وهزمهُ واحتلَّ دمشق وحمص فاناب محمد الأخشيد عنهُ في مصر أخاهُ الحسن ، وذهب لنجدة الأمير بدر . وقبل التقاء الجيوش توسط بعض

الامراءِ بالصلح ، فتصالح الخصمان وعاد الاخشيد الى مصر . ولكن ابن رائق نقض عهد الصلح ، وخرج زاحفاً على مصر . فقابلهُ الأخشيد بجيوشهِ ، وجرت بينهما موقعةٌ في العريش ، وأخرى في اللجون ، على مسافة عشرين ميلاً من طبرية . فاستولى الأخشيد على الرملة وقُتِل اخوهُ الحسين . فأرسل ابن رائق ابنهُ مزاحماً بكتابٍ اليهِ يعزّيهُ فيهِ عن اخيهِ ، ويعتذر اليهِ عما كان . فأكرم الاخشيد وفادة ابن خصمهِ ، وانتهى الخلاف بينهما على ان تكون بلاد الشام حتى الرملة لابن رائق ، ومن الرملة الى مصر للاخشيد ، وعلى أن يدفع هذا لصاحب الشام سنوياً ١٤٠,٠٠٠ دينار . وتزوّج مزاحم بابنة أمير مصر ، فتوثقت روابط الاتفاق بين الأميرين

وقام بالخلافة ، بعد الراضي ، أخوهُ المتقي (٩٤٠) فثبّت الأخشيدي في إمارة مصر . وبعد ذلك بسنتين ، فتك الحمدانيون ، أصحابُ الموصل وديار بكر ، بابن رائق ؛ فلم يشأ الأخشيد ان يتركَ لهم ما كان لحليفهِ ، فسار في بلاد الشام حتى دمشق ، ووطّد سلطتهُ في الأقطار السورية وقد عهد المتقي اليهِ بحكم مكة والمدينة ايضاً . ثمَّ عاد الى مصر حيث وضع مبدأَ الوراثة في الإمارة ، وحمل قوّادهُ ورجال إمارتهِ على الاعتراف بابنهِ أبي القاسم أنوجور أميراً بعدهُ

وفي تلك الاثناء حدث في بغداد نزاعٌ على السلطة بين الخليفة المتقي وتوزون التركي الملقَّب بأمير الأُمراء . فاضطُّر الخليفةُ الى مغادرة بغداد والسير الى الموصل ، حيث استنجد بالحمدانيين ، وعليهم يومئذٍ

سيف الدولة ، على ان توزون غلبهم ، وعَرَض على الخليفة أن يعود الى بغداد . وسار الأخشيد من جهتهِ الى الخليفة يدعوهُ إلى مصر ، فزاد ذلك في سعي توزون الى استرضاء الخليفة لئلا ينفرّ المسلمين منهُ فينضمّوا الى صاحب مصر ، فذهب الى الخليفة بنفسهِ ، وتوسّل اليهِ ، أن يتناسى الماضي ، ويعودَ الى دار الخلافة . فأجابهُ الخليفة الى ذلك ، وعاد معهُ الى بغداد آمناً . على ان توزون خلعهُ حين وصولهِ ، وولّى مكانهُ أبا القاسم المستكفي (٩٤٤) . ولم يلبث هذا ان عُزِل وأُلحق بسلفهِ . وقام بالخلافة بعدهُ المطيع لله بن المقتدر (٩٤٦ — ٩٧٤)

ولما لم يتمكن الأخشيد من إقناع الخليفة باتخاذ مصر مقرًّا لهُ ، عاد الى الفسطاط . ولم يلبث ان جاءهُ خبر استيلاء سيف الدولة الحمداني على حلب ، فأرسل لمقاتلتهِ جيشاً بقيادة ابي المسك كافور ، فهزمهُ سيف الدولة وأسر من رجالهِ اربعة آلاف ؛ وفرّ كافور الى دمشق ، فسار اليها سيف الدولة لفتحها . فاستكبر الأخشيد الأمرَ وسار من مصر بجيشٍ عظيم ، والتقى بجيش سيف الدولة في قنّسرين ، فجرى بين الفريقين مواقع لم يكن من ورائها انتصارٌ تامّ لاحدهما ، فعقدا الصلح في دمشق وتعاهدا على أن تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة ، وان تظلّ البلاد من حدود حمص الى حدود جزيرة العرب لمحمد الاخشيد وتزوج سيف الدولة بابنة حليفهِ

وتوفيَ الأخشيد سنة ٩٤٦ في دمشق ، ودُفن في القدس الشريف . وقد وجّهَ عنايتهُ في كل أيام حكمهِ الى توطيد الدولة التي أسّسها في مصر ،

وجعلَ الإمارة وراثيَّة في عائلتهِ ؛ وقد أظهر في ما باشرَهُ من الأعمال والحروب حزماً وحسنَ تدبير

انوجور ابو القاسم (٩٤٦ — ٩٦١) — تولّى الحكم بعد أبيهِ محمد الأخشيد، وهو في الرابعة عشرة من عمرهِ ؛ وكان ضعيفَ الرأي ؛ فأخذ كافور على عاتقهِ تدبيرَ الملك، وجعلَ لأنوجور ٤٠٠،٠٠٠ دينارٍ في السنة، وأقام محمدَ بن عليّ المادرانيّ جابياً على الخراج، فتولاّهُ بعفةٍ واستقامة

ولما علم سيفُ الدولة بموت الأخشيد، أتى بجيشهِ الى دمشق واستولى عليها. فحارَبهُ كافور، وأجلاهُ عنها (٩٤٧)، واستولى على حلب وطرسوس، وعاد ظافراً غانماً. ولم يكن في مصر على عهد أنوجور من الحوادث ما يُذكر سوى حريقةٍ هائلة وزلازلَ شديدة (٩٥٤). ولما تُوُفي حُمل الى القدس، ودُفن في مدفن أبيهِ

ابو الحسن على بن محمد الاخشيد (٩٦١ — ٩٦٥) — تولى بعد أخيهِ، وكان شأنهُ في الملكِ كشأنهِ، وظلّ كافور قائماً بتدبير الحكومة والرعية. وحدثت في عهد أبي الحسن مجاعةٌ في مصر بسبب قلة ماء النيل. وغزا ملكُ النوبة مصر (٩٦٣) حتى بلغ أخميم، فوجَّهَ اليهِ كافور جيشاً في البرّ والبحر قطع عليهِ خطّ الرجعة، واضطرَّهُ الى الفرار. وانتهز القرامطةُ فرصةَ انشغال الجيش المصريّ بمقاتلة النوبيين، فأغاروا على البلاد السورية، وظلوا مدةً فيها ينهبون ويسلبون

وفي سنة ٩٦٥ وقع خلافٌ بين كافور ومولاهُ، فلم يلبث أبو الحسن أن مات بالعلة التي مات بها أخوهُ

أبو المسك كافور (٩٦٥ — ٩٦٨) — كان كافور منذ وفاة الأخشيد حاكم مصر ووليّ أمرها بالفعل إن لم يكنهُ بالاسم . فلمّا مات أبو الحسن، طلبَ كافور الى الخليفة المطيع للهِ أن يوجّه اليهِ الإمارةَ ، حتى يجعل لحكومتهِ صفةً رسمية . فأجابهُ الخليفةُ الى طلبهِ ، فعادت بذلك سيادة العباسيين على مصر

أمّا كافور هذا فكان عبداً أسود ، اشتراهُ الأخشيد بثمنٍ بخس ، ثم رأى فيهِ من الكفاءةِ ما حملهُ على أن يعهدَ اليهِ بالوصايةِ على ولدَيهِ . وكان كافور حسنَ التدبير ، شديدَ البطش ، حازماً حكيماً ، ولعاً بالترف والموسيقى . وقد تعلّم وتثقّف في كبرهِ ، وأحاط علماً بالشرع والشعر ، وقرّب اليهِ العلماء والادباء ، وأجزل لهم العطاء . وكان من شعرائهِ ابو الطيّب المتنبي المشهور . ودُعيَ لهُ على المنابر في مصر والحجاز وسوريّا حتى موتهِ (٩٦٨) ودُفن في القرافةِ الصغرى ، وقبّتهُ معروفة هناك

أحمد أبو الفوارس (٩٦٨ — ٩٦٩) — أجمع امراء البلاط على تعيين أحمد بن عليّ بن محمّد الأخشيد خليفةً لكافور ، وكان عمرهُ إحدى عشرة سنة ، فدعوا لهُ في مساجد مصر وسوريّا والمدينة دون استشارة الخليفة ، وعهدوا بأمرِ الخراج إلى أبي الفضل جعفر بن الفرات ، وبقيادة الجيوش الى سمول الأخشيدي ، وبولاية العهد الى الحسين بن عُبيد اللهِ بن طَغج . وشدّد ابنُ الفرات في جباية الخراج ، وأساء سمول تدبير الجيش ، فكانت ثورةٌ داخلية انتهت باستلام الحسين بن عبيد الله زمامَ الأحكام . ورأى المعزّ لدين اللهِ ضعفَ مصر واضطراب احوالها . فطمع

في احتلالها وأرسل جيشاً بقيادة جوهر الرومي، فدخل الفسطاط (٩٦٩)، وفرَّ الحسين بن عبيد الله الى سوريّا، واستولى على دمشق. أمّا جوهر فتسلَّم مصر، وعزل أحمد أبا الفوارس آخرَ الحكّام الأخشيديين

مضى على دخول العرب الى مصر نحو من ٣٣٠ سنة، واعتنق كثيرٌ من المصريين الأصليين دين الفاتحين، وامتزجوا بهم بالزواج؛ فكان من هذا الامتزاج مصريّو اليوم. ولم يقم منهم في ذلك العهد عظيمٌ يُذكر، بل تولاهم امراء أجانب، كابن طولون والأخشيد وكافور، قصروا همَّهم على الاحتفاظ بالحكم، فلم تتقدَّمْ مصر في عهدهم لانشغالها بالحروب والفتن. وروى المقريزي أنَّ ضرائب الأراضي الزراعية كانت في ذلك العهد في انخفاضٍ مستمرّ. وفي ذلك دليلٌ كبير على إهمال الحكام. وقد انصرف هؤلاء كلَّ الانصراف الى تحسين العاصمة فوسَّعوها وزيَّنوها. ولم يكن حظُّ العلوم في ايامهم بأحسن من حظّ الزراعة، فلم تبلغْ مصر ما بلغتهُ بغداد ودمشق وقرطبة في ذلك العهد، برغم مَن أمَّها من العلماء والأُدباء. وممَّن اشتهر فيها بالأدب والعلم الطَّبري المؤرخ الشهير، وكان معاصراً لخمارويه؛ والمسعودي، وكان معاصراً للاخشيد؛ والمتنبي، وكان معاصراً لكافور

الفصل السابع

الدولة الفاطمية

(٩٦٩ – ١١٧١ م) = (٣٥٨ – ٥٦٧ هـ)

الفاطميُّون من سلالة اسماعيل الإمام السادس من سبط علي ، وينتسبون الى فاطمة ابنة النبي ، ومنها اسمهم ، كما انهم يسمَّون بالعلويين نسبة الى علي ، وبالاسماعيليين نسبةً الى اسماعيل . وقد قام الخلفاء الفاطميون في المغرب (٩١٠) ، فاستولوا على شمالي افريقيا وغربيها ، بينما كان الخلفاء من بني العباس في بغداد ، والخلفاء من بني أُميَّة في الأندلس . وهكذا كان ثلاثة خلفاء في آنٍ واحد يدَّعي كلٌّ منهم انهُ الأحقُّ بالخلافة

وأول خليفةٍ قام من الفاطميين أبو محمد عُبيد الله المهدي (٩١٠ – ٩٣٤) ، ورغب ، بعد ثبوت قدمهِ في القيروان وسواحل الغرب ، في الاستيلاء على مصر ، فسيَّر اليها جيشاً عاد منها مكسوراً كما تقدم في الكلام على خلافة المقتدر باللهِ . وخلف المهديَّ ابنهُ أبو القاسم القائم بأمر اللهِ (٩٣٤ – ٩٤٦) ، وطمع كأبيهِ بفتح مصر ، فلم يتمَّ لهُ متمنَّاهُ . وقام بعدهُ أبو الظاهر اسماعيل المنصور ، وخلفهُ ابنهُ المعزُّ وهو الخليفة الفاطميّ الذي تمَّ لهُ فتحُ مصر

المعزُّ لدين اللهِ – (٩٥٣ – ٩٧٥) – رأى المعزُّ لدين اللهِ ما كانت

عليه مصر في أيامه من ضعف الجانب ، فعزم على فتحها ، لا سيَّما وانهُ أمِنَ وجود من يناوئهُ عليها لانصراف سوريَّا الى صدّ غارات القرامطة ، ولانشغال الخلفاء العباسيين في الفتن الداخلية ؛ فسيَّر جوهراً الروميّ في جيشٍ عظيم الى الاسكندرية عن طريق القيروان (٩٦٩) ؛ فأنفذ اليهِ الاسكندريون وفداً لمفاوضتهِ في الصلح ، فصالحهم . ثمَّ مشى على الفسطاط ، وقد استعدَّت لمقاومتهِ ، وجرت معركةٌ في الجيزة هُزِم فيها المصريُّون ، وطلبوا الصلح ، فاشترط جوهر عليهم التسليمَ والخضوع ؛ فأجابوهُ الى ذلك ، وقتلوا بعض الزعماء الذين حاربوهُ وأرسلوا رؤوسهم اليهِ استرضاءً لهُ . فدخل جوهر الفسطاط ، ووضع أساس قصرٍ منيع للمعزّ ، الى الشمال الشرقي من الفسطاط . ثم اختطَّ على مسافةٍ قصيرة من القصر مدينةً جديدةً سمَّاها « القاهرة » تفاؤلاً بقهرها الدنيا

وبعث جوهر على أثر ذلك بشائر النصر الى المعزّ ، وضرب النقود باسم الفاطميين ، وخطب لهم في الجوامع ، وأعاد السكينة والنظام الى مصر ؛ على انَّ الفاقة ظلَّت منتشرة في البلاد نحواً من سنتين . وتفشى يومئذٍ الطاعون تفشياً مخيفاً ، فأمات من المصريين الوفاً

وكان جوهر يجلس مرةً في الاسبوع للنظر في شكاوي الناس وإنصافهم . وأقام في كلّ دائرة من دوائر الحكومة عمّالاً من المغاربة والمصريين ليضمن ، باجتماع الفريقين ، رفعَ الحيف . فكان عدلهُ من أعظم الأسباب التي أيّدت الفاطميّين في مصر . وهو الذي بنى الجامع الأزهر (٩٧٠ — ٩٧٢)

وحاول حاكمٌ من سلالة الأخشيديين في مصر السُفلى مقاومة الفاتحين ، فقبض جوهر عليهِ وقتلهُ عبرة لسائر الحكاًم.

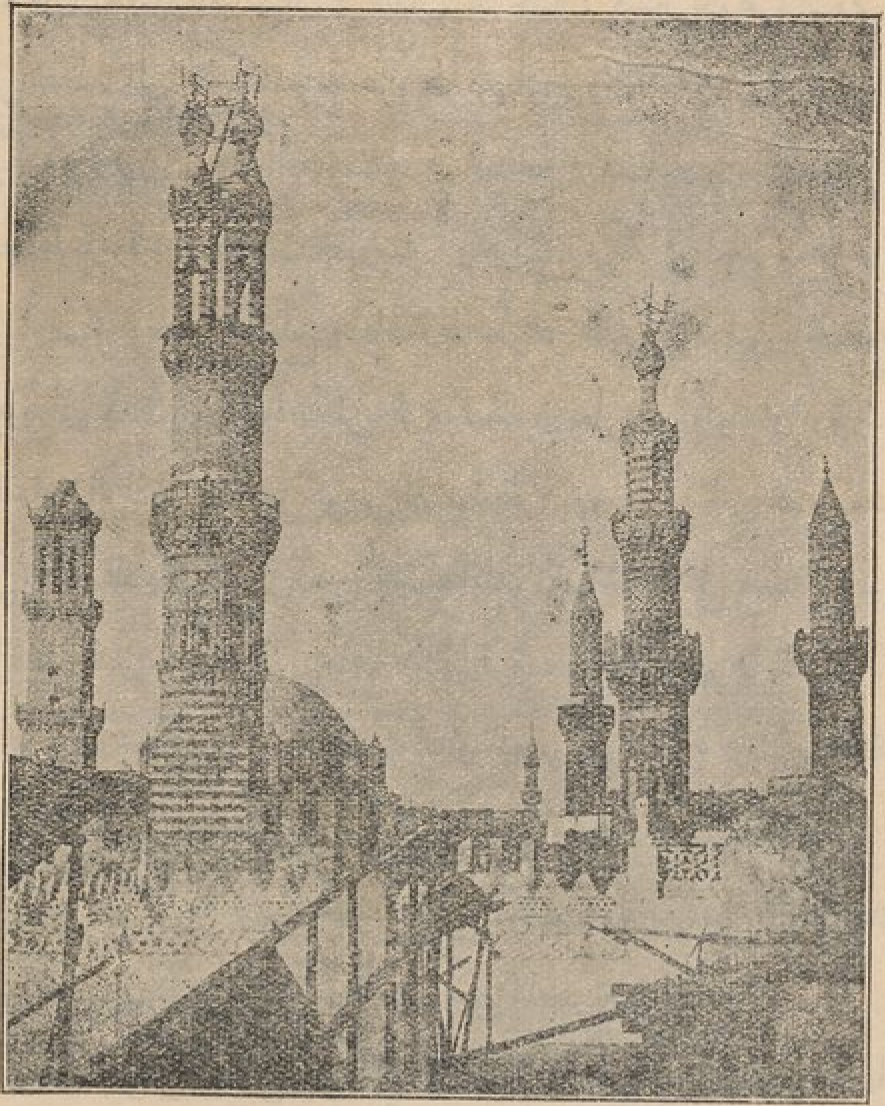

(الجامع الازهر الشريف)

وكان على النوبة ملكٌ يُدعى جورجيوس ، فأوفد اليهِ جوهر من يسألهُ اعتناق الاسلام ودفعَ الجزية . فرضيَ بالجزية ، وأبى الاسلام وامتدَّت سيادة المعزّ الى مكة والمدينة والحجاز ، فدُعيَ لهُ في

جوامعها ، وخضع له الأمير الحمداني ، حاكم سوريًا الشمالية ، نابذاً سلطة العبّاسيين . ولم يجد المعزّ مقاومةً إلاّ في سوريًا الجنوبيّة حيث كان قد بقيَ للأخشيديين بعض الشأن . فمشى عليها جيشُ المعزّ ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً ، وأخضع دمشق وما جاورَها للفاطميين . وحدث انّ حسن بن أحمد الأعصم ، قائد القرامطة ، قدم الى دمشق لجمع الضرائب عنوةً ، وقد أعانهُ أمير العراق البويهي بالمال والسلاح ، وابو تغلب الحمداني صاحب الرملة ، بالرجال ، وايّدته قبائل من العرب ، فقاتل الفاطميين وتغلّب عليهم . ثمّ أغار على مصر (٩٧١) فحصّن جوهر العاصمة ، وتمكن من كسر الأعداء ، وفرّ الأعصمُ تحت جنح الليل الى القلزم ، تاركاً أمتعتهُ ورجالهُ فريسةً للفاطميّين ؛ وقد أسرَ هؤلاء كثيرين من دُعاة الأخشيديين الذين كانوا يقاتلون في صفوف الاعداء . وكان المعزّ قد أرسل من المغرب الى جوهر جيشاً بقيادة ابن عمّار ، وقد استولى القرامطة على حصنٍ في تينيس ، فهاجمهُ ابن عمّار ، وهزم أصحابهُ ففرّوا الى دمشق حيث جمعوا جموعهم وأخذوا يتأهبون لغزو مصر مرّةً أُخرى ، فأوجس جوهر خيفةً ، وأرسل يُخبر المعزَّ بما يتهدّد مصر من الخطر فأسرع الخليفة الى البلاد المصريّة (٩٧٣) واتخذ القاهرةَ مقرًّا لهُ ، فاصبحت من ذلك العهد عاصمةً للفاطميين

وفي سنة ٩٧٤ زحف الأعصم على مصر وانضمّ اليهِ كلُّ من ظلّ محافظاً سرًّا على ولاء الأخشيديين . ورأى المعزّ عدوّهُ أقوى منهُ ، فرشا أحدَ قوّاد الأعصم بمئة الف دينارٍ على أن ينهزم عنهُ . ثم استكثرَ المال ،

فضرب دنانير من صفر ألبسها ذهباً ، ووضعها في قعر الأكياس ، والذهب الخالص فوقها . ولمَّا كان يوم القتال ، تقهقر المرتشي ، فانهزم القرامطة ، وقُتِل منهم عدد غفير ، وفرَّ الباقون إلى سوريّا حيث وقع بين القوّاد خلافٌ شتّت شملهم . وظلّت دمشق بعد ذلك في اضطراب الى أن استولى عليها الأمير التركيُّ افتكين ، وأعادَها للعباسيين ، ثمّ فتحها الفاطميون بعد أن فتحوا بيروت ؛ فاصبحت سوريّا تحت سلطة المعزّ ، وأقيمت لهُ الدعوة في المغرب كلهِ ، وفي مصر والشام والحرمين وفي بعض أعمال العراق

ومات المعزُّ سنة ٩٧٥ ، وكان يقظاً عادلاً جوّاداً عالماً . وقد وطّدَ الدولة الفاطمية بما أظهرهُ من الحنكة والاهتمام بجمع الكلمة . واعتنى بجيوشهِ عنايةً كبرى ، وبنى عمارةً بحرية بلغت ست مئة سفينةٍ ، وسهر على نظام دواوين حكومتهِ ، وساوى بين الرعية ، وزيَّن القاهرة بالقصور والمدارس والمساجد ؛ ورأى ارتباك مالية المملكة فعمد الى إصلاحها وحفر الترَع ، فحسُنَ الريّ ، وكثرت الغلال وزاد الدخل ، وعزل عن جباية الأموال كلّ من ظلم وارتشى ، وحفر في القاهرة خليجاً لا يزال مكانهُ معروفاً الى يومنا

العزيز باللهِ (٩٧٥ — ٩٩٦) — بويع العزيز باللهِ بعد وفاة أبيهِ ، فترك قيادة الجيش لجوهر ، واستوزر يعقوب بن كلّس ، وأطلق يدهُ في تنظيم دواوين الحكومة وماليتها . وكان يعقوب على جانبٍ عظيم من الدراية ، فتوفّرت في البلاد أسباب الثروة والفلاح

وفي سنة ٩٧٦ استعاد افتكين التركي دمشق بجيشٍ من القرامطة، فوجَّه اليهِ العزيز قائدَهُ جوهراً فخالف النصر الفاطميين مدةً ، ولكنَّ افتكين انتصر عليهم أخيراً في الرملة وعسقلان ، وتقهقر جوهر الى حدود مصر حيث التقى بالخليفة وقد جاء بجيش كبير لنجدتهِ ؛ فعاودوا الكرَّة على القرامطة وكسروهم ، وأسروا افتكين . وقد غمر العزيز اسيرهُ بالنعم الى ان توفي (٩٨٢) وشاع ان الوزير ابن كلّس قتلهُ بالسُّم غيرةً وحسداً، فاعتقل الخليفة وزيرَهُ اربعين يوماً ، ولكنّهُ لم يستغنِ عنهُ ، فأطلق سراحهُ

وكان للعزيز باللهِ زوجةٌ مسيحية ، فاصاب المسيحيين نصيبٌ وافرٌ من عنايتهِ ، واتخذ له منهم عمّالاً وأخصاء ، وأذن للأقباط في تجديد كنيسة ابي السيفين خارج الفسطاط . وكان ميّالاً الى حقنِ الدماء والصفح عن الأعداء ، وقد عرف قدرَ وزرائهِ وعمّالهِ ، ولم يبخل عليهم بثقتهِ ونعمهِ ، فانهُ جعل لوزيرهِ يعقوب بن كلّس مئة الف دينار في السنة . ولمَّا تُوفيَ هذا الوزير أمرَ الخليفة باقفال دواوين الحكومة ١٨ يوماً حداداً عليهِ ، وأبقى لعائلتهِ وخدَمهِ ما كان لهُ من المرتبات في حياتهِ . وقد قامت في أيامهِ مبانٍ كثيرة منها مسجد لأُمهِ في القرافة . وفي سنة ٩٩٢ توفي القائد جوهر بعد أن أنشأ في الأزهر بأمر العزيز مكتبةً نفيسةً ومدرسةً لا تزالُ من أشهر المعاهد العلمية . ومات العزيز باللهِ في بلبيس . وكانت أيام خلافتهِ أيامَ رخاء وصفاء . وقد أُقيمت لهُ الدعوة في المساجد من الاوقيانوس الاطلانتيكي الى البحر الأحمر وفي اليمن وفي مكة . وهو اوّل خليفة فاطمي أتى الى بلاطهِ بأتراكٍ ورفع قدرهم

الحاكم بأمر الله (٩٩٦ — ١٠٢١) — خلف العزيزَ ابنهُ المنصور أبو علي من زوجتهِ المسيحية ، ولُقّبَ بالحاكم بأمر الله . وكان في الحادية عشرة من عمرهِ ، فقام بتدبير الملك بالوصاية عنهُ برجوان الخادم عملاً بوصية العزيز . وتولى قيـادةَ الجيوش أبو محمد الحسن بن عمّار سيّد كتامة ، ولُقّب بأمين الدولة . وكان رجلاً حازماً توّاقاً الى العلى ، فاستأثر شيئاً فشيئاً بحكم البلاد ، وكفّ يدَ الوصيّ برجوان عن العمل ؛ وقد سعى جهدَهُ الى رفع شأن الكتاميّين وإضعاف شوكة الأتراك ، فأكثر الكتاميون من الاعتداء عليهم ، وامتدّت أيديهم الى أموال الناس ، وآل ذلك الى وقوع قتال بين الفريقين انتهى بكسر شوكة الكتاميين وصرفِ ابن عمار عن منصبهِ واستئثار أتباع الحاكم بخزائنهِ وأموالهِ

وعاد الأمر الى برجوان ، فأهمل شؤون الدولة ، وانصرف الى الملاهي والملذات ؛ فثقل أمرُهُ على الحاكم فقتلهُ

وكان الحاكم بأمر اللهِ في تلك الاثناء قد انتصر على الروم في سوريا مرّتين متواليتين ؛ ثمّ عقد معهم معاهدةً لعشر سنوات (٩٩٨) . على ان سوريا ظلّت مضطربةَ الأحوال رغم اقامة الدعوة للحاكم في جوامعها وفي مساجد وادي الفرات من الموصل حتى الكوفة ، وفتحِ الجيش الفاطمي حلب (١٠١١)

وحدث في سنة ١٠٠٥ أنّ رجلاً من بني أُميّة يُدعى أبا ركوة أتى من الأندلس زاعماً أنهُ من سلالة هشام بن عبد الملك بن مروان ، ودعا الناس الى مبايعتهِ بالخلافة ؛ فانضمّ اليهِ كثيرون . فأرسل الحاكم جيوشهُ

لقتاله، فهزمهم أبو ركوة في برقة وتسلّمها ودخل الديار المصرية حيث كسر الجيوش الفاطمية في الجيزة، وتوغّل في الصعيد. وفي سنة ١٠٠٧ كانت بينهُ وبين جيوش الحاكم معركةٌ أخرى انجلت عن هزيمتهِ الى النوبة؛ فطاردوهُ حتى قبضوا عليهِ وأتوا بهِ الى القاهرة حيث قتلوهُ

وتولّى الحاكم الخلافةَ خمساً وعشرين سنة لم تسترح في خلالها مصر من جورهِ وظلمهِ، ولم تكن تسكن فيها الفتنة حتى تشبّ الأُخرى. وكان يعقد مجلسهُ في الليل، ويطوف القاهرة على حمارهِ ليلةً بعد ليلة متجسّساً أفكار رعاياه؛ وسنّ قوانين صارمةً في المأكل والمشرب، وحرَّم تعاطي الخمور والمقامرة واللهو، وأمر بقتل الكلاب أينما وُجدت. وكان يعاقب كلَّ من عصى أوامرَهُ بالقتل أو بالجلد والتعذيب الأليم. وقيل إنهُ كان في عقلهِ دخَلٌ أو مسٌّ من الجنون، فلم تكن لأعمالهِ رابطة قط؛ فبينا كان يستوزر وزيراً اذا بهِ كان يقتلهُ على الأثر، وبينا كان يحرّم امراً اذا بهِ كان يحلّلهُ. وكان في السنين العشرِ الأولى من خلافتهِ قد ترك لليهود وللنصارى الحريةَ التامة في عبادتهم ومعتقداتهم، ثمَّ عاد الى اضطهادهم اضطهاداً شديداً وخيَّرهم بين الاسلام والرحيل عن البلاد. وازدادت الأحوال سوءًا في آخر عهدهِ، فهاجر من المصريين عددٌ غفير، وتوقّف سير الاعمال، وتشبّع هواء البلاد من روح الثورة

وكان قد نهى النساء عن الخروج من منازلهنّ؛ واتفق انهُ رأى يوماً امرأةً في زقاق من أزقّةِ الفسطاط فاتّقد غضباً، وقبض عليها، فاذا بها تمثال امرأةٍ مصنوع من ورق؛ فزاد بهِ الغضب، وأمر رجالهُ من

السودانيين باحراق المدينة ؛ فهبّ أهلها دفعة واحدةً الى السلاح وقاتلوا السودانيين ثلاثة ايام أُحرقَ خلالها نصف الفسطاط ، وأُسرت من النساء كثيرات ، ونُهبت البيوت . وفي سنة ١٠١٨ بلغ بالحاكم الهوس الى حدّ انهُ ادّعى الألوهية ، واضطهد الاسلام ، وزجر الناس عنهُ ، واتخذ شيعةً جديدة ، وأشياعاً أصفياء ، أشهرهم حمزة ودرزي . وقد آمن فريقٌ بشيعتهِ وثار عليها آخرون ، وانتهى الأمر بوقوع ثورة دينية (١٠٢٠) قُتِل فيها كثيرون من دُعاتهِ . وأراد المسلمون قتْلَ دَرَزي ففرَّ الى وادي التَّيم بقرب جبل لبنان ، حيث نشرَ الدينَ الجديد . والتفَّ حولهُ أتباعٌ يُعرفون اليوم بالدُّروز . وأراد الحاكم أن يُضعِفَ شوكةَ المسلمين فجامل النصارى وأعاد لهم ما كانوا قد سُلبوهُ

ولم يصبر الاتراكُ على اعتداء السودانيين ، فاتَّحدوا مع الكتاميين عليهم وحاربوهم وهزموهم وأعادوا الى البلاد بعض الأمن . ورأت «سيّدة الملك» أُخت الحاكم جورَ أخيها وارتباكَ أُمورهِ ، فنصحت لهُ بأن يعتدل في سياستهِ فقابل نصحها بالإعراض ، فانضمّت الى أعدائهِ

وفي سنة ١٠٢١ قُتِل الحاكم على طريق المقطّم ولم يعثر أحدٌ على جثّتهِ ، وانّما وَجدَ بعضُهم ثوبهُ مزرّراً ، كما لو كان ملبوساً ، وفيهِ آثارُ عدّةِ طعناتٍ . فقال أشياعهُ إنّهُ انتقل عن الدنيا وسيُبعَثُ حياً . وجهل الناسُ قاتليهِ ، فقيل إنّ أُختهُ قتلتهُ بالاتفاق مع قائدٍ من بني كتامة يُدعى ابن دواس

١ كان الحاكم بأمر اللهِ طاغيةً ظالماً ولكنّه كان ولعاً بالعلوم والآداب ؛

فانشأ مكتبةً بجوار القصر الغربي دعاها « دار الحكمة » ، وجمع فيها أثمنَ الكتبِ ، وأكثر فيها من معدَّات التعليم، وأتى لها بأمهر أساتذة عصرهِ، وأَباح الدرسَ والمطالعة فيها . وكان أصحابهُ ومريدو شيعتهِ يختلفون اليها كثيراً . وبنى أيضاً مرصداً على المقطّم وجوامع كثيرة منها جامعهُ المعروف باسمهِ في باب النصر . وكان أبوهُ قد أسَّسهُ سنـة ٩٩١ ، فاتمَّ بناءَه سنة ١٠٠٣ وهو اوَّل خليفةٍ فاطميّ اتخذ بوليساً سرياً ، وجواسيس من الرجال والنساء

الظاهر بن الحاكم (١٠٢١ — ١٠٣٦) — بايعهُ الامراءُ بعد مقتل أبيهِ ، وهو في السادسة عشرة من عمرهِ ؛ فقامت عمتهُ « سيدة الملك » ، بتدبير أمر الدولة أربع سنوات قتلت في خلالها قاتلَ أخيها وأميرين آخرين

ولما ماتت خلا الجوُّ للأمراء فحكموا كما شاءوا ، بينما كان الظاهر منصرفاً الى اللهوِ . وجاء فيضانُ النيل ناقصاً عن حاجة البلاد (١٠٢٥) فاشتدَّ الغلاءُ وكثر السلبُ ، وفشت الأمراض فمات كثيرون جوعاً ، واستغاث الناس بالخليفة فلم يستطع إعانتهم لخلوّ خزينتهِ من المال . وما زالت الشدةُ متمكنةً من البلاد حتى سنة ١٠٢٧ اذ جاء منسوب النيل وافياً فتوفرت الاموال وزال الوباء . وعقد الظاهر في تلك السنة معاهدةً مع صاحب الروم قسطنطين الثامن ، فأذن الامبراطور في الدعاء للخليفة في مساجد بلادهِ ، وأعاد بناء الجامع في القسطنطينية ، فأعاد الظاهر كنيسة القيامة في القدس ، وأذن للذين اعتنقوا الاسلام كرهاً على عهد الحاكم بأمر اللهِ في ان يعودوا الى دينهم

وحدثت فتنةٌ بين الاتراك والمغاربة قُتل فيها كثيرون . وقام في الرعية اضطرابٌ نجم عن قتل الظاهر لأحد الدعاة . ولكنَّ الخليفة استرضى الثائرين بما بذلهُ لهم من الهبات

وكانت سوريا في أوَّل عهدهِ تكادُ تكون خارجةً عن حكمهِ . وقد استولى صالح بن مرداس سنة ١٠٢٥ على حلب وما يليها ، وأغار حسَّان ابن جرَّاح الطائيّ على اكثر بلاد الشام وفلسطين ، وطمع غيرهُ في دمشق فسار اليهم متولي قيسارية من قبل الظاهر وهزمهم ، وقتل صالحاً ، وأَعاد القسم الاكبر من سوريا الى حكم الظاهر

وكان الظاهرُ طاغيةً كأبيهِ وقد عنيَ بتعليم مماليكهِ العلوم الراقية وفنون الحرب . وفي سنة ١٠٣٦ فشا الطاعون في الديار المصرية ومات بهِ الملك الظاهر

المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) — بويع بعد الظاهر ابنهُ أبو تميم معدّ وهو في السابعة العاشرة من عمرهِ . وكان جاهلاً بامور الملك والسياسة فاستخفَّ بهِ عمالهُ ، ولعبَ بهِ وزراؤه

وكانت افريقيا الشمالية حتى ذلك الحين تابعةً للفاطميين ، يحكمها امراء من المغاربة يقيمون في المهدية قاعدة الخليفة المهدي الفاطمي ، ويخطبون للخلفاء الفاطميين ، ويؤدون لهم الجزية . وفي سنة ١٠٤٦ خرج أميرهم المعزّ عن طاعة المستنصر ، وأقام الدعوة للخليفة العباسي ، وأخذ منهُ عهداً يُثبّتهُ في إمارتهِ . وأرسلت الحكومة المصرية لاخضاعهِ

قبيلة بني هلال ، فهزمتهُ عن طرابلس وبرقة . على ان المعزّ ظلّ في المهدية مستقلاً بأمرهِ

وكان بنو مرداس قد استعادوا حلب ، فسار اليها سنة ١٠٣٨ متولّي دمشق من قِبَل المستنصر واسترجعها منهم ، وأخضع سوريّا الشمالية ما عدا الاملاك الرومانية . وفي سنة ١٠٥٩ وُلي دمشق ناصر الدولة بن حمدان فلم يستطع الاحتفاظ باملاك الفاطميين في الشام ؛ فثارت فلسطين ثانيةً ، واستعاد بنو مرداس حلب ، فخرج عليهم ناصر الدولة مرتين (١٠٤٨ و ١٠٤٩) . ولكنهُ لم يظفر منهم بطائل . على أن معزّ الدولة المرداسي خضع سنة ١٠٦٠ للمستنصر من تلقاء نفسهِ ، وأهدى اليهِ ٤٠٠,٠٠٠ دينار . ولكن خليفتهُ استقلّ بحلب وكان ذلك آخر عهد الفاطميين بها

وفي سنة ١٠٥٨ أخضع القائد البساسيري بغداد للمستنصر ، وأقام لهُ فيها الدعوة ، وطرد منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله . وفي سنة ١٠٥٩ أُقيمت الدعوة للمستنصر في البصرة وما جاورها ، فخاف السلجوقيون شرّ العاقبة ، وصار زعيمهم طغريل الى بغداد فأعاد اليها الخليفة القائم بأمر الله ، وقتل القائد البساسيري . وفي سنة ١٠٧١ فتح السلجوقيون فلسطين ، ودخلوا القدس ، وحاصروا دمشق خمس سنوات (١٠٧١ — ١٠٧٦) ثم دخلوها وقطعوا الخطبة منها للمستنصر

وحدث في تلك الاثناء أن رجلاً اسمهُ سَكين أجاز على الناس انهُ الحاكم بأمر اللهِ ، وكان شبيهاً لهُ بالصورة ، فشايعهُ في دعواهُ من اعتقدوا

بوجوب بعثة الحاكم ، فهاجم بهم دار الخليفة يريد اغتيالهُ ففُشل (١٠٤٣)

وكان المستنصر ضعيف الجانب ، وكانت أمهُ جاريةً سوداء لتاجرٍ يهودي يسمى أبا سعدٍ سهل ؛ فقرّبت السودانيين ، أبناء جلدتها ، وحاربت بهم الأتراك . وكانت لهـا الكلمة النافذة في تعيين الوزراء وعزلهم ؛ فما زالت تولي وتقتل الى ان قام بالوزارة اليازوري (١٠٥٠ — ١٠٥٨) فأخذ باصلاح حالة البلاد الاقتصادية ، ولكنـهُ ارتكب خطأً فاحشاً اذ باع ما كان في خزائن الحكومة من القمح غير عابىء بكوارث الأيام . ثم اتفق ان فيضان النيـل جاء ناقصاً فأمحلت الزراعة ، وعمَّت المجاعة ، وانتشر الوباء فكان يموت نحو ألف نفسٍ يومياً . واغتنم الروم هذه الفرصة فانحازوا الى الخليفـة العباسي ؛ فاغتصب المستنصر انتقاماً كنوز كنيسة القيامة في اورشليم . وكان اليازوري ، كل أيام وزارتهِ ، يضطهد الاقباط ، ويشدد عليهم في الضرائب . وحملهُ كرهـهُ لهم على اتّهام بطريركهم بأنهُ أغرى ملك النوبة على رفض دفع الجزية ، فسجنهُ وجملةً من الأساقفة ، وأقفل الكنائس ، وهدم بعضها

ومات اليازوري مسموماً سنة ١٠٥٨ ؛ فتولى الوزارة بعدهُ في تسع سنوات أربعون وزيراً ما كان يستقرُّ الامر لأحدهم ، حتى يستبدلهُ المستنصر بآخر . وكان السودانيون قـد تمادوا في غيّهم ، فهبوا ينازعون الاتراك النفوذ ، فاتحد هؤلاء مع بني كتامة وغيرهم من المغاربة ، وقاتلوا العبيد فتغلبوا عليهم ، وطردوا خمسين ألفاً منهم الى الصعيد ، حيث التفَّ حولهم خلقٌ كثير . وظلوا سنواتٍ عديدة يوالون الغارات على الأتراك

برًّا وبحراً وينهبون الصعيد ، ويفتكون بأهلهِ . غير أن الأتراك احتفظوا بمكانتهم في القاهرة رغم تحيّز أمّ الخليفة لقومها ، واستأثروا فوق ذلك بالاحكام مستخفين بالخليفة ، ونهبوا القصور والخزائن . وكان المستنصر قد عهد في قيادة جيوشهِ الى ناصر الدولة بن حمدان متولي دمشق سابقاً ، فانضمّ الى الاتراك ، وقوّى ساعدهم . على أنهُ لم يلبث ان استبدّ بهم ، وتفرّد بالأمر دونهم ، فحقدوا عليهِ ، وسعوا بهِ لدى الخليفة فخلعهُ . فسار ناصر الدولة الى الاسكندرية واستقلّ بحكمها ، واستنجد بعضاً من القبائل العربية ، وفريقاً من المغاربة فأنجدوه ، وزحف منهم أربعون الف فارس الى الدلتا ، وخرّبوا الترَع والجسور ، فانقطعت المؤن عن القاهرة والفسطاط ، وأصاب البلادَ مجاعةٌ هائلة دامت سبع سنواتٍ (١٠٦٦ — ١٠٧٢) حتى اضطرّ السكان الى أكل لحم الكلاب والخيل . ولما ندر وجود الحيوانات فتك الناس بعضهم ببعض حتى لقد بيع لحم الآدميين في الاسواق . وأُحرقت الكتب النفيسة بدلاً من الوقود ، واتخذ الجنود جلودها نعالاً لهم ، وزاد هولَ المجاعة تفشي الطاعون . وقاسى الخليفةُ نفسهُ من شدّة الفاقة ما حملهُ أخيراً على مفاوضة عدوّهِ ناصر الدولة في أمر الصلح . وكان هذا الأمير قد انتصر على كلّ الجيوش التي سيّرها المستنصر اليهِ . فتمّ الصلح بينهما على ان يكون ناصر الدولة حاكم البلاد الحقيقي ؛ فتلاشى امر المستنصر ؛ وتفرّق قومهُ عنهُ ، واصبح في حالة فقرٍ شديد يتعيش بما كانت تجود عليهِ بهِ احدى الفتيات الشريفات . فلما اتصل خبرهُ بناصر الدولة رتّب لهُ مئة دينار في كل يوم يستعين بها على معاشهِ

وظلّت المجاعة والفتن في البلاد حتى سنة ١٠٧٣ فجاء فيضان النيل وافياً واقبلت المواسم فانفرج الضيق . وفي تلك السنة فتك بناصر الدولة بعضُ أعدائهِ ، وعادت السلطة الى المستنصر . فدعا بدر الجمالي الأرمني قائد جيش الشام وعهد اليهِ في أمور الدولة . فجاء (١٠٧٤) وبطش بامراء الاتراك ، واستأثر بحكم مصر دون المستنصر . وأطلق على نفسهِ لقب أمير الجيوش. وقد اكثر من مواطنيهِ الارمن في الجند ، واسترد ما كانت فقدتهُ مصر من الاملاك ، ونظّم شؤون البلاد ، وكسرَ شوكة الثائرين من سودانيين وعرب ، وأعفى الرعية من الخراج ثلاث سنواتٍ ، وشاد المباني العظيمة منها جامع العطّارين في الاسكندرية

وتوفي بدر الجمّالي سنة ١٠٩٤ في القاهرة لثمانين سنة من عمرهِ ، وقد تولى أمر مصر عشرين سنةً نعمت فيها البلاد برخاء من العيش لم تعرفهُ في كلّ عهد المستنصر . وخلفهُ ابنهُ الأفضل شاهنشاه فسار على خطة أبيهِ . وفي السنة التي توفي فيها الجمّالي توفي الخليفة المستنصر بعد ان أوصى بالخلافة لابنه نزار

المستعلي بن المستنصر (١٠٩٤ — ١١٠١) — كان نزار يوم مات ابوهُ في الخمسين من عمرهِ ؛ فخشي الأفضل شاهنشاه أن يستأثر بالاحكام دونهُ ، فاخذ البيعة لسابع ابناء المستنصر ، أحمد ابي القاسم ، وهو في الثامنة عشرة من عمرهِ ولقّبهُ بالمستعلي . وفرّ نزار الى الاسكندرية حيث انضمّ اليهِ حاكمها وجمعٌ غفيرٌ من أهلها وبايعوهُ بالخلافة ، ودعوهُ الإمام المصطفى . فسار اليهِ الأفضل بعساكرهِ ، وشتّت جموعهُ ، وقتلهُ وكبارَ دعاتهِ

﴿ الحروب الصليبية ﴾ وفي سنة ١٠٩٦ بدأ الضعفُ يظهر على المسلمين في سوريا وبلاد فارس ، وكان الخللُ قد سادَ على الفاطميين في مصر فرأى فريقٌ من ملوك اوروبا وامرائها انَّ الفرصة مناسبة لاحتلال الأماكن المقدَّسة واجلاء المسلمين عنها . ونهَّضهم الى ذلك مسيحيٌّ غيور يدعى « بطرس الناسك » . فعقدوا العزائم على العمل معاً ، وغزوا الشرق ثماني مرَّات بين سنة ١٠٩٦ و١٢٧٠ فسمّيت هذه الحروب بالحروب الصليبية وسمّي رجالها بالصليبيين لأنهم كانوا يعلّقون على صدورهم صليباً أحمر

﴿ الحملة الصليبية الأولى ﴾ كانت الحملة الاولى سنة ١٠٩٦ على عهد البابا اوربانُس الثاني ، وكان في طليعتها ملوكٌ وامراء أشهرهم « جودفروَا ده بويّون » فخالفهم الأفضلُ شاهنشاه ، واتخذهم عوناً لهُ على السلجوقيين الذين كانوا قد استولوا على القدس ، فهاجمهم فيها ، وطردهم منها . وأخذ الصليبيون سنة ١٠٩٧ مدينة الرها بعد مواقع شديدة كان لهم النصر فيها على المسلمين ، ثم فتحوا انطاكية سنة ١٠٩٨ . وفي السنة التالية نقضوا عهدهم مع الأفضل ومشوا على القدس يريدون أخذها ، فقاتلهم أهلها المسلمون قتالاً عنيفاً انتهى بهزيمتهم . فاقام الصليبيون « جودفروا ده بويّون » ملكاً على القدس . ثم لقيَ فريقٌ منهم الافضل ورجالهُ بقرب عسقلان فحاربوهُ رغم هدنةٍ كانت بينهُ وبينهم وهزموهُ وغنموا من متاعهِ شيئاً كثيراً ، ففرَّ الى القاهرة

وكان المستعلي حتى وفاتهِ آلةً في يدِ الأفضل لا أمر لهُ معهُ ولا نهي

الآمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) — بايع لهُ الأفضل بعد موت أبيهِ وعمرهُ خمس سنوات ، وتولى الوصاية عليهِ ونصحهُ الخدمة عشرين سنةً تمتعت مصر خلالها بالرخاء والفلاح . وفي السنة الأولى من خلافة الآمر فتح الصليبيون يافا . وفي سنة ١١٠٢ حارب المصريون بقرب عسقلان الملك « بولدوِن » فهزموهُ الى يافا ؛ وأعادوا الرملة الى حكم العرب . وكانت في السنة التالية مواقع عديدة بين الفريقين ، وأرسل الافضل ابنهُ بجيشٍ عظيم ، فهزم الفرنج في يازور وقتل منهم كثيرين ، وأسرَ ثلاثمائة فارس . وزحف في تلك السنة ايضاً اربعة آلاف فارسٍ مصري على يافا ، وسارت في البحر عمارة لقتال الصليبيين ، ولكنهم عادوا عنهم بدون طائل . ولم تكد تغرب شمس سنة ١١٠٤ حتى كان القسم الاكبر من فلسطين في يد الفرنج . وانضمَّ الى الفاطميين في تلك السنة حاكم دمشق ليدفع معهم مطامع الصليبيين . فارتدُّوا خاسرين بعد قتالٍ كان لهم مع الفرنج بين يافا وعسقلان. ثمَّ أخذ الصليبيون طرابلس (١١٠٩) وصيدا (١١١٠) . وفي سنة ١١١٧ زحف الملك « بولدوِن » على مصر وأحرق قسماً من الفرما ، و بلغ تينيس . ثمَّ اضطرَّ الى الرجوع على أعقابهِ لمرضٍ اعتراهُ . وفي سنة ١١٢٤ فتح الصليبيون صور

ولم تشغلِ الحروب الصليبية الافضل عن تحسين حال مصر ؛ فحفر خليجاً وترعاً و بنى مرصداً عظيماً على مرتفع في جوار المقطم ؛ ولما كبر الآمر ثقلت وطأة الأفضل عليهِ ، فاستدعى فرَّاشاً في القصر يدعى ابن البطائحي ، وداخلهُ في قتل الأفضل ، ووعدهُ باستوزارهِ مكانهُ إن هو

أهلكهُ . فوضع البطائحي على الأفضل رجلين قتلاهُ وهو سائر في موكبهِ من القاهرة (١١٢١) . واستولى الآمر على مقتنياتهِ وأموالهِ ، وكانت شيئاً كثيراً . واستوزر بعدهُ ابن البطائحي ولقّبهُ بالمأمون . وكان هذا ماهراً في الشؤون الاقتصادية ، متساهلاً في الامور الدينية ، ولكنّهُ اتّبع خطة الافضل في الاستئثار بالحكم ، فتنكّر له الآمر وتوغّر عليهِ صدرهُ . وفي سنة ١١٢٥ سجنهُ ثمّ صلبهُ . وتفرّد الآمر بعد ذلك بالحكم ، فلم يستوزرْ أحداً ولكنهُ أقام معيناً ومشيراً لهُ راهباً يُعرف بابن ابي نجاح ، فتحكم هذا في الناس ، وخفّضَ الضرائب عن المسيحيين وتمكّن شيئاً فشيئاً من الدواوين وجمع الخراج والضرائب ، واستبدّ بالعمّال والقضاة ، فقبض عليهِ الآمرُ وقتلهُ

وكان الآمر جريئاً على سفك الدماء محباً للمال والزينة واللهو ، كثير السلب والعطاء . وفي سنة ١١٣٠ باغتهُ جماعة بينما كان عائداً من النزهة وقتلوهُ

الحافظ لدين الله (١١٣٠—١١٤٩) — مات الآمر ولم يكن له ولد ، فبويع بعدهُ بالخلافة ابن عمهِ عبدالحميد ابن الاميرابي قاسم بن المستنصر بالله ولُقّبَ بالحافظ لدين الله . واستوزر « هزار الملوك » أحد مماليك الآمر . فانكر الجيش عليهِ ذلك ، وأقاموا أبا عليّ بن الافضل شاهنشاه وزيراً ، وقتلوا هزار الملوك . واستأثر أبو علي بالامر ، وقبض على الحافظ وسجنهُ . وكان حسن التدبير عادلاً ، فساوى بين الرعية . على أنهُ لم يحكم البلاد طويلاً لان أولياء الشيعة تنكّروا لهُ فقتلوهُ (١١٣١) ونهبوا دارهُ

وأخرجوا الحافظ من معتقَلِهِ . واستوزر الحافظ أرمنياً اسمهُ « أبو الفتح يانس » ولقّبهُ بأمير الجيوش . وكان يانس مهيباً حازماً ، وأراد ان يستبدّ بمولاهُ فسمّهُ الحافظ (١١٣٢) وتولى بعدهُ الامور بنفسهِ حيناً . ثمّ عهد في الوزارة وولاية العهد الى ابنهِ سليمان ، ومات هذا لشهرين من وزارتهِ ؛ فاستوزر الحافظ بعدهُ ابنهُ الآخر حيدرة ، فشقّ ذلك على الامير حسن بن الحافظ ونازع أباهُ وأخاهُ الامر . فكانت في البلاد فتنةٌ هائلة قُتِل فيها الوفُ من الناس ، وانتهت بهزيمة حسن ورجالهِ ، فخاف سوءَ العاقبة والتجأ الى أبيهِ . وأحاط اعداؤهُ بقصر الحافظ طالبين حسناً ليقتلوهُ . واستعطفهم الخليفة في أمرهِ طويلاً فأصرُّوا على طلبهِ ، وكرهَ أبوهُ ان يسلّمهُ حياً فسمّهُ وأخرجهُ اليهم ميتاً فسكن ثائرُهم ، وأقاموا الأمير تاج الدولة بهرام الأرمني وزيراً ، فرضيَ بهِ الحافظ مُكرَهاً . فقرّب الوزير المسيحيين اليهِ وقلّدهم أسمى المراتب فأكثروا من الإعتداء على المسلمين . وكان رضوان ، متولّي الغربيّة ، رجلاً شجاعاً ، فسار على بهرام وحاربهُ وهزمهُ ودخل القاهرة (١١٣٧) . وتولّى الوزارة ولُقّبَ بالملك الأفضل ، فأوقع بالنصارى . ولما استتبّ لهُ الأمر استبدّ حتى استوحش الحافظ منهُ ، وما زال يكيدُ لهُ ، حتى ثارت فتنةٌ انهزم رضوان فيها وقُتل سنة ١١٤٨

الظافر بأمر الله (١١٤٩—١١٥٤) — تولّى الخلافةَ بعدَ أبيهِ الحافظ وهو في السادسة عشرة من عمرهِ . وكان جاهلاً لا يفقهُ معنى الحكم . واستوزر ابن مصال أربعين يوماً . وكان علي بن السلار والياً على

الاسكندرية والبحيرة . ورغب في الوزارة فأتى القاهرة بجموعهِ لقتال ابن مصال فظفروا بهِ وقتلوهُ . واستقرَّ ابن السلار في الوزارة ، ولقِّب بالملك العادل ، ولكنَّهُ لم يلبث أن استأثر بالأمر فاستوحش منهُ الظافر ، وأبغضهُ الناس لجورهِ واستبدادهِ . وخاف ابن السلار عقبى بغيهِ ، فجعلَ لنفسهِ حرساً خاصاً مؤلَّفاً من ست مئة رجل . على أن ربيبهُ عبَّاس بن تميم أرسل اليهِ ولدَهُ نصراً فقتلهُ (١١٥٣) وجاء برأسهِ الى الظافر ، فكافأهُ بعشرين طبقاً من الفضة ، على كلِّ طبقٍ عشرون ألف دينار . واستلم عباس بعد السلار زمام الوزارة ، فقام باعبائها خيرَ قيام . وفي أيامهِ سقطت عسقلان بيد الفرنج . وكانت آخر أملاك الفاطميين في فلسطين

وجاهر أنصارُ السلار بعدائهم للوزير الجديد ، فرغب الخليفة في قتلهِ ارضاءً لهم وتخلصاً منهُ . فحاول أن يكتسبَ الولد ليفتك بالوالد ، على أنَّ نصراً أبى الايقاع بابيهِ . ولما علم الوزير بغية الظافر أقنع ولدهُ نصراً بوجوب قتلهِ ففعل

الفائز باللهِ بن الظافر (١١٥٤ — ١١٦٠) — ولما قُتِلَ الظافر نادى الوزير عباس بابن المقتول خليفةً وهو في الخامسة من عمرهِ ، ولقَّبهُ بالفائز باللهِ . وكان يرجو أن يصفوَ لهُ الجوُّ ، فجاءت الحوادثُ بخلاف ما كان يؤمل ، لأنَّ الجند ثار في وجههِ انتقاماً للخليفة المقتول . واستنجدت نساء القصر بوالي الأشمونين « طلائع بن رزّيك » وأرسلنَ اليهِ شعورهنَّ ، فقصد القاهرة لقتال المغتصب . ففرَّ العباس من وجههِ الى بلاد الشام ، حيث قبض عليهِ الفرنج ، وباعوهُ الى طالبيهِ بستين الف

دينار . فحُمِلَ الى القاهرة وصُلب حياً . أما « طلائع » فانهُ دخل القاهرة رافعاً أعلاماً سوداءَ ، وشعور النساء منشورة على رماح رجالهِ ، فاحتفل بدفن الخليفة ، وتولى الوزارة ، ولقّبَ بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين ؛ فسكّنَ البلاد ، وأعاد اليها النظام ؛ وكان اديباً سخياً . وقد ضمَّنَ الولاياتِ والخراج ، فثقلت وطأة الملتزمين على السكان

وكان الصليبيون اثناءَ ذلك في شغلٍ شاغل عن مصر لانصرافهم الى قتال امراء سوريا والعرب والأتراك . فانتهز « طلائع » هذه الفرصة لغزوهم برّاً وبحراً ، وانتصر عليهم قرب غزّة (١١٥٨) . ثم أرسل وفداً الى دمشق يحمل الهدايا النفيسة وسبعين ألف دينار الى نور الدين الزنكي . وكان هذا الأمير قد نال شهرةً بعيدة في مقاومة الفرنج . وتوُفي الفائز وهو في الحادية عشرة من عمرهِ

العاضد لدين الله (١١٦٠ — ١١٧١) — وولّى « طلائع » الخلافة العاضد لدينِ اللهِ بن يوسف وأزوجهُ ابنتهُ ليستتبَّ لهُ الأمر . على انَّ نساءَ القصر لم يرضينَ عنهُ لتصلّبهِ في الأحكام . وانتهى الأمرُ بأن دفعت إحدى عمّاتِ العاضد بعض القوّاد الى قتل طلائع . وبينما هو يجود بالنفَس الأخير عادَهُ الخليفة ، وأمرَ بقتل عمتهِ أمامهُ انتقاماً لهُ . واستوزر بعدَهُ ابنهُ العادل . وكان في الصعيد والٍ ، اسمهُ « شاور » ، قد استفحل أمرُهُ ، فعزلهُ العادل عن الولاية ، فتمرَّد وجمع جموعهُ وسار الى العاصمة مقاتلاً (١١٦٣) ففرَّ العادل من وجههِ ، وقبض شاور على زمام الوزارة ، ولُقِّبَ بأمير الجيوش ، واستولى على أموال بني رزّيك وممتلكاتهم . على

انَّ ضرغاماً حاجب الخليفة نازعهُ الوزارة واغتصبها منهُ ، ولقَّبَ نفسهُ بالملك المنصور ، وفرَّ شاور الى الشام . فكان ذلك كلّهُ مدعاةً لفتن واضطرابات أضعفت الدولة ، ومهّدت للفرنج سبل الغارة عليها ، فزحفوا على مصر ، واحتلوا مدينة بلبيس ؛ فقاتلهم المسلمون طويلاً حتى أجلوهم عنها

أمَّا شاور فانَّهُ لجأَ الى نور الدين محمود بن زنكي صاحب دمشق ، وعرضَ عليهِ ان يغزوَ مصر على ان يقوم هو بجميع نفقات الحملة . وكان نور الدين شديد الرغبة في بسط نفوذهِ على الديار المصرية ، على انهُ كان يتردَّد في الإقدام على ذلك لما كان يعترضهُ من المصاعب . وحدث في تلك الاثناء خلافٌ بين ضرغام الوزير وأملريك ملك الفرنج على أمرِ الجزية ، فحمل أملريك على مصر وهزم ضرغاماً في بلبيس ، فتحوَّل ضرغام الى تخريب الجسور وتغريق الأراضي بالمياه ردًّا للمغيرين . وبينما هو في نزاعٍ معهم اتصل بهِ خبرُ مساعي شاور لدى نور الدين . فحاول استرضاء الفرنج ، ومحالفتهم على عدوهِ ، ولكنَّ نور الدين لم يمهلهُ بل عبأَ جيشاً جراراً أرسلهُ مع شاور بقيادةِ الأمير أسدِ الدين شيركوه وابن أخيهِ صلاح الدين . فهزموا المصريين في بلبيس ، وتابعوا السير الى القاهرة فحاصروها مدةً ، ثمَّ دخلوها وقتلوا ضرغاماً ، وعادَ شاور الى الوزارة . وكان قد عاهدَ نورَ الدين على أن يعطيهُ ثلث دخل البلاد ، وان يأتمرَ بأمرهِ ، ويقيم شيركوه في مصر بعساكرهِ لحمايتها . فنقض العهد ، فعوَّل شيركوهُ على تنفيذ الاتفاق بالقوَّة ، وأرسل صلاحَ الدين لاحتلال بلبيس وما يليها . فاستنجد شاور أملريك فأمدَّهُ هذا بجيشٍ قاتل صلاح الدين

ثلاثة أشهر . على انهُ اضطرَّ الى الرجوع الى فلسطين لمساعدة قومه على نور الدين . اما شيركوه ، فأصبح موقفهُ في مصر حرِجاً لقلة المؤونة لديهِ ، ووجودهِ بين عدوّين . فعقد الصلح وعاد الى الشام . ولكنَّ حملتهُ هذهِ كانت قد علَّمتهُ الطريق الى مصر . فلم يفتأ بعد ذلك يحسّنُ لنور الدين غزوَها ثانية ، حتى جهزَ حملةً أُخرى سار بها الى الديار المصرية (١١٦٧) . فتتبعهُ الملك أَملريك وسار الجيشان على ضفتي النيل الى القاهرة . فعسكر أسد الدين شيركوه قرب الجيزة ، ونزل ملك الفرنج قرب الفسطاط . ثمَّ عبروا النيل ليلاً الى ناحية الأعداء ؛ فسار شيركوه من امامهم الى الصعيد ، وانتظرهم في البابين على مسافة عشرة أميال من المنيا ، فتلاحم الجيشان وكانت الغلبة لشيركوه . وانهزم المصريون والفرنج حتى القاهرة . ولم يكن للمنتصرين قوة كافية لتأثُّر المنهزمين ؛ فسار شيركوه عن طريق الصحراء الى الاسكندرية حيث أقام صلاح الدين حاكماً عليها ، ورجع الى الصعيد لجباية الأموال . فجمع الفرنج والمصريون جموعهم ، وساروا الى الاسكندرية لقتال صلاح الدين ، بينما كانت سفن الفرنج تحصر شواطئها ؛ فاشتدَّ الضيق على الاسكندريين ، وأرادوا التسليم . ولكنَّ صلاح الدين أقنعهم بوجوب المقاومة حتى تأتيهم نجدة من عمّهِ . فظلَّ الحصار ٧٥ يوماً حتى وصل شيركوه من الصعيد الى القاهرة وحاصرَها حصاراً شديداً ؛ فحمل ذلك شاور وحلفاءهُ على ترك حصار الاسكندرية . وعُقِد الصلح بين المتقاتلين على ان تظلَّ مصر للمصريين ، وان ينسحبَ عنها شيركوه مقابل مبلغٍ يتقاضاهُ من المال

أما الفرنج فقد أبقوا في القاهرة نائباً عنهم وبعض الحامية، وزادوا الأتاوة التي كانوا يتقاضونها من مصر. ثم طمع من بقي منهم في مصر بالاستيلاء عليها، فاستدعوا ملكهم من أورشليم فجاءهم بجيشهِ، وفتح مدينة بلبيس عنوةً (١١٦٨)، وجرت فيها مقتلة عظيمة. وأحرق المصريون الفسطاط لئلا تقع في يد الفرنج، فظلت النيران متقدةً فيها ٥٤ يوماً. ولم يكن للخليفة العاضد يدٌ في كلّ هذه الحوادث، لأن شاور لم يترك لهُ نفوذاً، بل حجبهُ عن كلّ الأمور. ولكنهُ لما بلغت بلادهُ هذه الحالة استنجد نور الدين فأرسل اليهِ جيشاً معقود اللواء لأسد الدين شيركوه ولصلاح الدين. فكانت هذه ثالثَ حملة وجهها نور الدين الى مصر؛ فتقهقر الفرنج الى فلسطين بدون قتال، ودخل جيش نور الدين القاهرة منصوراً، فقوبل مقابلة منقذ البلاد؛ وخلع الخليفة على شيركوه خلعاً ثمينة؛ ثم أغراهُ على قتل وزيرهِ شاور، فقتلهُ وبعث اليهِ برأسهِ، فولّاه الوزارة ولقّبهُ بالملك الناصر، وأطلق يدهُ في جميع الأمور. على أنهُ لم يلبث ان وافاهُ أجلهُ فجأةً (١١٦٩) فخلفهُ في الوزارة ابن أخيهِ صلاح الدين الشهير وهو أوّل السلاطين الأيوبيين. وفي سنة ١١٧١ توفيَ العاضد، وكان خاتمة الخلفاء الفاطميين

حكَم الفاطميون مصر مئتي سنة وسنتين لاقى المصريون في خلالها الأهوال، وقاسوا الشدائد، بعد ان كانوا من قبل ذلك العهد يتنعّمون برخاء العيش وصفوهِ وكان الخلفاء الفاطميون يُحبُّون الإِثرة والجاه، ويميلون الى اللهوِ والسرف؛

ولكنهم مع ذلك كانوا راغبين في العلم والأدب . وقد جمعوا المال الكثير وشادوا القصور والمدارس والمساجد ، واختطوا المتنزهات والحدائق حتى صيَّروا القاهرة جنةً غنَّاء . ومن أشهر الآثار التي عاشت بعدهم : الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن رزّيك ، والجامع الأقمر ومتنزَّه الهودج في جزيرة الروضة . وأُنشئت في القاهرة على عهدهم مكتبة جمعت ألوفاً من الكتب النادرة الثمينة ، ولكنها نُهبت سنة ١٠٦٨ . أما العلوم فكانت غير منتشرة بين المصريين رغم اجتهاد الخلفاء بتعميمها ، وتنشيطهم للعلماء والشعراء وطلبة الآداب . وكان السبب في ذلك توالي الحروب والفتن الداخلية ، وقلق الخواطر على عهد تلك الدولة . على ان الوزراء نظَّموا حكومة البلاد تنظيماً حسناً . وعامل الفاطميون النصارى بالحسنى ، وقلّدوهم الوظائف في الدولة

الفصل الثامن

الدولة الايوبية

(١١٧١ — ١٢٥٠ م) = (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ)

صلاح الدين يوسف الأيوبي (١١٣٧ — ١١٩٣)

﴿ نشأته ﴾ هو ابن الأمير نجم الدين ابي الشكر ايوب الكردي حاكم دمشق على عهد نور الدين . وُلد سنة ١١٣٧ في مدينة تكريت في ما بين النهرين ؛ وشبَّ ميّالاً الى العزلة فلم يأتِ في صباه ما يؤثر عنهُ . وقد قضى عشر سنواتٍ في بلاط نور الدين حتى اتفق لهُ أن صحب عمهُ أسد الدين شيركوه الى مصر وأبدى شجاعةً فائقة في موقعة الصعيد وفي الدفاع عن الاسكندرية كما تقدَّم ، فعلتْ مكانتهُ بين أقرانهِ ، وبدأ نجمهُ بالزهور

﴿ وزارته ١١٦٩ — ١١٧١ ﴾ ولما مات عمهُ أسدُ الدين شيركوه (١١٦٩) استوزرهُ العاضدُ في مصر ، ولقبهُ بالملك الناصر ، وانما آثرهُ على غيرهِ رجاءَ ان يتحكم فيهِ فكان الامرُ خلاف ما أمَّل . فانَّ صلاحَ الدين وضع نصب عينيهِ منذ تسنمَ الوزارة أن يستأثر بملك مصر ، ويتدرَّجَ منهُ الى زعامةِ المسلمين ثمَّ الى قطع دابر الفرنج من الشرق . ورأى في بداية الأمر ما دون تميم رغائبهِ من المصاعب فوجَّهَ عنايتهُ الى تذليلها ،

وقضى الدورَ الاوّل من حكمهِ في إضعاف الفاطميين حتى لا تقومَ لهم قائمة ، وفي وضع سدٍّ بوجهِ مطامع نور الدين صاحب سوريا ، فتمَّ له ذلك ، وأسسَ في مصر الدولة الايوبية ، وأصبح سيّدَ المسلمين المطاع

وكان أوّل ما سعى اليهِ توطيد سلطتهِ في مصر ؛ فدبَّر البلاد خير تدبير ، وخفَّض الضرائب ، وأحسن الى المصريين ، فتملك قلوبهم ، وكانوا له أكبر عونٍ على تحقيق آمالهِ الواسعة . على أنَّ السودانيين ثاروا على صلاح الدين انتصاراً للخليفة العاضد ، فتمكن منهم ونفاهم الى الصعيد؛ ثمَّ قبض على امراء الدولة وأقام أصحابهُ وذويهِ في مناصبهم ، ولم تكد تسكن البلاد بعد الثورة السودانية ، حتى زحف على دمياط مانويل الأوّل امبراطور القسطنطينية وأموري ملك اورشليم بمئتي وعشرين سفينة حربية (١١٦٩) . وقد دخلوا برجالهم البلادَ ، فاجلاهم صلاحُ الدين عنها . وفي سنة ١١٧٠ فتح إيله على خليج العقبة وحصنها لتكون سدًّا في وجهِ الفرنج . ثمَّ طمع بقطع الخطبة للفاطميين ، وخشيَ إساءة المصريين ان هو فعل دفعة واحدة ، فبنى لهم عدَّة مدارس دينية في القاهرة والفسطاط والاسكندرية من شأنها أن تضعف تعلقهم بالمذهب الشيعي ؛ وكانت من هذه المدارس المدرسة الشريفية او النصرية ، شادها بجوار جامع عمرو ابن العاص لفقهاء الشافعية ؛ والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو أيضاً لفقهاء المالكية ؛ والمدرسة السيوفية في دار الوزير المأمون البطائحي لفقهاء الحنفية . وبنى ايضاً مارستانات كبيرة في القاهرة والاسكندرية

وفي سنة ١١٧١ تمكَّن من قطع الخطبة للفاطميين ، وخطب

لخليفة بغداد المستنصر العبّاسي . وكان العاضد حينئذٍ مشرفاً على الموت فكتم ذووهُ عنهُ فعلةَ صلاح الدين رحمةً وإِشفاقاً . وتوفي العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام فحجر صلاحُ الدين على أقاربهِ وأخصائهِ ، واستولى على جواهرهِ وأموالهِ وفرّقها على ذويهِ . وأعطى قاضيهُ « الفاضل » مكتبتهُ وكانت تحوي ١٢٠,٠٠٠ كتاب وأسكن ضبّاطهُ قصر الخليفة

﴿ سلطنة صلاح الدين ١١٧١ — ١١٩٣ ﴾ ولما قبض صلاحُ الدين على زمام السلطنة شرع يقوّي مصر إستعداداً للاستقلال عن الخليفة العباسي ونور الدين ، ورأى الحاجة الى حصنٍ منيع يكون معقلاً لهُ ومركزاً لحكومتهِ ومقرًّا لجيوشهِ ، فصمم على بناء قلعة الجبل الشهيرة[1] وبنى ايضاً قناطر الجيزة وقد شادها من حجارة الأهرام

﴿ فتح افريقيا الشمالية والنوبة واليمن ﴾ وفي سنة ١١٧٢ أرسل صلاح الدين جيشاً بقيادة ابن أخيهِ تقي الدين عمر بن شاهنشاه الى افريقيا الشماليَّة ، ففتحها من برقة حتى قابس . وجهز لأخيهِ الملك المعظَّم شمس الدولة توران شاه جيشاً آخر سار بهِ الى النوبة ، ففتحها ايضاً ، وعاد منها

(١) عهد صلاحُ الدين الى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي في بناء القلعة وبناء سورٍ يحيط بها و بالقاهرة والفسطاط معاً من حجارة أهرامٍ صغيرة كانت في الجيزة . على انَّ البناء لم يتمَّ الّا في عهد السلطان الكامل . وقد رمَّم هذه القلعة بعضٌ من السلاطين المماليك مراراً عديدة ؛ ثمَّ رممها محمد علي باشا ، ولا يزال على بعضِ جدرانها كتاباتٌ يرجع عهدُها الى صلاح الدين . وقد حفر فيها بهاء الدين قراقوش بأمرهِ بئراً تُعرف حتى اليوم ببئر يوسف ، عمقها ٢٨٠ قدماً ، كلها محفورة في الصخر . وقيل إنَّ قراقوش كان يستخدم في بنائها خمسين ألف أسير

مثقلاً بالغنائم ؛ فسيَّره صلاح الدين بحملةٍ أُخرى الى بلاد اليمن (١١٧٤) فظلَّ النصر محالفاً له، وتملك تلك الأصقاع، وتوارثت ذرّيتهُ الأحكامَ فيها ٥٥ سنةً

وكان صلاح الدين يقصد من تعبئة هذهِ الحملات أن يشغل ذويهِ وأَصحابهُ بالفتوحاتِ، فيصرفهم عن الطمعِ بمشاطرتهِ السلطة في مصر، وأن يتخذَ من املاكهِ الجديدة قوَّة يستعينُ بها على أعدائهِ. وكان نور الدين قد أدرك غاية صلاح الدين، وبات يخشى استفحال أمرهِ، ولكنهُ لم يتمكن من مقاومتهِ لانصرافهِ الى صدّ الفرنج عن ممتلكاتهِ

﴿ فوز صلاح الدين ﴾ وفي سنة ١١٧٤ حاول دعاة الفاطميين إعادة الحكم لهم بالاتفاق مع بعض القوّاد المصريين والسودانيين والأتراك ومع ملك اورشليم وملك صقلية ؛ وأعدَّ الجميع عدّتهم للقتال، فعرف صلاحُ الدين مكيدتهم قبل أن تتحقق، فقتل مَن كان منهم في مصر من الزعماء ونفى الباقين الى الصعيد. وبلغ هذا الأمرُ ملك اورشليم فتوقّف عن إرسال النجدات. أما ملك صقلية فأرسل، وهو غير عارفٍ بما كان، ٢٨٢ مركباً رست في ميناء الاسكندرية، فباغتَ الصقليون الحامية، ولكنهم وجدوا مقاومة تحت اسوار المدينة، وقد وصل الى الاسكندريين حينئذٍ نجدةٌ من صلاح الدين تمكّنوا بها من هزم الاعداء

وفي السنة نفسها التي تمَّ فيها لصلاح الدين كسر دعاة الفاطميين وجيش ملك صقلية، مات السلطانُ العظيم نور الدين صاحب سوريّا، فأصبح صلاح الدين الزعيمَ الاكبرَ للاسلام ؛ ومات ايضاً أملريك ملك

اورشليم وخلفَهُ ابنهُ وهو طفلٌ ضعيف مريض . فخرج سلطان مصر من دور الدفاع الى دور الفتح

وقام في سوريا الصالح اسماعيل بعد أبيهِ نور الدين وهو في الحادية عشرة من عمرهِ ؛ فاستأثر أمراؤهُ بالأحكام وحاولوا خلعهُ . فاتخذها صلاح الدين حجة لفتح الشام وسار بجيوشهِ الى دمشق ، وملكها باسم السلطان الصالح . ثم تجاوز بفتوحاتهِ حمص وحماه الى حلب ، وحاول ان يستوليَ عليها ، فلم يتمكن منها لتألب الأعداء عليهِ ، وعاد عنها قانعاً باستيلائهِ في هذه الصفقة على سوريا الى الجنوب من حلب . ولكن حاكم الموصل رأى أنَّ خطَرَ صلاح الدين كاد يحيق بهِ ، فهبَّ لمحاربتهِ واسترداد سوريا منهُ ، وأرسل جيشاً (١١٧٥) انضمَّ الى جيش حلب وزحف معهُ على حماة . فقاتل صلاحُ الدين الجيشين وهزمهما هزيمة كبرى . وفي السنة التالية تمَّ لهُ تمزيق شملهما نهائياً وعقدُ صلحٍ مع ملك حلب الصغير على أن يكونَ لهُ كلُّ ما فتحهُ من سوريا حتى ضواحي الفرات . ثم عقد صلاح الدين هدنةً مع الفرنج ، وعاد الى مصر حيث انصرف كل الانصرافِ الى الاصلاح . وقد وجد في « الفاضل » خير معين لهُ في أعمالهِ ؛ وكان هذا عالماً ماهراً في فنون الحكم مخلصاً لمولاه ، أميناً على عهدهِ ، فولاّهُ القضاء ثمَّ استوزرَهُ ، وركن اليهِ كلَّ الركون . وقد بنى هذا الوزير « المدرسة الفاضلية » في القاهرة ، ووقفها على الشافعية والمالكية ، وقيل إنهُ وقف عليها ١٠٠,٠٠٠ مجلَّد من الكتب العلمية

﴿ محاربة الفرنج ﴾ وفي سنة ١١٧٧ أخلَّ الفرنجُ بشروط الهدنة

واعتدوا على ضواحي دمشق ، فخرج عليهم صلاح الدين وحاربهم بقرب الرملة ، فهزموهُ ونجا هو بنفسهِ . على أنهُ حشد جيشاً جديداً بعد ذلك في حمص وعاوَدَ الكرَّة على الأعداء (١١٧٩) ، وانتصر انتصاراً مبيناً على ملك أورشليم في مرج عيون ، وأسر سبعين فارساً من امراء الفرنج وزعمائهم ، وخرَّب بعضاً من حصونهم وقلاعهم . وكانت عمارة مصرية تقاتل في تلك الأثناء على شواطئ فلسطين ، وقد عادت اليهِ بألف اسيرٍ نصراني فاستعملهم في بناء القلعة . وفي ربيع سنة ١١٨٠ سار صلاح الدين لقتال الفرنج ، فخافهُ ملكهم « بولدوِن » ، وعقد معهُ هدنةً لسنتين ، واقتدى بملك الفرنج كثيرون غيرهُ من الامراء والملوك ، فركن صلاح الدين الى عهودهم ، وعاد عنهم مسالماً

﴿ فتح ما بين النهرين ﴾ وفي سنة ١١٨١ مات الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين ، واتفق الفرنج مع أهل ما بين النهرين على الاستئثار بملكهِ والإيقاع بصلاح الدين ، خارقين حرمة الهدنة التي عقدوها معهُ . فعهد صلاحُ الدين في حكم مصر الى أخيهِ الملك العادل سيف الدين الأيوبي والى وزيرهِ الفاضل ، وسار (١١٨٢) لقتال أعدائهِ ، فكانت بينهُ وبينهم مناوشاتٌ عديدة لم تأتهِ في أوّل الأمر بفائدة تذكر . فتركهم وسار الى بيروت وحصرَها حيناً ؛ ثم ارتد عنها ولم يظفر منها بطائل ، وسار الى ما بين النهرين وأخضعها كلها إلاَّ الموصل (١١٨٣) وأخذ بعد ذلك حلب

﴿ محاربة الفرنج للمرَّة الثانية ﴾ واغتنم الفرنجُ فرصة انصرافهِ الى حروبهِ هذه للاعتداء على بعض حصونهِ ورعاياه . ودخل أحدهم ،

صاحب الكرك ، البحرَ الأحمر وأمسك فيهِ مراكبَ الحجاج ، ثم غزا بلاد العرب قاصداً فتح مدنِ الاسلام المقدّسة ، فتحوّل صلاحُ الدين الى الفرنج وخرّب لهم عدّة حصون ، وأدرك صاحب الكرك وهزمهُ وأجلاهُ عن بلاد العرب

وفي سنة ١١٨٤ كان بينهُ وبين الفرنج حرب بقرب الفولة ، فأبلى فيهم بلاءً شديداً . ثمَّ حصر قلعة الكرك مرّتين ، ولكنهُ لم يتمكنْ من فتحها ، فارتدَّ عنها الى نابلس وأحرقها ، وأخذ ميافارقين . ورأى الفرنج عجزهم عن مقاومتهِ ، فعقدوا معهُ هدنةً جديدة لأربع سنوات . فكفَّ صلاح الدين عن قتالهم ، وعاد الى الموصل وحصرها حتى سلّمت ؛ فتمَّ لهُ بذلك الاستيلاء على كل بلاد ما بين النهرين الشمالية وقسم من كردستان (١١٨٦) . وقد انضمَّ تحت لوائهِ بعد هذهِ الحروب الطويلة امراء الاسرة الزنكية وامراء الموصل وسنجار والجزيرة واربل وحرّان والكرد وراء دجلة ، فكانوا معهُ يداً واحدة في قتال الفرنج

﴿ محاربة الفرنج للمرة الثالثة وفتح أورشليم ﴾ وكان صلاح الدين يأنف من مباداة الفرنج العداء وقد عقد معهم هدنة . ففتح لهُ البرنس أرباط صاحب الكرك باباً للقتال . ذلك انه اعتدى على قافلةٍ كانت سائرةً تحت اسوار حصنهِ وسلبها أموالها ، وكانت معها أختٌ لصلاح الدين فأقسم أخوها أن يقتلهُ بيدهِ . ولم يلبث ان زحف على الصليبيين (١١٨٧) ففتح طبريّا بعد قتال ساعةٍ ، وتقدّم الى تل حطّين حيث تحصن اعداؤه ؛ فهزمهم بلا عناء ، وأسر منهم كثيرين وبينهم البرنس ارباط ، فقتلهُ وبرّ

بقسمهِ . ثمَّ تابع القتال وحالفهُ النصرُ ، ولم يمرّ بهِ الشهر حتى كان قد بلغ بفتوحاتهِ القدس فدخلها ، وأسر ممن فيها ١٦ الف من رجالٍ ونساءٍ وأولاد ؛ وأخرج منها ٦٠ الفاً . وبلغ ما تقاضاهُ من مال الفدية ٣٠٠,٠٠٠ دينارٍ . وفتح بعد القدس كلّ الثغور والمعاقل التي امتنعت عليهِ أوَّلاً حتى لم يبقَ للفرنج ملجأٌ يأوون اليهِ الاَّ صور وكانت هذه حصنهم الحصين ، وقد نوى صلاح الدين فتْحها ايضاً ، ولكن امراء الفرنج وملوكهم الذين كانوا اسرى في يدهِ أقسموا لهُ ألاَّ يعودوا الى قتالهِ إن هو أطلق سراحهم ، فركن اليهم وأفلتهم كرماً منهُ ومروّة ، وعدل عن فتح صور

﴿ الحملة الصليبية الثالثة ﴾ عاد الفرنج الى صور فحنثوا بيمينهم ، واستعدوا لقتال صلاح الدين مرةً ثانيةً ، وقد قام من اوروبا لنجدتهم عددٌ عظيم من الفرسان والملوك والامراء يقودهم فردريك بربروسا الألماني ، وفيليب اغسطس ملك فرنسا ، وريكاردُس قلب الأسد ملك انكلترا . وفي سنة ١١٨٩ سار الفرنج من صور الى عكَّا وحصروها ، فأدركهم صلاح الدين برجالهِ وحصرهم ، فأوقعهم بين عدوّين شديدين ؛ ولم يلبث أن هزمهم وشتَّت شملهم ؛ ولكنهُ لم يُكمل عليهم ، فعادوا الى تقوية مواقفهم قرب عكا . وفي سنة ١١٩٠ انضمَّ اليهم القسمُ الأوَّل من الحملة الصليبية الثالثة بقيادة فردريك بربروسا ، فاشتدَّت عزائمهم وأعادوا الكرَّة على العرب في عكا فانهزموا . ثم جاءتهم نجدةٌ مؤلَّفة من ١٠,٠٠٠ رجلٍ ، فتجدد الحصار وظلَّت الحرب سجالاً بينهم وبين صلاح الدين ، فبقيَ محتفظاً بموقفهِ الى أن جاء الشتاء ، وحوَّل السهل الى بحرٍ فتوقف

الفريقان عن القتال على عادتهم في فصل الأمطار ، وتفشت الحمّياتُ والمجاعة في معسكر الفرنج فتمكّن صلاح الدين من مدّ حامية عكا بالمؤن والذخائر

وفي أواسط (١١٩١) وصل سائر رجال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريكاردُس قلب الأسد وفيليب اغسطس ملك فرنسا ، وفتحوا عكا وأسروا مَن فيها من المسلمين . وذبح ريكاردُس ٢,٧٠٠ مسلم من اسراهُ ، ثم سار على الشواطئ قاصداً فتح عسقلان والتوغّل حتى اورشليم ، فتأثَّرهُ صلاح الدين وواقعهُ في ارسوف ، فانهزم رجال صلاح الدين وهو ثابت ، حتى عادوا اليهِ فجدَّدوا القتال ، وسبق الفرنجَ الى عسقلان وخرَّبها ، ثمَّ خرَّب حصن الرملة وسار منها الى القدس ، فدخلها في أوَّل شتاء ١١٩٢ ، فلحق بهِ ريكاردُس وكاد ينالُ ما يرجو لولم يقع بين الفرنج شقاقٌ قوّى العرب عليهم . وكان ملك فرنسا قد عاد قبل ذلك الى بلادهِ ، فارتدَّ ريكاردُس يائساً الى عكا ، واغتنمها صلاح الدين فرصةً للهجوم على يافا ، فلاقاهُ ملك انكلترا وكانت بينهما حروب كلٌّ منها الفريقان ، فعقدا في الرملة معاهدةً الى ثلاث سنوات على ان تكون للفرنج الشواطئ من يافا الى عكا فصور فطرابلس فانطاكية ، وان يكون للحجاج منهم ان يزوروا الآثار المقدَّسة في اورشليم

قضى صلاح الدين خمس سنوات في قتال الصليبيين (١١٨٧—١١٩٢) . ولم يكن للمسلمين في فلسطين غربي الاردنّ شبرٌ واحد من الأرض ، فكانت نتيجة هذه الحرب تملّكهم كلّ تلك الأصقاع ما عدا الشواطئ

التي تقدَّم ذكرُها . وقد كلَّف ذلك اوروبا تعبئةَ جيوشٍ جرَّارة وتضحية الوف من رجالها . أما صلاح الدين فظلَّ بعد هذه الحرب على ما كان عليهِ من القوَّة ، وقد أخلصَ لهُ كلٌّ اتباعهِ ورعاياهُ وأعانوهُ على الأعداء ، وأمدَّتهُ مصر بكلّ ما احتاجهُ من المال والرجال اثناء الحرب ، فأصبح بعدها يحكم بلا منازع من جبال كردستان الى صحراء ليبيا ، والسلاطين والامراء يتسابقون الى محالفتهِ ؛ على أنهُ لم ينعم طويلاً بثمرة فوزهِ وجهادهِ فقد أصابتهُ حمَّى أودت بحياتهِ (١١٩٣) لستة أشهر من عقد الصلح . ودُفن في دمشق ولم يترك بعدهُ مالاً

وكان صلاح الدين كبير النفس هماماً شهماً عطوفاً ، كثير العفوِ طاهرَ السيرة والسريرة ، بسيطاً في معيشتهِ ، نهَّاضاً تقياً شديد الغيرة على دينهِ . وكان صورةً مجسمةً للنخوة العربية

العزيز بن صلاح الدين (١١٩٣ — ١١٩٨) — مات صلاح الدين عن ١٧ ولداً اقتسموا ملكهُ الواسع مع اخوتهِ وأبناء اخوتهِ ؛ فتولى مصر ابنهُ العزيز عمادُ الدين ، وكانت لهُ السيادة العليا على سائر أملاك أبيهِ ، ولكنَّ أقاربهُ كثيراً ما نازعوهُ الأمر . ووقع خلافٌ بينهُ وبين أخيهِ الأفضل صاحبِ دمشق وسوريا الوسطى ، فسار اليهِ وحاصرهُ في قاعدة حكمهِ ، فاصلح عمهما العادل ما بينهما ، وعاد العزيز الى مصر ؛ ولكنهُ رجع الى دمشق معادياً في السنة التالية ؛ فانضم عمهُ العادل هذه المرَّة الى الأفضل وخاف العزيز اتحادهما ، فقفل الى بلادهِ ، على أنهما تأثراهُ حتى نزلا ببلبيس ، واضطرَّاهُ الى قبول الصلح على أن يبقى العادل في مصر ليدبر

شؤونها، فمكث فيها وهو يعلل النفس بالاستيلاء عليها وبتجديد وحدة المملكة

وفي سنة ١١٩٦ خرج العادل بالعزيز لمحاربة الأفضل فحصراهُ في دمشق حتى أخذاها منهُ بعد حروب وبعثاهُ الى صرخد، ورجع العزيز الى دار ملكهِ. أما العادل فاقام في دمشق حيناً حتى وطَّد فيها سلطتهُ كما وطدها في مصر، ثمَّ شخص الى ديار بكر وما بين النهرين — وهي الولايات التي كانت من نصيبهِ عند تقسيم أَملاك صلاح الدين — فانصرف الى إصلاحها وتحسين حالها بعد أن كان قد أهملها، وعكف على تقوية اركان دولتهِ حذراً من الفرنج

﴿ الحملة الألمانية ﴾ وكان يومئذٍ البابا سلستينوس الثالث لا ينقطع عن تحريض المسيحيين على حروبٍ جديدة. فسيَّر هنري السادس الألماني ٦٠,٠٠٠ مقاتل و٤٤ سفينةً حربيةً لم تكد ترسو في عكا بمن تُقلُّ (١١٩٧) حتى رأى رجالها إعراضَ فرنج سوريا عنهم، فتردَّدوا في ما اذا كانوا يستطيعون القتال وحدهم. فاغتنم العادل فرصة تردّدهم للزحف على يافا وأخذِها. ومات في ذلك الحين ملك الثغور هنري ده شامپاين، فاشتدَّ اضطراب الفرنج وخاف الألمان التوغل في البلاد حتى أورشليم، فاكتفوا بمحاربة العادل على الشواطئ، فهزموهُ في صيدا وأخذوا بيروت، وحصروا تبنين (١١٩٨). وبينما هم حولها انتهى اليهم خبر موت امبراطورهم هنري السادس فرفعوا الحصار، وعقدوا الصلح مع العزيز والعادل، وعادوا الى بلادهم. وفي تلك السنة مات العزيز بعد أن أوصى بالملك لابنهِ المنصور

السلطان المنصور ناصر الدين محمد (١١٩٨ — ١٢٠٠) — كان المنصور ناصر الدين في التاسعة من عمره يوم مات أبوهُ فقام بأمر الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدي ، ولم يرضَ عنهُ كلٌّ امراء الدولة فاستدعوا الملك الأفضل علي بن صلاح الدين لإدارة البلاد ؛ فقدم من صرخد واستولى على الامور ، ولم يبقَ للمنصور معهُ سوى الاسم كما كان شأنهُ مع بهاء الدين . ولم يلبث الأفضل ان سار بهِ من القاهرة يريد أخذ دمشق من عمهِ العادل ، وهو غائب عنها في ماردين . وقد انضمَّ الى الأفضل اخوهُ الظاهر صاحب حلب . وبلغ العادل خبرهما ، فأسرع اليهما وكانت بينهما وبينهُ حروبٌ كثيرة آلت الى فرار الأفضل الى مصر ، فخرج العادل في أثرهِ ، وأدركهُ في بلبيس وهزمهُ . وطلب الأفضل الصلح ، فعوّضهُ العادل صرخد فعاد اليها ؛ ودخل العادل القاهرة ١٢٠٠

السلطان العادل سيف الدين بن ايوب (١٢٠٠ — ١٢١٨) — خلع العادل ابنَ أخيهِ الصغير المنصور ، وتفرّد بسلطنة صلاح الدين كلها ما عدا بلاد العرب وسوريا الشمالية ، فانها اعترفت لهُ بالسيادة العليا ولكنها احتفظت باستقلالها الداخليّ . وأقيمت له الدعوة في مصر والشام وحرّان والرّها وميافارقين

واستناب العادل عنهُ في مصر ابنهُ الكامل محمداً وعهد اليهِ بعدهُ في السلطنة ، فحلف لهُ الأمراء يمين الطاعة ؛ وأقام في قلعة الجبل وظلّ ابوهُ في دار الوزارة . وعهد العادل في حكم دمشق الى ابنهِ المعظّم ، وفي أعمال دجلة والفرات الى بنيهِ : الفائز والأوحد والأشرف والحافظ ؛ وأبقى لمصر

السيادة على كل مملكتهِ الواسعة . وجاء فيضان النيل (١٢٠١ — ١٢٠٢) غير وافٍ بحاجة البلاد ، فذاقت من الجوع والوباء ألواناً ، واضطرَّ الكثيرون من ساكنيها الى الرحيل عنها ، واكل من ظلَّ فيها جثث الموتى ، وعمَّ النهب والقتل وازداد البلاء هولاً في تلك الاثناء بحدوث زلازل اهتزت لها مصر وسوريا وارمينيا

﴿ الحملة الصليبية الرابعة ﴾ وكانت الحملة الصليبية الرابعة قد أقلعت من اوربا (١٢٠٠) بقيادة بعض الأمراء قاصدين مصر ، ولكنهم تحوَّلوا عنها الى القسطنطينية ، وفتحوها وشُغلوا بها عن سواها . فلم تكن بينهم وبين العادل سوى مناوشات لم تجدِهم نفعاً . وقد أغاروا مرةً أيضاً على شواطئ مصر فردَّهم العادل عنها خاسرين . وفي سنة ١٢٠٤ كانت بينهم حروب أُخرى آلت الى عقد هدنةٍ معهم تعهدوا فيها ان لا يعودوا الى القتال لقاء أخذهم يافا والرملة

وفي سنة ١٢٠٥ مات الملك أملريك وخلفتهُ ابنتهُ ماري ، ثمَّ تزوجت بأحد امراء الصليبيين الأشداء يوحنا ده بريين

وفي سنة ١٢٠٧ عقد الفرنج في طرابلس هدنةً مع العادل على اساس الهدنة التي عقدوها معه سنة ١٢٠٤ ، ولكنه لم يركن الى هذه العهود . فتحالف مع أهل البندقيةَّ (١٢٠٨) على أن يكونوا سدًّا في وجهِ الفرنج يمنعهم من الزحف على مصر ، وان يُسهّل لهم العادل لقاء ذلك وسائل الاتجار على النيل ومع البلاد المصرية

﴿ الحملة الصليبية الخامسة ﴾ وفي سنة ١٢١٧ رست في عكا الحملة

الصليبية الخامسة يقودها يوحنا ده برين وبعضٌ من الملوك والأمراء . فانضمَّ في الحال اليها الفريقُ الاكبر من الفرنج الذين كانوا في الشرق ، وعادوا معاً الى الحرب عازمين على استرجاع القدس . وقد كانت لهم مع المسلمين شؤون آلت الى نزولهم على دمياط بعمارةٍ كبيرة وجيشٍ جرّار (١٢١٨) بينما كان العادل في الشام . فخرج الكامل محمد بن العادل بجيوشهِ لقتالهم ، وأمدَّهُ أبوهُ بنجداتٍ من الشام كانت تصلهُ تباعاً . ثمَّ سار الى نجدتهِ بنفسهِ ؛ فعاجلتهُ منيتهُ في الطريق ، وحُمِلَ الى دمشق لخمسين سنةً من دخولهِ مصر لأوَّل مرَّة مع شيركوه ، قضى منها ٢٥ سنةً في خدمةِ أخيهِ صلاح الدين بأمانةٍ وحكمة ، وقضى الخمس والعشرين الأخرى ، بعد موت صلاح الدين ، في جمع شتات المملكة التي مزَّقتها مناظرة خلفاء صلاح الدين كلَّ ممزَّق ، فوحَّدها وسهر على كل جزءٍ منها بعينٍ لا تغفل ، وصدَّ عنها غارات الفرنج ، وتركها على جانب عظيم من النظام والقوَّة . ولم يفقد منها الاَّ بضعَ مدنٍ كالناصرة وبيروت ويافا والرملة ، ولكنهُ استعاضها سلاماً لبلادهِ ، ونجاحاً لرعاياه . وكان العادل حكيماً ، بعيد النظر ، شديد الحذر ، ذكيَّ الفؤاد ، قويَّ البنية

السلطان الكامل بن العادل (١٢١٨ — ١٢٣٨) — استلم الكامل زمام الأمور بعد موتِ أبيهِ ، وألحَّ الصليبيون في القتال فقابلهم بشدَّةٍ عظيمة ، ولم يهمل وسيلةً من وسائل الحرب للتغلب عليهم ، وظلَّت الحرب بينهُ وبينهم سجالاً الى أن قام احدُ امراء الكامل ودعا الناس الى خلعهِ باتفاقٍ مع أخيهِ الملك الفائز . ورأى الكامل حياتهُ في خطرٍ ، فاضطرَّ

الى الفرار عن معسكره ، فدخله الصليبيون وغنموا ذخائره ومتاعه بلا عناء وحاصروا دمياط واشتدّوا في منازلتها حتى كادت تسلّم . وفيما هم على ذلك جاء الملك المعظم عيسى بنجدة من الشام الى أخيه الكامل فعاودوا القتال معاً ، وشدّد المسلمون على المحاصرين ونكّلوا بهم تنكيلاً . على أنّ الكامل لم يستطع رفع الحصار عن دمياط ، فنفدت مؤنها واشتدّ الجوع حتى لم يبقَ من حاميتها الاّ اربعة آلاف مقاتل يستطيعون حمل السلاح بعد ان كانوا خمسين الفاً . وكانت أوروبا تمدّ الصليبيين بالمؤن والذخيرة والرجال بلا انقطاع ، ورأى الكامل ضعفَ موقفه وتعذّرَ انتصاره رغم النجدات التي كانت تأتيه من الشام من حينٍ الى آخر ، ففاوضَ الفرنج في الصلح وعرض عليهم ، ان هم تحولوا عن دمياط ، كلّ مملكة أورشليم كما كانت سنة ١١٨٧ قبل فتح صلاح الدين . فأبوا وظلوا يقاتلون حتى فتحوا المدينة ، وذبحوا رجال الحامية . ثمّ قضوا في دمياط سنةً ونصف سنة في نزاعٍ بينهم ؛ ولم يتوغلوا في البلاد الاّ سنة ١٢٢١ بعد ان اتتهم نجدةٌ جديدةٌ كبيرة من المانيا . وكان الكامل في تلك الأثناء قد بنى حصوناً منيعة على النيل ، جنوبي دمياط ، عند قرية وسع فيها بعد ذلك وسمّاها « المنصورة » . ودعا قومهُ للجهاد فلبوا نداءهُ من كلّ أنحاء سلطنته . فكان المعظم صاحب دمشق وامراء حلب وحماة وحمص وحران وسائر امراء المملكة يقاتلون مع رجالهم تحت لوائه . وسار الفرنج جنوباً فاعترضت مسيرهم حامية المنصورة ، وفتحت عليهم سدود النيل من كل صوب ، فغمرت المياهُ الأراضي حول الصليبيين . ورأى الفرنج حرج

موقفهم فحاولوا الهرب ليلاً الى دمياط ، فداهمهم المسلمون وكسروهم بعد قتال شديد . فسلَّم الفرنج وطلبوا الأمان على ان يرحلوا عن البلاد ، وان يمتنعوا عن محاربتها ٨ سنوات

﴿ الحملة الصليبية السادسة ﴾ وكان امبراطور المانيا فردريك الثاني ممن صحبوا الصليبيين الى سوريا سنة ١٢١٥ ، وانجدوا الفرنج في دمياط سنة ١٢٢١ وقد تزوَّج سنة ١٢٢٥ بالأميرة يولندا ابنة يوحنا ده بريين الملقَّب بملك اورشليم ، واغتصب لقب أبيها ؛ فكرههُ رجال يوحنا ومالوا عنهُ . وقد شُغلوا فوق ذلك عن فتح اورشليم بجمع المال وفضَّلوا تجارة الثغور ، وخصب السواحل على أراضي فلسطين البائرة . فلم يجد منهم فردريك أدنى مساعدة على العرَب . وكان رجال الدين من جهة ثانية غير راضين عنهُ ، فأعرض عنهُ الانصارُ ، وتخلَّف الأحلاف عن مرافقتهِ في الحملة على الأراضي المقدسة . فعمد الى نيل بغيتهِ بالحيلة والدهاء ، ومهَّدَ لهُ ذلك ما اتصل بهِ من وقوع الوحشة والنفور بين السلطان الكامل وأخيهِ المعظم صاحب دمشق ؛ فأرسل يعرض على الكامل مساعدتهُ لهُ على أخيهِ إن هو تنازل له عن اورشليم . على ان المعظم مات سنة ١٢٢٧ قبل إبرام هذا الاتفاق ، وخلفهُ ابنهُ الملك الناصر داود ، فكان بينهُ وبين عمهِ مواقع . وفي غضون ذلك أقلع فردريك الى سوريا بست مئة فارس (١٢٢٨) وعقد مع الكامل المعاهدة التي كان في نيّتهِ أن يعقدها معهُ من قبل على اخيـهِ المعظم ، وتعهّد له بأن ينصرهُ على اعدائهِ من مسلمين ونصارى ، وان يمنع عن امراء الفرنج في طرابلس وانطاكية وغيرها كل

نجدةٍ قد تأتيهم من الخارج . وأطلق الكامل لقاء ذلك سراح الأسرى النصارى ، وتنازل لفردريك عن القرى بين عكا ويافا وبين اللدّ والقدس . واشترط عليهِ ان لا يجدّد سور هذه المدينة ، وأن تبقى الصخرة والأقصى في يد المسلمين . فاطمأنّ فردريك لذلك وعهد في امور أملاكهِ الجديدة الى من وثق بهم من رجالهِ ، وأقلع من عكا الى ايطاليا . وظلّ الكامل محافظاً على شروط المعاهدة بأمانةٍ ، ولكنهُ لم يستطع أن يردّ عن القدس اعتداء المحيطين بها . أما السلطان الكامل فانهُ انصرف بعد ذلك الى إدارة مملكتهِ واخضاع مناوئيهِ وحسّادهِ من أقاربهِ وذويهِ . ففتح الكرك والشوبك ودمشق ، واستناب عنهُ فيها أخاهُ الملك الاشرف . ثمّ استولى على حماة وعبر الفرات . وفي سنة ١٢٣٣ حارب سلطان آسيا الصغرى السلجوقي وأخذَ منهُ الرُّها ، وما زال يسير في البلاد فاتحاً حتى أعاد مملكتهُ الى ما كانت عليهِ من الاتساع وعلو الشأن على عهد أبيهِ . ووقع سنة ١٢٣٦ خلاف بينهُ وبين أخيهِ الاشرف ، ومات هذا في السنة التالية ، فخرج الكامل على دمشق لتثبيت سيادتهِ عليها . فامتنع فيها أخوهُ الصالح اسماعيل ، وبعد حصارٍ شديدٍ تمّ الصلح بين الاخوين (١٢٣٨) على أن يأخذَ الكاملُ دمشق ، والصالح بعلبك وما جاورها . واصابت الكامل في تلك السنة حمّى أودت بحياتهِ ودُفنَ في دمشق

وكان الكامل كأَبيهِ شجاعاً حازماً عادلاً بعيد النظر ، شديد الاهتمام بتقدُّم مملكتهِ وراحتها ، فحسَّنَ في تجارتها وزراعتها ، وحفر ترعاً ، وبنى جسوراً وسدوداً لخزن المياه . وهو الذي أَتمّ بناء قلعة صلاح الدين .

وكان ولعاً بالعلم فأكرمَ ذويهِ وشاد مدارس كثيرة منها «المدرسة الكاملية» الشهيرة . وكان يُدير شؤون البلاد بنفسهِ ولم يستوزر أحداً

العادل الثاني ابن الكامل (١٢٣٨ — ١٢٤٠) — لما مات الكامل بايع المصريون ابنهُ سيف الدين أبا بكر الملقَّب بالملك العادل الثاني . وكان ضعيف الرأي شغلهُ اللهو عن العمل . وكان أخوهُ الملك الصالح نجم الدين أيُّوب أميراً على ما بين النهرين ؛ فاتفق مع الأمير يونس صاحب سوريا على أن يتبادلا الإمارات فتمَّ لهُ ما أَراد وكان يقصد من وراء ذلك ان يكون على مقربةٍ من مصر لاغتصاب مُلك أخيهِ العادل . فأدرك العادل قصدهُ ، وسار بجيشهِ الى بلبيس لقتالهِ فقبض عليهِ امراءُ أبيهِ في الطريق ، وخلعوهُ وبايعوا أخاهُ الصالح فدخل القاهرة في موكب حافل

السلطان الصالح بن الكامل نجم الدين ايوب (١٢٤٠ — ١٢٤٩) — استولى على قلعة الجبل وجلس على سرير المُلك ، وكان قد خُطِب لهُ قبل قدومهِ ، فضبط الأمور وقام باعباءِ المملكة أتمَّ قيام ، وجمع الأموال التي بدَّدها أخوهُ ، وقبض على الأمراءِ ، واستقدم مماليكهُ الى مصر وأقامهم امراءَ ، وحارب عربان الصعيد الذين لم يُذعنوا لحكمهِ ، وبنى قلعة الروضة لسكناه ، وملك مكة ، وبعث لغزو اليمن ، وشاد المدارس الصالحية بين القصرين ، وقرَّر فيها دروساً أربعة للشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة

وكان الصالح اسماعيل عمُّهُ قد استولى على دمشق وجاهرَ لهُ بالعداءِ ، واستمالَ اليهِ الفرنجَ بتسليمهم الشقيف وصفد وطبريَّة وعسقلان

ليكونوا لهُ عوناً على ابن أخيهِ. فحالف الصالحُ نجمُ الدين الخوارزميين [١] المقيمين في سوريا الشمالية، واستنجدهم على أعدائهِ فانضمُّوا الى جيوشهِ وحاربوا معهُ الفرنج، واستولوا على القدس (١٢٤٤)، وذبحوا فيها سبعة آلاف أسير. ثمَّ زحفوا على غزَّة وفتحوها وسار الصالح منها الى دمشق فأخضعها (١٢٤٥)، وأخذ عسقلان (١٢٤٧). فأعاد المملكة الى ما كانت عليهِ على عهد أبيهِ. وأصابهُ بعد ذلك في دمشق داء أقعدهُ

﴿ الحملة الصليبية السابعة ﴾ وفي سنة ١٢٤٨ أعدَّ لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس عدَّتهُ للزحف على مصر وسوريا، وكان وَرِعاً شجاعاً كبير النفس حميد الخلق

ولما انتهى الى الصالح خبرُ وصولهِ الى مصر، وكان لا يزال مريضاً في دمشق، قدم الى مصر محمولاً وأرسل في الحال المؤنَ والاسلحة وسائر معدَّات الحرب إلى دمياط مع أعراب بني كنانة وجيشٍ جرَّار يقودهُ الأميرُ فخر الدين. ولما بلغوا دمياط قابلهم الفرنجُ ففرَّ فخرُ الدين من وجههم وتبعهُ بنو كنانة والاهلون في حالك الليل الى أشموم طناح. فأخذ الغضبُ من الصالح كلَّ مأخذ وأنزل ببني كنـانة اشدَّ العقاب. أما

---

(١) هم ابناء دولة أصلها من المماليك موالي السلجوقيين. وكان جدّهم أميراً في خراسان تابعاً للملكة السلجوقية؛ وقد أُطلق عليهِ لقب خوارزم شاه، فسمي قومه بالخوارزميين نسبةً اليهِ، واستقلَّ ابنهُ بامارتهِ من بعدهِ فكان رأس دولةٍ ظلَّت مستقلةً نحواً من مئة سنة حتى كان بينها و بين جنكيزخان ملك التتر خلافٌ أدَّى الى محاربتهم وطردهم عن خراسان، فساروا الى سورية الشمالية وتوطنوها

الملك لويس فدخل دمياط ، ولكنهُ ظلّ فيها نحواً من ستة اشهر، فاضاع فرصتهُ الوحيدة للتوغّل في البلاد واحتلالها بينا كان الصالح مريضاً وقومهُ في اضطرابٍ شديد

السلطان المعظم غياث الدين توران شاه (١٢٤٩ — ١٢٥٠) — مات الصالح ، وابنهُ غياث الدين في كيفا في ما بين النهرين، فكتمت زوجتهُ شجرة الدرّ، خبر موتهِ ، وأوهمت الامراء والاعيـان أنّ السلطان يأمر باستدعاء ابنهِ توران شاه ومبايعتهِ ، وانهُ قد عيَّن لهُ اتابكاً [1] الامير فخر الدين . فبايعـه الامراءُ وبعثوا بالرسائل الى الجهات مختومةً بخاتم الصالح . وسار الفرنج على فارسكور وظلوا زاحفين حتى المنصورة ؛ فكانت هناك مواقع بين الفريقين ، وقُتِل الامير فخر الدين ، وانهزم رجالهُ ، فبرز مماليكُ الصالح ، وكانوا يزيدون عن ١٠،٠٠٠ مملوك ، فقاتلوا بجلد وثبات بقيادة أحد زعمائهم « بيبرس » الى أن هزموا الفرنج بعد أن قتلوا منهم ١٥٠٠ فارسٍ وأمير . على أن الملك لويس ظلّ يقاتل مستهلكاً بمن تبقّى من رجالهِ . وفي تلك الاثناء وصل غياث الدين توران شاه لاستلام الملك بعد أبيهِ فاشتدّ بهِ إزرُ المسلمين ، وهاجموا الفرنجَ برّاً وبحراً ، وأَسروا منهم ٣٢ مركباً ، وقطعوا عنهم الزاد ، فتقهقر الصليبيون وتبعهم الملك

---

(١) «اتابك» رتبة عسكرية كان صاحبها ذا النفوذ التامّ في الجيوش ، ومرتبتهُ تلي مرتبة السلطان . واكثر السلاطين لم يصلوا الى الملك الاّ بواسطة الاتابكية . وكثيراً ما كان يثور هولاء على ملوكهم ويغتصبون الملك منهم معتضدين بالجنود الخاضعة لاوامرهم

توران شاه الى أن ادركهم غربي فرسكور حيث هزمهم ، وأسر ملكهم ، وكثيراً من أُمرائهِ ورؤساء جندهِ ، وقتل منهم ٣٠ الفاً

وبعد هذا الانتصار أُشهر موت الملك الصالح . واحتفل المعظم توران شاه في فرسكور باستتباب الأمر لهُ وانتصارهِ على الأعداء . ثم عقد الصلح مع الصليبيين على أن يسلموا دمياط وأن يدفع ملكهم يوسف عشرة ملايين من الفرنكات فدية لنفسهِ . وحدث ان المعظم عزل من كانت في يدهم ازِمّةُ الأمور من المماليك وولّى مكانهم رجالاً ممن جاءوا معهُ من بين النهرين ، وأساء زوجة أبيهِ شجرة الدرّ ، فثار عليهِ المماليك وهمّوا بقتلهِ ففرَّ منهم الى برجٍ كان قد أقامهُ في فرسكور للحصار ؛ فأحرقوا البرج ، فألقى بنفسهِ في النيل فأدركوهُ وقتلوهُ (١٢٥٠) وهو آخرُ ملك من ملوك الأسرة الأيوبية ، وقد قامت بموتهِ على انقاض دولتهم دولة المماليك البحرية

الفصل التاسع

دولة المماليك البحرية

(١٢٥٠ – ١٣٨٢ م) = (٦٤٨ – ٧٨٤ هـ)

أصل المماليك — هم طائفةٌ من الأتراك ابتاعهم في أوّل الأمر السلطانُ الصالح نجم الدين أيُّوب ليكونوا لهُ على أعدائهِ عوناً لا يُشرى بالمال؛ وكانوا نحو الثمانين، فظلُّوا أطوعَ لهُ من بنانهِ في السرَّاء والضرَّاء حتى مَلك مصر، فرعى لهم ثباتهم، واكثرَ من شرائهم الى أن قاربوا الألفَ مملوكٍ، واتخذهم بطانةً وخاصةً لهُ، وولَّى كبارهم إمارات دولتهِ وقيادة جيوشهِ، وأسكنهم معهُ قلعةَ الروضة، وسمَّاهم المماليك البحرية. ولما مات الصالحُ في المنصورة حملوا على الفرنج حملةً شديدة، وكان لهم معهم ما كان، فاشتهر أمرهم وعظم شأنهم، واستأثروا بالاحكام بلا منازع، وظلَّ المُلكُ في يدهم نحواً من ١٣٢ سنةً

شجرة الدر (١٢٥٠) — لما قُتِلَ المعظمُ توران شاه، أقام المماليك في السلطنة أرملةَ مولاهم الصالح شجرة الدرّ. وكانت تركيةً، داهية الدهر، لا نظير لها في النساء حسناً، وفي الرجال حزماً، فخلعت عليهم وأنفقت فيهم الأموال. وقامت بتدبير المملكة قياماً محموداً، ووقَّعت المعاهدة مع

لويس ملك فرنسا ، ولم تأذن لهُ في الرحيل إلاَّ بعد أن دفعت زوجتهُ نصفَ الفدية التي فُرِضت عليهِ . ولم يرضَ أهلُ الشام أن تتولاَّهم امرأةٌ . فانشقُّوا عن الدولة المصرية ، وحلفوا يمينَ الطاعـة للناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب . وأخذ المغيث عمر بن العادل الثاني الكرك والشوبك ، وأخذ السعيد قلعة الصبيبة . وكتب في تلك الاثناء الخليفةُ المستعصم من بغداد الى الأمراء البحرية يلومهم على تمليك امرأةٍ ، ويُشير عليهم بخلعها ، فأزوجوها أَحدهم ، الأمير عز الدين ايبك التركماني وولّوهُ عليهم بدلاً منها ، ولقَّبوهُ بالمعزّ

السلطان المعزّ عزّ الدين ايبك التركماني (١٢٥٠ — ١٢٥٧) —
لم يرضَ الأيوبيون عن سلطنة المعزّ وكانوا يريدون المُلك لهم . وخشيَ المعزّ أن ينازعوهُ الأمرَ فأقام ، باتفاقٍ مع شجرة الدرّ وامراء الدّولة ، الأشرف مظفَّر الدين موسى حفيد الكامل شريكاً له في الملك حسماً للنزاع . وكان هذا في السادسة من عمرهِ ؛ فلم يكتسب من المُلكِ سوى الاسم على حين كان الأمرُ والنهيُ لشجرة الدرّ ، والذّود عن البلاد للمعزّ ، وقد اتخذتهُ زوجتهُ آلةً في يدِها ، وحرّمت عليهِ التصرّف في أيّ أمرٍ كان دون إرادتها ، وأخفت عنهُ خزانة مال السلطان الصالح نجم الدين أيوب فكرهها المعزّ لاستبدادها بهِ كرهاً شديداً

ولم تحسم تولية الأشرف النزاع ، كما أَمَّلَ المعزّ ، لأنّ الايوبيين أدركوا أنها خدعةٌ يرادُ بها تسكينُ ثائرِهم ، فظلوا طامعين بالاستيلاء على السلطنة ، واستمالوا اليهم فريقاً من جيوشِ عزّ الدين في الصالحيـة

على حدود سوريا ، ونادوا بالمغيث عمر صاحب الكرك ملكاً على مصر ، فعمدَ المعزُّ للحال إلى تثبيت اركان سلطتهِ شرعياً بأن اعترف للخليفة في بغداد بالسيادة على مصر وبادارة شؤونها بالنيابة عنهُ . ثمَّ شرع يتأهب للقتال ، وبعث في أوّل الأمر الفارس أقطاي قائدَ جيوش المماليك البحرية الى نجدة غزّة ، فسار اليها ورفع عنها حصار السوريين ، وأخذ المعزُّ في تلك الأثناء يتظاهر أمام رعاياه بالاحترام الشديد للأُسرة الايوبية ، فنقل جثة الصالح نجم الدين من قلعة الروضة ، ودفنهُ باحتفالٍ عظيم في مدفن جامع بين القصرين ؛ ثمَّ أشاع أنَّ المغيث أضحى صديقهُ الحميم وحليفهُ المخلص

ولما انتهت اخبارُ المعزّ ايبك الى سلطان دمشق الناصر صلاح الدين يوسف هبَّ لفتح مصر والانتقام لتوران شاه غياث الدين قبل فوات الأوان . فخرج عليهِ ايبك في جيوشٍ جرَّارة هزمتهُ بجوار العبّاسة بعد قتالٍ شديدٍ ، وأسرت من رجالهِ عدداً كبيراً ، واضطرتهُ الى التقهقر الى دمشق تاركاً لهم مالهُ ومتاعهُ ومعسكرهُ غنيمةً باردة

وفي سنة ١٢٥٣ رأى الخليفةُ المستعصم حدودَ بلادهِ عرضة لمطامع التتر ، وكانوا قد دخلوا ديار بكر ، فتوسط في الصلح بين المصريين والسوريين لكي ينبذوا منازعاتهم جانباً ، ويتحدوا على العدوّ الاكبر ، فعُقِدَت بينهم معاهدةٌ على أن يكفّ الايوبيون غاراتهم عن مصر ، وأن تلحق بها فلسطين غربيّ الاردنّ بما فيها أورشليم والقسم الاسلامي من الشواطئ .

وفي سنة ١٢٥٤ خلع عزّ الدين التركماني شريكهُ في الملك السلطان الاشرف ، واستقلّ وحدهُ بالأمر . وفي سنة ١٢٥٦ تجدّدت المعاهدة بين الناصر وايبك ، وقطع الايو بيون كلّ أملٍ لهم بمصر . على انّ مصر لم تنعم طويلاً بالسلم والامن فأن بعضاً من المماليك وقسماً كبيراً من الجيش شقُّوا عصا الطاعة على المعزّ ايبك ، واجتمعوا على الفارس أقطاي وقد عظمت مكانتهُ عندهم لما اظهرهُ من البسالة والإقدام في ساحات الوغى ، فأقسموا ألاَّ يعرفوا سيداً غيرهُ ، وأن يملكوهُ بدلاً من المعزّ . ثم ساروا بأمرتهِ الى فتح الصعيد ، وأنزلوا بأهلهِ بلاءً كبيراً ، فثار عليهم عرَبهُ ، وانضمَّ الى الثائرين عربُ الدلتا وقابلوا المعتدين بعددٍ وافٍ من المشاة والفرسان ، وقاتلوهم قتالاً شديداً وكادوا ينتصرون لولا أنَّ ايبك صالحَ أقطاي وتعاون الاثنان على العرب الثائرين ، فهزم أقطاي عربان الصعيد ، وهزم ايبك عربانَ الدلتا . ثمّ تحوّل ايبك الى أقطاي ، وقد عقد النية على اراحة البلاد من شرّهِ ، فقبضَ عليهِ ودقّ عنقهُ في القلعة ، وأودع السجن بعضاً من دعاتهِ ، وفرّ الباقون الى سوريا وانضموا الى المغيث صاحب الكرك ، وأخذوا يتهددون حدود مصر . فسار ايبك الى الحدود برجالهِ ، واقام نحواً من ثلاث سنوات مستعداً لصدهم عند أوّل غارة . وكان ايبك قد استوزر قبطياً يدعى شرف الدين هبة الله ، ففرض على التجار والمزارعين وكلِّ ذي مال مكوساً باهظة سمّاها الحقوق السلطانية . واراد ايبك أن يجعل لنفسهِ عضداً في اسيا يثقُ بهِ ، فوقع اختيارهُ على ملك الموصل ، فحالفهُ وخطب اليهِ ابنتهُ . فخقدت عليهِ

شجرةُ الدرّ ، وصممت على الإيقاع بهِ . ودعتهُ يوماً الى القلعة فاجاب دعوتها ، وهناك أوعزت الى خمسةٍ من عبيدِها بقتلهِ ، فقتلوهُ في الحمّام (١٢٥٧) . وعظمت جريمتها في عيون الأمراء فقتلوها وطرحوا نصف جثتها في خندق القلعة فريسةً للكلاب

ملك ايبك نحواً من سبع سنوات سفك خلالها دماءً كثيرة . ولكنهُ احتفظ بمكانة مصر ، وشاد فيها مبانيَ عظيمة ، ومدارس كثيرة ، وكان أوّل ملكٍ تركيّ أقام في قلعة الجبل

السلطان المنصور نور الدين علي (١٢٥٧ — ١٢٥٩) — خلف المنصورُ نورُ الدين علي أباهُ ايبك على سرير الملك وهو في الخامسة عشرة من عمره . فأقام الامراء سيف الدين قُطُز نائب ابيهِ ، وصياً عليهِ . وفي سنة ١٢٥٨ فتح التترُ بغداد وخرّبوها ، وقتلوا المستعصم ، وأسقطوا دولةَ بني العبّاس وتهدّدوا مصر . فرأى الأمراء والقوّادُ حاجةَ البلاد الى سلطانٍ حازمٍ حكيمٍ بدلاً من نور الدين فخلعوهُ

السلطان المظفر سيف الدين قطز (١٢٥٩ — ١٢٦٠) — تولّى قطز الملك ونفى المنصورَ نور الدين ، وقبض على عددٍ من الأمراء المتشيّعين له . وقتل الوزير شرف الدين هبة الله القبطيّ ، وأخذ أمواله ، واستوزر بعدَهُ القاضي زين الدين يعقوب

وفي سنة ١٢٦٠ فتح التتر سوريا ، وخرّبوها وأعملوا في أهلها السيف ، وسلبوهم أموالهم . ثمّ تقدّموا لأخذ غزّة ، فحال دون بغيتهم جيش أرسلهُ السلطان قطز بقيادة الأمير بيبرس . وفي تلك الاثناء بعث هولاكو

قائد التتر وفداً الى صاحب مصر يسألهُ الخضوعَ، فقتل قطز رجال الوفد، وجمع جموعهُ، وسار لقتال التتر فأدركهم على عين جالوت بقرب بيسان وكسرهم، وقتل وأسر منهم جمعاً كبيراً. وتحوّل قُطُز الى مُدُن الشام فهدَّأ خواطر الثائرين فيها، وتدارك بحزمهِ وحكمتهِ المذابح التي كادت تقعُ بين المسلمين والمسيحيين، وأعادَ للأيوبيين حمصَ وحماة، وأناب عنهُ رجالاً يثق بهم في سائر المدن، ثمَّ أقام الدعوة لنفسهِ حتى حلب والفرات، وقفل راجعاً الى مصر. وكان بعضُ المفسدين قد أَوغروا صدرهُ على بيبرس فأضمرَ لهُ السوءَ. وبلغت بيبرس الوشاية فاستوحش من مولاهُ، وكمن لهُ في الطريق وقتلهُ قبلَ ان يبلغ قاعدة سلطنتهِ

الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس البندقداري (١٢٦٠—١٢٧٧) — هو أحد المماليك البحرية وكان في بدء أمرهِ في خدمة الأمير علاء الدين ايدكين البندقدار. ثم أخذهُ السلطانُ الصالح نجم الدين أيوب وأسكنهُ قلعة الروضة مع سائر مماليكهِ، فلم يلبث أن عُرِف بينهم بالحزم والحكمة والبسالة. وما زالَ يترقّى في الخدَم الى أن قتلَ المعزُّ عزُّ الدين ايبك الفارسَ اقطاي ففرَّ بيبرس مع سائر دعاتهِ الى الشام ولم يعد الى مصر الاَّ بعد جلوس قطز على تخت المملكة، وكان من أمرهِ ما كان

تولَّى بيبرسُ الملك بعد قطز فرسم باحضار المماليك البحرية الذين تفرَّقوا في الأقطار ودعاهم الى الطاعة، فأذعنوا لهُ وانقادوا اليهِ

وكان بيبرس حكيماً حازماً عادلاً، بعيد النظر، وَلِعاً بالفتوحات. ولعلَّهُ أشبهُ الملوكِ بصلاح الدين. وكان كثيرَ الاهتمام بترقية رعاياهُ

وباعلاء مكانة مصر ، وتثبيت اركان سلطانها على سائر بلاد الشرق . فقام بتدبير أمورها أحسن قيامٍ ، وبنى نظام حكومتها على اساس متين . وقد زادها قوةً بأن بنى نحواً من أربعين سفينةً حربية وانشأَ جيشاً خاصاً من المماليك ، وعزَّز قلاعهُ في سوريا ومصر ، وحصَّنها بالمماليك وحفر في وادي النيل ترَعاً وأقامَ لها جسوراً لحقن المياهِ عند الحاجة ، وأصلح منارة الاسكندرية ، وشاد منارة رشيد ومدارس كبيرة ، وصرف عن سعة في سبيل العلم وتشجيعهِ ، وألغى كثيراً من الضرائب التي وضعها سلفاؤُهُ ، ونهى عن تعاطي الحشيش والخمور ، وأقفل حاناتها ، ونظر في شكاوي المتظلمين ، وأحسن إلى أقارب قطز وأخصَّائهِ وعفا عن المجرمين . وحدثت في أيامهِ مجاعةٌ شديدة ، فكان يأتي المصريين بالقوتِ والحبوب من سوريا وغيرها ويُوزّعها على الرعية

وعقد بيبرس النية منذ تولَّى السلطنة على التفرُّد بزعامة المسلمين ، وضرْب التتر بيد من حديد ، واستعادة السواحل والثغور التي كانت لا تزال في قبضة الفرنج

﴿ بيبرس زعيم الاسلام ﴾ لم يدّخرْ بيبرس وسعاً في اعزاز جانب الدين واحترام طوائفهِ ، فأقام في مصر قضاةً للمذاهب الأربعة ، وبنى مقبرةً لفقراء المسلمين ، وشاد الحرَم النبويّ ومسجداً كبيراً في الحسينية ، ومساجدَ أخرى ، وأنفق فيها أموالاً جزيلة ، وحجّ وغسل الكعبة بماء الورد بيدهِ . وكان انه لما قتل التترُ الخليفة المستعصم هام ذووهُ متشرّدين في الاقطار ، وقدم عمهُ في تلك الاثناء على بيبرس فاكرم مثواهُ ، وأنزلهُ

في القلعة ، ونادى بهِ خليفةً ولقّبهُ بالمستنصر . فثبّتهُ الخليفة لقاء ذلك في السلطنة وخلع عليهِ . على ان بيبرس احتفظ بالسلطان التامّ ، ولم يعطِ الخلافة غير السلطة الدينية ومظاهر السيادة السياسية . وكان يضرب النقود باسمهِ واسم الخليفة معاً ، فأصبح من ذلك الحين زعيم الاسلام فعلاً وشرعاً . فالخلافة لم تكن في مصر الاّ اسمية . ولم تكن حال الخلفاء سواء ، بل كان بعض الملوك يرفع كثيراً من شأنهم ويفيض عليهم العطاء والأرزاق ، وبعضهم كان على الضدّ من ذلك ، حتى كان بعض الخلفاء لا يجد لهُ مورد رزق الاّ ما يجيء من النذور لمشهد السيدة نفيسة

﴿ مقاومة التتر والفرنج والتفرّد بحكم سوريا ﴾ كان قطز قد ضمّ سوريا الى مصر ، ولكنها ظلت عرضةً لمطامع الأيوبيين وغيرهم من الأمراء . وقد نادى أحدهم بنفسهِ ملكاً على دمشق ، وثار آخر في حلب ، وظلم أهلها وأخذ منهم ٥٠,٠٠٠ دينار . فحاربهما بيبرس وقبض عليهما ، وانتقم منهما شرَّ انتقام . ثم عقد معاهدات مع ميخائيل باليولوغوس صاحب القسطنطينية ، ومنفرد ملك صقلية وطوسكانا ، ويعقوب ده اراغون ، والفونس ده سيفيل (أشبيلية) وشارل دانجو أخي لويس التاسع ، وكايخسرو أحد الأمراء السلجوقيين في آسيا الصغرى ، وبركة خان ملك المغول القاطنين وادي نهر الفولغا ، وقد اعتنق هذا الاسلام ، وحالف بيبرس على ابناء جلدتهِ التتر الذين بقيادة « هولاكو » ، وأصبح عدوّهم الألدّ . فكانت محالفتهُ لبيبرس من اكبر الموانع التي حالت دون اجتيازهم الفرات الى سوريا . وكان بيبرس ادرى الناس بأهمية هذهِ

المحالفة فعمد الى توطيدها بأن تزوَّج بابنة بركة خان ، ودعا لهُ في جوامع القاهرة والقدس ومكة والمدينة . على أنَّ «هولاكو» لم يعدم نصراء لهُ على بيبرس . فان الفرنج رأوهُ أميل الى النصرانية منهُ الى الاسلام ، فاتحدوا معهُ على المسلمين ؛ فظلَّ بيبرس عشر سنوات (١٢٦١ — ١٢٧١) يخرج عليهم كلَّ سنة ويوقع بهم . وكان يقاتل في مقدمة رجالهِ ويتحمّل الاخطار والمخاوف اسوةً بهم ، ويعتني بجرحاهم أشد الاعتناء ، ويشدّد في حفظ النظام بينهم ، وينهاهم عن ارتكاب المنكرات . ولم تنتهِ سنة ١٢٧١ حتى كان بيبرس قد أنهك الفرنج وأضعف عزيمتهم ، واستولى على العدد الأكبر من مدنهم وحصونهم ومدن ارمينيا الصغرى فسألوهُ الصلح . وحدث في ذلك الحين ان وصلت الى سوريا الحملة الصليبية الثامنة بقيادة الأمير « ادوارد بلنتجنت » وعاد التترُ من جهة ثانية يتهدَّدون سوريا الشمالية فرأى بيبرس ان يصالح بعض أمراء الفرنج ، وظلَّ تارةً يقاتل البعض الآخر منهم ، وطوراً يحارب التتر أو الايوبيين

وكانت عصابات الاسماعيليين لا تزال ضاربةً في بعض انحاء سوريا ، وهي لا تخضع لسلطان ؛ فعمد الصليبيون الى محالفة زعمائها ، واتخذهم فرسان الهيكليين (Templers) تحت حمايتهم ، فتمادى الاسماعيليون في الشرّ والقوا الرعب في البلاد . فعني بيبرس بدفع اذاهم عن سوريا ، واستولى على حصونهم فيها ، وعمل على استمالتهم اليهِ ، وأقنع بعض هذهِ القبائل بالانتقال الى مصر والتوطّن فيها ففعلت ، ولم تلبث ان امتزجت بالأمة المصرية وضاع خبرها

وفي سنة ١٢٧٣ عزم بيبرس على محاربة التتر، فأوقع بهم على حين غفلة بجوار البيرة على الفرات وتسلمها. وفي سنة ١٢٧٥ أعاد الكرّة على ارمينيا الصغرى وفلسطين، فأخذ مدناً وحصوناً كثيرة. فاشتدّ بصاحب طرابلس الوجلُ، وعقد مع بيبرس معاهدةً على أن يدفع ٢٠,٠٠٠ دينار جزية سنوية. وفي سنة ١٢٧٧ عاد بيبرس لقتال التتر فواقعهم على الابلستين وانتصر عليهم انتصاراً تاماً، فارتدوا تاركين نحواً من ٧,٠٠٠ قتيل من رجالهم في ساحة الحرب. فغنم بيبرس معسكرهم وقتل من أسرهُ منهم، وتبوّأ عرش قيصرية حيث جلس سلاطين السلجوقيين قرنين كاملين؛ فأقيمت لهُ الدعوة وضُربت النقود باسمهِ وتغنى الشعراءُ بنصرهِ. على أن التتر لم يلبثوا أن حشدوا جيشاً آخر لقتالهِ فترك قيصرية وعاد الى سوريا. وفي غضون ذلك كان فريق من جيشهِ قد فتح النوبة وسواكن وايلة وكلّ أفريقيا الشمالية، فأضحت مملكتهُ من أوسع ممالك الأرض؛ وقد ملك سوريا وفلسطين كلّها بما فيها الشواطئ، ولم يبقَ إلاّ حماة في يد الأيوبيين وبضع مدنٍ في يد الفرنج. وتسابقت الشعوبُ من بدوٍ وحضرٍ الى محالفتهِ واسترضائهِ. وخطب الملوك والامراءُ ودّهُ، وارسلوا اليهِ التحفَ والهدايا. على أنهُ لم يكد ينعم بتحقيق أمانيه حتى داهمتهُ المنية (١٢٧٧) وقيل إنهُ شرب خطأً كأس سمٍّ كان قد أعدّها لسواه

السلطان ناصر الدين محمد بركة خان (١٢٧٧ — ١٢٧٩) — كان بيبرس قبل موتهِ بسنوات عديدة قد خصّ ابنهُ محمد بركة خان بولاية

العهد ، وأَقامهُ نائباً عنهُ في الملك ، وأزوجهُ ابنة الأمير قلاوون الألفي . وفي سنة ١٢٧٧ تولَّى محمد الأمرَ فأساءَ التدبير ، وأوحش ما بينهُ وبين الأمراء ، وانصرف الى اللهو والطرب تاركاً مصر ألعوبةً في يدي امهِ ابنة بركة خان المغولي ، ولم يبرح كذلك الى أن خُلع

السلطان العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس (١٢٧٩) — ارتقى الملك وهو في السابعة من عمرهِ ، فتولَّى أزمَّةَ الأمور الأميرُ قلاوون الألفي ؛ ولما استتبَّ لهُ الأمر خلع السلطان بعد مئة يوم وبعث بهِ الى الكرك حيث سُجنَ مع أخيهِ السلطان السابق واستقلَّ قلاوون بالملك

السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفي (١٢٧٩ — ١٢٩٠) — سمّيَ بالألفي لأنهُ ابتيع في اول امرهِ بالف دينار ؛ وسألهُ فريق من الامراء يومَ نفوا ناصر الدين أن يكون ملكاً عليهم ، فأبى وولَّى بدرالدين ، واكتفى بالوصاية ، لأنهُ أدرك الصعاب التي ستعترضهُ في هذا السبيل . ولما وثق من ميل الشعب اليهِ ، رفع اخصاءهُ الى أسمى المراتب ، ونفى بدر الدين ، وانفرد بالملك . وكان يرمي الى الغاية التي رمى اليها بيبرس ، ويرى دونها من المصاعب ما رأى هذا ، فسار على خطتهِ . وقد احتفظ بنظام الجيش وقوّتهِ وبمنعة مصر وحدودها وأملاكها ، وشتت شمل المماليك الذين أرادوا مشاطرتهُ السلطان . وفي سنة ١٢٨٠ ثار عليهِ أحدهم الأمير شمس الدين سنقر الاشقر في دمشق وتسلطن ولقّبَ نفسهُ بالملك الكامل . وقد أعانهُ في ذلك أمير حماة الأيوبي وفريقٌ من مماليك بيبرس وبدو الصحارى . فهزمهم قلاوون واستعاد دمشق ، ثمَّ عقد معاهدات

لعشر سنوات مع فرسان حصن المرقب في فلسطين ومع أمير طرابلس وصاحب عكا وغيرهم من امراء الفرنج . وكان من شروط المعاهدة أن تكون المواني التي في يد المسيحيين مفتوحةً لتجارة مصر . واشترط على الفرنج أن لا يجددوا بناء حصونهم ؛ فكان قبولهم بهذه الشروط دليلاً واضحاً على عجزهم عن مقاومتهِ ونذيراً بتلاشي أمرهم . وكان الباعث الوحيد لقلاوون على ابرام هذه المعاهدات أنهُ رأى التتر قد اجتازوا الفرات ودخلوا حلب ، وعاثوا بها ، فأراد ان يتفرَّغ لهم ويصدَّهم عن البلاد ؛ فخرج عليهم على اثر ذلك بخمسين الف رجل ، والتقى بهم بجوار حمص فهزمهم بعد مقتلةٍ عظيمة (١٢٨٢) فاضطروا الى عقد هدنة الى سبع عشرة سنة كفتهُ شرَّهم حتى آخر أيامهِ

وقد احتفظ قلاوون بالعلاقات الودية مع أحلاف بيبرس ، وحالف غيرهم ، وبذل جهدهُ في توسيع التجارة فسهل على التجار الأجانب وسائل الانتقال في بلادهِ ومستعمراتهِ حتى الهند والصين . ولما مات أحمد خان ملك التتر وثبت لقلاوون عجز هؤلاء عن مقاومتهِ ، حوَّل همهُ الى الفرنج فنقض معاهداتهِ معهم ، وباداُهم بالقتال ، فرضخوا ونال منهم شروطاً أوفق لهُ من الأُولى

وكان ملك النوبة قد امتنع عن اداء الجزية ، فسيَّر اليهِ حملتين في سنة ١٢٨٧ وسنة ١٢٨٩ فرجعت جيوشهُ بغنائم وافرة ، وعادت النوبة الى دفع الجزية . ومات وقتئذٍ بيموند السابع ملك طرابلس ، فزحف قلاوون على بلادهِ وفتحها عنوةً ، وقتل وسبى وخرَّب المدن والمزارع

وأحرق عاصمتها بعد حصار ٣٤ يوماً وانشأ قرب أخربتها مدينة طرابلس الحالية

وفي سنة ١٢٩٠ نقضت عكا شروط المعاهدة، فخرج قلاوون الى فتحها، ولكنهُ مات في الطريق قبل أن يدخلها

كان قلاوون شجاعاً حذِراً لا يحبُّ سفك الدماء. الاَّ انهُ كان يُنزل بالخونة أشدَّ انواع العقاب. وقد بنى في القاهرة مدرسة للايتام وداراً للمرضى يعالَج فيها الأغنياء والفقراء مجاناً على السواء. ومن آثارهِ الباقية الى يومنا هذا جامعهُ الشهير في شارع باب النحاسين

السلطان الأشرف صلاح الدين خليل (١٢٩٠ — ١٢٩٣) — خلف الخليلُ أباهُ قلاوون، ولُقّب بالأشرف. وكان بطّاشاً ظالماً، فقتل كثيرين من الأمراءِ وسلبهم أموالهم، وزجّ في السجون آخرين ممّن كان ابوهُ قد شملهم بالتفاتهِ

وفي سنة ١٢٩٢ فتح عكا عنوةً واحرقها، فسهل عليهِ بعد ذلك الاستيلاء على سائر مدن الفرنج. وعاد الى مصر داعياً للجهاد. ثمَّ رجع الى دمشق حيث عرض عساكرهُ وسار زاحفاً من طريق حلب الى قلعة الروم ففتحها وقتل من فيها من الأرمن، وسماها « قلعة المسلمين ». ثمَّ عاد الى مصر وتأهب لغزو اليمن وأرمينيا؛ على أن صاحب ارمينيا سلم اليهِ قسماً من بلادهِ حسماً للقتال

وفي سنة ١٢٩٣ عاد الى مصر، وتوجَّه يوماً الى الصّعيد في نفرٍ يسير. وكان الأمير بيدار كامناً لهُ في الطريق، فقتلهُ، وخلفهُ في الملك

ومن آثار السلطان خليل في مصر السوق المعروفة بالخان الخليلي وقد بناهُ على أنقاض مدافن الخلفاء الفاطميين .

السلطان بيدار القاهر ١٢٩٣ — بويع بالسلطنة في اليوم الذين قتل فيهِ مولاهُ ، ولم يتجاوز حكمهُ ذلك اليوم ، فقد قتلهُ المماليك اخذاً بثأر قتيلهم

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣ — ١٢٩٤) — بويع بالملك وهو في السابعة من عمرهِ ، وعهد الامراء في الوصاية الى الأمير زين الدين كتبغا . فعمد الى استمالة المصريين اليهِ ، ودبّر شؤون البلاد تدبيراً حسناً ، وسكّن الخواطر التي أثارها مقتل السلطان السابق . ولم يلبث أن خلع الناصر ونفاهُ الى الكرك زاعماً أنهُ سيعيدهُ متى أدرك سنّ الرشد . وثار كثيرون من الامراء على كتبغا فاخضعهم وقتل بعضهم .

السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري (١٢٩٤—١٢٩٦) — هو أحد مماليك الملك المنصور قلاوون جلس على التخت بقلعة الجبل بعد أن تغلّب على مناوئيهِ ، وتلقب بالعادل . وكانت أيامهُ شرّ أيامٍ لما وقع فيها من نقص منسوب النيل والمجاعات والوباء ، فتشاءم المصريون وكرهوا العادل ، لاسيما وانهُ اظهر بعض الميل الى التتر الذين استقدمهم الى مصر . وثار عليهِ الأمير حسام الدين لاجين نائبهُ في سوريا ، وهو عائدٌ من رحلة فيها . ففرّ كتبغا من وجههِ الى دمشق وسار لاجين بجيوشهِ الى مصر حيث استوى على كرسي الملك

السلطان المنصور حسام الدين لاجين (١٢٩٦ — ١٢٩٩) — بويع

بالملك ولقَّبَ نفسهُ بالمنصور ، وكان كريماً ورِعاً محبّاً لرعاياه ، فاخفض الضرائب الفادحة ، وعفا عن اخصامهِ وأعدائهِ ، وأبقى على كتبغـا ، وعوّضهُ صرخد ، وأطلق سراح الكثيرين من المسجونين والاسرى ، وجدّد وعد كتبغا للنـاصر من حيث التنازل لهُ عن الملك في حينهِ ، وعكف على الاصلاح بكلّ قواهُ ، وكان يتصدّق على الفقراء سرّاً ، فأحبهُ المصريون واحترموهُ

وكانت أراضي مصر في أيامهِ مقسومةً الى ٢٤ قيراطاً : للملك منها أربعة ، وللشعب عشرة ، وللجيش عشرة ، كانت تذهب طعمةً للأمراء ولأعوانهم ، فلا يصل منهـا للجند شيء . فردَّ لاجين تلك الاقطاعات لأربابها ، وخصَّ بطانتهُ بشيء منها ، وفرزَ قيراطاً على حدة للمصروفات غير المنظورة

وكان لاجين قد وعد الأمراءَ يومَ بايعوهُ بأن يساوي بينهم ويكونَ كواحدٍ منهم لا يأتي عملاً الاَّ بمشورتهم . فلما استتبَّ لهُ الأمر ، نسي الوعدَ ، وغمر بنعمهِ بعضَ الأخصَّاء ، واستنابَ أحـدَ مماليكهِ « منكوتمر » ؛ وغيَّب في طيَّات السجون مَن أبى الاعتراف بسلطنتهِ ، فارتفعت الشكوى من كلّ صوب . وأَراد لاجين أن يشغل المصريين عن الشكوى بالغزوِ والفتوحات ، فأرسل جيوشهم الى ارمينيا الصغرى . على انَّ ذلك لم يُنسِ الرعية ما كانت تقاسيهِ من الجور ، وما زال الاضطرابُ سائداً حتى قتل أحدُ الثائرين لاجين ومنكوتمر في يومٍ واحد

السلطان الملك القاهر سيف الدين طقجي ١٢٩٩ — وخلفهُ في السلطنة

سيف الدين طقجي أحد الذين اشتركوا في مقتلهِ ولكنهُ لم يملك الاّ بضعة أيام . ثم قُتِل

السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٩ — ١٣٠٩) — بعد مقتل سيف الدين استقدم الأمراء الناصرَ محمد بن قلاوون من قلعة الكرك حيث كان قد نُفي بعد خلعهِ . وبايعوهُ للمرَّة الثانية ؛ وكان قد بلغ الرابعة عشرة من عمرهِ ، فأقاموا عليهِ منهم وصيّين : سلار التتري نائب السلطنة ، والجاشنكير بيبرس الجركسي . وكان كلٌّ منهما يسعى سرًّا الى خلع الملك والاستئثار بالسلطنة ، فأطاعا في الحكم أهواءهما وأساءا التدبير

وكان فريقٌ من المماليك قد رحلوا عن مصر على عهد السلطان لاجين ، فأَخذوا يُحسّنون للتتر فتح سوريا . فساروا اليها بجيش جرّار (١٢٩٩) فخرجت لصدّهم العساكرُ المصرية يقودُها الأمراء والملك الفتى والتقى الفريقان في حمص ، فكانت موقعةٌ عظيمة انجلت عن تقهقر المصريين الى مصر وانتصار التتر ودخولهم الى دمشق (١٣٠٠) ، فأَحسنوا معاملة أهلها . على ان المصريين لم يلبثوا ان حشدوا جيشاً جرّاراً . وعادوا الى سوريا واستأنفوا القتالَ فشتّتوا جموع التتر واقتصُّوا من الدروز الذين انحازوا اليهم ، وعاد الناصر ظافراً الى مصر حيث جرى لهُ استقبال باهر (١٣٠٣)

وقد جرت على عهد الناصر حروب أخرى دون حرب سوريا أهمية ، منها حرب النوبة ، وكان ملكها قد امتنع عن اداء الجزية فدفعها صاغراً ، وحرب أرمينيا الصغرى التي انتهت بفرض الجزية السنوية . وقد حارب

الناصر ايضاً عرب الصعيد والصحراء ، فقتل منهم عدداً غير قليل وغنم أشياء كثيرة . وفي عهدهِ أخذ المصريون جزيرة انطرسوس من الفرنج . على ان هذه الحروب المتوالية اثقلت كاهل الأهلين بالضرائب ، وحملتهم خسائر جمة . وزاد في ضيق البلاد ما حدث من الزلازل الشديدة وطغيان المياه حتى اعتقد الناس بدنوّ اليوم الأخير . ورأى الناصر من جهة استياء المصريين وتذمرهم ومساعي بيبرس وسلار لخلعهِ ، وأدرك من جهة ثانية أنهُ ليس على ما ينبغي من النفوذ والقوّة للتغلب على هذه الصعاب، فتنازل عن الملك وهو يعلل النفس بالرجوع اليهِ عند ما تتم له الاهبة

السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الثاني (١٣٠٩ — ١٣١٠) — ترك الناصرُ الملكَ ، وكان فريقٌ من المماليك يريد السلطنة لسلار التتري وآخر يريدها لبيبرس الجركسي ؛ فجرى بينهما نزاعٌ شديدٌ انتهى بفوز بيبرس واستيلائهِ على السلطنة . على أن فيضان النيل جاء في تلك السنة دون حاجة البلاد ، فازدادت الأحوالُ سوءًا ، فلم يرضَ المصريون عن ملكهم الجديد ، فاشتدَّ بذلك أزرُ أنصار سلار، واستأنفوا السعيَ للحصول على السلطنة

وكان الناصر يسعى من جهة أُخرى الى استمالة أهل الشام اليهِ ليكونوا لهُ عدةً على توطيد اركان سلطنتهِ ، وهذا ما كان يرمي اليهِ بتنازلهِ عن الملك ، فلم يلبث ان شخص الى سوريا ، فبايعهُ امراء حلب وحمص وحماة وصفد وطرابلس والقدس ، وطرد الحامية المصرية من غزَّة ، ثم سار يريد مصر . وانتهت هذهِ الأخبار الى بيبرس ، ورأى كرهَ المصريين

لهُ وعجزَهُ عن المقاومة ، نخاف سوءَ المصير ، وبعث باستقالتهِ وخضوعهِ الى الناصر وفرَّ الى الشام

الناصر محمد بن قلاوون (١٣١٠ — ١٣٤١) — ارتقى الناصر السلطنة للمرَّة الثالثة ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمرهِ ، فأقيمت لهُ الدعوة في مصر والشام والحجاز

وخلع الناصر على الخليفة المستكفي باللهِ سليمان وعلى أَنصارهِ من الامراء وأرباب الشرع والقضاء ، وعوَّض سلار الشوبك ، وعفا عن بيبرس وعوَّضهُ إمارة صهيون ، ولكنهُ لم يلبث ان قبض عليهِ وعلى سلار وسائر الامراء الذين أَساءوا اليـهِ في صغرهِ ، وقتلهم الواحد بعد الآخر ، وأعاد الى خزانة الحكومة كل ما جمعوهُ ظلماً من الأموال وكانت كثيرة فمكنتهُ من الغاء الضرائب الباهظة التي فرضها الأمراء على الشعب كضريبة الملح والدجاج وقصب السكَّر وضريبـة المرور في النيل وضريبة الخيل والعبيد الى غير ذلك من وسائل النهب المتنوّعة . وأعاد مسحَ الاراضي الزراعية وخصَّ منها ١٠ قراريط بالمملكة ، و١٤ قيراطاً بالجيش والامراء . وكان في سنيّ المجاعات يستورد الحبوب من سوريا ، ويرسم لها أسعاراً عادلة . واعتنى الناصر بتحسين الريّ ، فحفرَ الآبار والترع الكثيرة ، وبنى الجسور والسدود ، وجرَّ الماءَ الى القلعة وغيرها من الجهات . وحسَّن التجارة ايضاً ، ووسَّع نطاقها بأن عقد معاهدات تجارية ، وسهَّل توريدَ البضائع الى الديار المصرية ، وشدَّد في السهر على الآداب العمومية ، وأعلى مكانة الادباء والعلماء . وكان من أعزّ المقرّبين اليهِ العالم المؤرّخ

الشهير أبو الفداء (المتوفى سنة ١٣٣١) فأعاد لهُ حماة إمارةَ أجدادهِ، وامرَ النـاس بالخضوع والدعاء لهُ كسلطانٍ ثانٍ، وكان يدعوهُ أخاهُ ويستصحبهُ في حجهِ الى مكة. وعنيَ الناصر عنايةً شديدة بفن البنـاء وبالفنون الجميلة على اختلاف أنواعهـا كالرسم والتصوير والحفر والتنزيل والصياغة والنجارة، فبلغت في أيامهِ من الإتقان والكمال ما لم تعرفهُ من قبل. وكانت أكثر مبانيهِ نماذج بديعة لهذهِ الفنون. ومن تلك المبـاني قصره المعروف بالأبلق في القلعة، سمي كذلك اشارةً الى عمُدهِ السوداء والبيضاء. قيل وقد انفق في بنائهِ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ومنها جامعهُ في القلعة أيضاً، وجامعهُ في باب النحاسين بجوار جامع أبيهِ، وغير ذلك من الجوامع والقصور والمدارس في الوجهين البحري والقبلي. ولا تزال من آثارهِ قصاع ومباخر وقناديل ومناضد ومقاعد صغيرة، وكلها من البرونز أو النحاس أو الخشب، مزدانة بأجمل الرسوم ومنزّلة بالفضة والميناء

وسار الناصر على خطة قلاوون وبيبرس من حيث إبرام المعاهدات مع أقوى الدول الخارجية. وقد نفذت كلمتهُ عند الأمراء والملوك، فكانوا يبعثون وفودهم الى بلاطهِ ويسعون في التقرب اليهِ. على أن أملاك مصر لم تتوسعّ عما كانت على عهد أبيهِ قلاوون. وكان يجتنب الحروب، ويسعى الى نيل أمانيهِ عن طريق السياسة والدهاء وحسن التدبير

وكان الناصر ورعاً، فحجَّ ثلاث مراتٍ، وأكثر من الصدقات وشدَّد في احترام الدين. وكان سيءَ الظن شديد الانتقام حازماً كثير الاستبداد، فألغى منصب الوزارة والنيابة، وقتل مناوئيهِ من الأمراء،

واستقلَّ في الرأي والعمل بذكاء وفطنة وعناية كبرى في المحافظة على راحة الأمـة وحقوقها . ومن مآثره الحميدة ميلهُ الى بساطة الملبس وشظف العيش؛ على أنهُ كان يحب إحاطة الملك بكل مظاهر الفخامة والعزَّة، فاكثر من شراء المماليك وألبسهم من اللباس وحمَّلهم من الأسلحة مالم تسمع بهِ أذن إلا في الحكايات من ذهب وفضة وديباج وحرير وقصب وأطالس

وكان عالماً وسياسياً ومزارعاً وصيَّاداً وفارساً في آن واحد . فاعتنى بتربية الجياد ، واقتنى الألوف منها ، وكان يدفع في ما يعجبهُ منها ٤٠٠ دينار عن الرأس الواحد . واعتنى ايضاً بالماشية واكثر منها في مزارعهِ . وولَّى كثيرين من امرائهِ مناصب لم تعرفها مصر من قبل في دوائر صيدهِ واصطبلاتهِ وبلاطهِ الخ . ومات (١٣٤١) تاركاً بلادَهُ على أحسن حال من السعة والأمن والعمران والقوَّة

السلطان المنصور سيف الدين ابو بكر (١٣٤١) — تتابع في السلطنة بعد موت الناصر في مدة ٤١ سنة ١٢ ملكاً من ذريتهِ ما بين طفلٍ قاصر وشابٍ جاهل . فاستبدَّ الأمراء بالحكم ، وعادوا الى ما كانوا عليهِ قبل الناصر من النهب والجور والبذخ . وكان أول السلاطين بعد الناصر ابنهُ المنصور سيف الدين . بويع بالسلطنـة يوم مات أبوهُ ، وقام بتدبير الدولة الأمير قوصون . نخلع السلطان لتسعة وخمسين يوماً من مبايعتهِ

السلطان الأشرف علاء الدين كجك (١٣٤١) — بايعـهُ قوصون بعد أخيهِ ، وهو في الثامنة من عمرهِ ، واستبدَّ بالحكم دون سائر الأمراء فاستوحشوا منهُ ، وقبضوا عليهِ وعهدوا في الوصاية بعدهُ الى الأمير

ايدغمش ، فلم يلبث هذا أَن خلع الأشرف

السلطان الناصر شهاب الدين احمد (١٣٤٢) — وبعث الأمير ايدغمش يستدعي من بلاد الكرك الأمير شهاب الدين أخا الأشرف ، فقدم للحال ، وصعد الى قلعة الجبل واحتجب عن الأمراء الى ان لبس شعار السلطنة ، فنفرت عنهُ قلوبُ الأمراء لإعراضهِ عنهم ، لاسيما وانَّهُ أَساءَ السيرة . وحدث بعد ذلك أَنهُ عادَ الى الكرك ، واستناب في مصر الأمير « آق سنقر » السلاري ، فاغتنمها الامراءُ فرصةً لخلعهِ

السلطان الصالح عماد الدين اسماعيل (١٣٤٢ — ١٣٤٥) — بايعهُ الامراءُ بعد خلع أخيهِ ، وعهدوا في تدبير أُمور البلاد الى الأمير ارغون زوج أُمّهِ بالاشتراك مع بعض منهم . ثمَّ ساروا والعساكر لقتال الناصر أحمد في الكرك ، فأَخذوهُ وقتلوهُ ، وأتوا برأسهِ الى أخيهِ السلطان الصالح فهالهُ ذلك ، فمرض حيناً ومات

السلطان الكامل سيف الدين شعبان (١٣٤٥ — ١٣٤٦) — قام بالسلطنة بعد أخيهِ وأَراد ان يستقلَّ بالأمر فأوحش ما بينهُ وبين الأُمراء حتى ثاروا عليهِ وخلعوهُ

السلطان المظفر زين الدين حاجي (١٣٤٦) — وخلف الكامل من يومهِ أخوهُ المظفَّر زين الدين ، واساءَ السيرة وانهمك في اللهو ، فقبض الامراءُ عليهِ وذبحوهُ

السلطان الناصر بدر الدين حسن (١٣٤٦ — ١٣٥١) — بويع بالسلطنة للمرَّة الأولى بعد أخيهِ المظفر ، وهو في الحادية عشرة من عمرهِ ؛

فقام بالأمر الأمير شيخو العمريّ. وكانت مصر بين ضعف السلاطين وخمولهم ودسائس الأمراء ومكايدهم على اسوإ حال. فسعى شيخو الى إصلاح الامر. على أنّ الطاعون الذي تفشى في مصر واوروبا (١٣٤٨) لم يدع له مجالاً للعمل. وكان يموت في القاهرة وحدها في اليوم الواحد من ١٠,٠٠٠ الى ٢٠,٠٠٠. وصحب الطاعون وباء آخر تفشى في الماشية، وقحط في الأراضي الزراعية؛ فلم تمرّ السنة المذكورة حتى أقفر أكثر المدن وتحوّلت المزارع الى صحارى

وفي سنة ١٣٥٠ سيَّر السلطان حسن جيشاً من دمشق وآخر من حلب الى مدينة سنجار في ما بين النهرين، فحصروها حيناً حتى طلب اهلها الأمان، وسلموا. فعادت الجيوش عنهم. وحارب السلطان حسن أيضاً الملك «المجاهد» صاحب اليمن في مكة، وقبض عليهِ وسجنهُ. وأراد حسن أن يستبدَّ بالحكم وبالأمراء نخلعوهُ وسجنوهُ.

السلطان الصالح صلاح الدين صالح (١٣٥١ — ١٣٥٤) — بويع بالملك بعد أخيهِ، فكثر لهوهُ، وخرج عن الحدّ في التبذُّل واللعب حتى ثار عليهِ الاميران شيخو وطاز، وقبضا عليهِ واعتقلاهُ في القلعة

السلطان الناصر حسن (١٣٥٤ — ١٣٦١) — أعادهُ الأمير شيخو الى السلطنة للمرّة الثانية، فقبض على زمام الأُمور بحزمٍ وشدَّةٍ؛ وقبض على الأَمير طاز نائبهِ في حلَب وسجنهُ في الاسكندرية واستخلفهُ الأَمير منجك اليوسيفي. وقبض ايضاً على عددٍ من الأُمراء لم يخلصوا لهُ؛ فكانت مواقع بين مماليكهِ ومماليكهم تمَّ لهُ فيها عليهم النصر. وكان من

أقرب المماليك اليهِ الأمير يلبغا العمري

وسار السلطان حسن (١٣٥٩) بجيشٍ لقتال أرمينيا الصغرى ، فدخلها وأخذ أطنه وطرسوس والمصيصه وعدة بلدانٍ أُخرى

كان السلطان حسن شجاعاً اديباً مهيباً ، صاحب كلمةٍ نافذة وتقىً متين . وكان يكرهُ المماليك ويريد اجتثاث أصلهم ، فجعل يقيم أولاد العامة أُمراءَ . وما زال كذلك الى أن وقع بينهُ وبين مملوكهِ يلبغا جفاء وقتال انتهى بالقبض على السلطان وقتلهِ وليس لهُ من العمر سوى بضع وعشرين سنة

ومن آثارهِ في مصر جامعهُ ، تجاه قلعة الجبل ، وقد اوسعَ دورهُ وأحسن هندامهُ واضخم شكلهُ ، وزينهُ بالرسوم والنقوش . ولهُ إيوانٌ كبير ذرعهُ ٦٥ ذراعاً في مثلها يقال إنهُ اكبر من أيوان كسرى الذي في المدائن في العراق

السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي (١٣٦١ — ١٣٦٣) — بويع المنصور صلاح الدين محمَّد بعد عمهِ السلطان حسن ، وكان في الرابعة عشرة من عمرهِ . فقام بالأمر الأمير يلبغا ، ولم يلبث أن خلع صلاح الدين محمد وسجنهُ في القلعة

السلطان الأشرف زين الدين شعبان (١٣٦٣ — ١٣٧٦) — هو حفيد الناصر ، وابن عمّ السلطان السابق ، بايعهُ الأمير يلبغا وعمرهُ عشر سنوات ، فحجر عليهِ . وبقي الأشرف في الحجر حتى قُتل يلبغا ، فاستبدَّ بعدهُ بالملك وانفرد بهِ

وفي سنة ١٣٦٥ رست في ميناء الاسكندرية عمارةٌ بحرية عليها ملك قبرص و ١٢,٠٠٠ مقاتل فنزلوا المدينـة على حين غرّة ، ونهبوها وعادوا عنها بخمسة آلاف أسيرٍ ؛ فارغمت الحكومة نصارى القطر على دفع فديتهم والاكتتاب بما يكفي لبناء عمارة حربية في مصر وطرابلس

وفي سنة ١٣٦٩ خرجت العمارة القبرصية على طرابلس والاسكندرية مرّةً ثانية فلم تنل منهما وطراً . ثم عقد أصحابها الصلح مع مصر وعادوا على أعقابهم (١٣٧٠) وقُتل الأشرف سنة ١٣٧٦

السلطان المنصور علاء الدين علي (١٣٧٦ — ١٣٨١) — خلف أباهُ الاشرفَ شعبانَ وهو في السابعة من عمرهِ ، ولم يكن حظُّهُ من السلطنة سوى الاسم

وكان ذوو الامر في مصر قد عهدوا في حراسة الحدود الشماليـة السورية الى جمعٍ من التركمان ، فانقلبوا عليهم (١٣٧٨) وجاهروا لهم بالعداء فخرج عليهم المصريون وأخضعوهم

السلطان الصالح زين الدين حاجي (١٣٨١ — ١٣٨٢) — بويع بعد اخيهِ علاء الدين . وقام بتدبير الامور الاميرُ الكبير برقوق ، ولم يلبث أن خلع الصالح واستولى على الملك (١٣٨٢) . فانقضت بذلك دولة المماليك البحرية ، وكانت مدّتها ١٣٦ سنةً هجرية وسبعـة اشهر وايام ؛ وسلاطينها ٢٥ ، منهم امرأة وهي شجرة الدرّ

الفصل العاشر

دولة المماليك الجراكسة

(١٣٨٢ – ١٥١٧ م) = (٧٨٤ – ٩٠٦ هـ)

كان المنصور قلاوون أحد السلاطين البحرية قد اشترى عدداً كبيراً من المماليك ليكونوا لهُ قوةً خاصةً، وكان قد استقدمهم من بلاد الجركس الواقعة في جبل قاف (قوقاس) شرقيَّ البحر الأسود، واعتنى بتهذيبهم وتثقيفهم، وقرَّبهم اليهِ، واستخدمهم في بلاطهِ، وعهد اليهم في حراسة حصونهِ وقلاعهِ، وقلَّدهم أسمى المراتب، وأسكنهم أبراج القلعة فعُرفوا بالمماليك «البرجية». وقد ازداد عددهم شيئاً فشيئاً، وبَعُدَ نفوذهم، وكثرت سيطرتهم على حكومة البلاد حتى انتهى بهم الأمر الى خلع السلطان حاجي بن شعبان آخر السلاطين البحرية، ومبايعة أحدهم السلطان برقوق. فقامت بهم دولة «المماليك الجراكسة» في مصر

السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بن آنص (١٣٨٢ — ١٣٩٨) — بايعهُ المماليك، وبايعهُ الخليفة المتوكّل على الله. وعمل برقوق على توطيد أركان الدولة الجديدة، فأكثر حولهُ من المماليك الجراكسة، وقتل العدد الكثير من رجال الدولة السابقة. على أنَّ الخليفة المتوكل لم يلبث أن

حدَّثته نفسهُ بأن يجمعَ بين السلطنة والخلافة ؛ وعرف برقوق مقاصدهُ فعزلهُ ، ثمَّ عفا عنهُ بعد مدةٍ وأَعادهُ الى الخلافة

وفي سنة ١٣٨٩ ثار على برقوق يلبغا الناصري نائبهُ في حلب ، والأَمير منطاش نائبهُ في ملاطية ، وانضمَّ اليهما التتر والتركمان الذين كانوا على الحدود الشمالية من سوريا ، فهزموا جيوشهُ ودخلوا دمشق ، وزحفوا على مصر ، فبلغوا القاهرة ونهبوها . وقبض يلبغا على برقوق ونفاهُ الى الكرك . وأعاد الصالح حاجي بن شعبان الى السلطنة . ووقع بعد ذلك عداءٌ بين يلبغا ومنطاش ، فقبض الثاني على الأول وسجنهُ في الاسكندرية ؛ وخرج يريد محاربة برقوق ، وكان قد أفلت من منفاهُ وسار بمن جمع من انصارهِ لقتال اعدائهِ . فحاربهُ منطاش في دمشق فانهزم (١٣٩٠) وغنم برقوق أموالهُ ، وأسر الخليفة وحاجي . وعاد الى القاهرة حيث أخضع العُصاة ، واستبدَّ بالسلطنة ؛ وحوَّل همَّهُ الى بثِّ روح الشقاق بين الامراء والأَحزاب ليُضعفهم ويتقوَّى عليهم

وفي سنة ١٣٩٣ فتح تيمورلنك بغداد ، وطرق ما بين النهرين (١٣٩٤) وأخذ بعض الولايات المصرية في تلك الانحاء . فاستعد برقوق لمحاربتهِ واستنصر بيازيد الرابع سلطان بني عثمان وغيرهُ من الاحلاف فاعانوهُ . ورأى تيمور أنهُ لن يقوى على الثبات أمامهم ، فأرسل وفداً الى برقوق يسأله الصلح ، فقتل برقوق رجال الوفد وهزأَ بمطالب تيمور ، وعبأ جيوشاً جرَّارة سارت عن طريق دمشق فحلب الى البيرة على الفرات ، ولكنهُ مات قبل اشتباك القتال

وقد أحب برقوق العلم ، وبنى مدرسة بين القصرين دعاها بالظاهريَّة. ومباني كثيرة غيرها منها جامع في شارع النحاسين لا يزال معروفاً بجامع السلطان برقوق وكان ولعاً باقتناء الاسلحة والجياد

السلطان الناصر فرج (١٣٩٨ — ١٤٠٥) — كان أكبر أولاد برقوق من زوجة يونانية . بويع بالسلطنة للمرَّة الاولى وهو في الثالثة عشرة من عمرهِ ، ولقّب بالناصر . فدبَّر أمرَ المملكة الامير إيتمش الى أن ثار عليهِ بعضُ الامراء ففرَّ الى الشام وقُتِل فيها . وفي سنة ١٤٠٠ استولى حاكم سوريا على مضايق فلسطين ، فخرج عليهِ الناصر فرج بجيوشهِ رغمَ صغر سنهِ ، وهزَمهُ واسرَهُ وقتل دعاتهُ . ولم يكد ينعم بظفرهِ حتى طرقَ تيمور بلادَ الشام وخرَّبها وعمَّها بالقتل والنهب والاسر ، وهزم فرج (١٤٠١) ففرَّ الى مصر لحشد جيوشٍ جديدة . وبينما هو يتأهبُ للعودة الى سوريا فتح تيمور اسيا الصغرى ، وهزم الجيوش العثمانية . فخارت عزيمة فرج ، واعترف لتيمور بالسيادة على مصر ، وضرب النقود باسمهِ ، وأطلق سراح مسجونيهِ من التتر (١٤٠٢) . وكانت مصر يومئذٍ على اسوإ حالٍ من جراء ويلات هذهِ الحروب ونفقاتها وقد زادها سوءًا قصورُ النيل فشرقت الارض ، وعظم الغلاء والفناء وباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع . ودهم بلادَ الشام حتى مجرى الفرات جرادٌ لم يترك فيها خضراء ، فاشتد الغلاء

وكان قرصانٌ في تلك الاثناء يعيثون في البحر الابيض المتوسط نهباً وقتلاً ، فاعتدوا على الاسكندرية (١٤٠٣) ثمَّ تقدموا الى سوريا

وغزوا صيدا وبيروت وطرابلس (١٤٠٤) وكان العثمانيون من جهتهم يتهددون الحدودَ السورية الشمالية وليس من يقف في وجههم

أما تيمور فلم يطأ أرض مصر قط ، ولا حكمها فعلاً لانهُ مات سنة ١٤٠٥ . ووقع بعدَهُ خصامٌ بين أولادهِ أنقذ فرج من سيادتهم ، فاشتدّت عزائمهُ ، واستأنف الاستعدادَ لاسترجاع سوريا . ولكنه لم يفعل لأنَّ فريقاً من مماليكهِ في الشام خرجوا في ذلك الحين عن طاعتهِ وتآمروا عليهِ قاصدين الاستيلاء على السلطنة ففرّ من قاعدتهِ واختفى أثرُهُ

السلطان المنصور عزّ الدين عبد العزيز بن برقوق (١٤٠٥) — بويع بالسلطنة بعد فرار أخيـهِ . ثمَّ وجدَهُ الامراءِ غيرَ كفوء لها ، فخلعوهُ ونفوهُ الى الاسكندرية قبل أن يتمّ ثلاثة اشهر من حكمهِ

السلطان الناصر فرج بن برقوق (١٤٠٥ — ١٤١٢) — واتصل بالسلطان فرج خبرُ خلع أخيه فعاد من مخبإهِ يطالب بحقوقهِ ، واستولى على قلعة الجبل وقبض على أزمة الملك بيدٍ من حديد . وكانت سوريا لا تزال مطمع الكثيرين من الامراء ، وقد ادّعى أحدُهم السلطنة عليها وتلقب بالملك العادل . فخرج فرج لمحاربتهم جميعاً وهزمهم مرّات متوالية . وكان منهم اميران قويان : الشيخ المحمودي ، ونوروز الحافظي ؛ وقد استفحل أمرُهما في دمشق ، وانحاز اليهما الناس ، فسار فرج أخيراً لقتالهما بجيوشهِ الجرّارة ، فهزماهُ الى دمشق وحصراهُ فيها ، وأسرا الخليفة المستعين بالله وعدداً غفيراً من أعيان الدولة المصرية . ثمَّ اضطرا الخليفة (١٤١٢) الى خلع فرج فخلعهُ ولم يلبثا بعد ذلك أن قتلاهُ

الخليفة المستعين بالله العادل (١٤١٢) — بويع بالسلطنة ، فاجتمعت لهُ السلطتان الدينية والسياسية . وعاد الى مصر يصحبهُ الشيخ المحمودي، اكبر اعداء الملك السابق ، مدبّراً ومشيراً

وكان المستعين بالله عادلاً رؤوفاً بالرعية ، فأنصف المظلومين ، وتصدّق على الفقراء ، وأخفض الضرائب التي وضعها سلفهُ ، ورفع راية العدل والأمن في وادي النيل من اقصاهُ الى اقصاه . على أنّ المحمودي طمع بالملك ، فاستمال الامراءَ اليهِ ، وضيّق على الخليفة وأرغمهُ على الاعتراف بهِ شريكاً لهُ في الملك ، ولقّب نفسهُ بالملك المؤيد . ولم يلبث بعد ذلك أن حجرَ على الخليفة في القلعة ، ووكل بهِ من يحفظهُ وأهلهُ

السلطان المؤيد ابو النصر المحمودي (١٤١٢ — ١٤٢١) — تفرّد المحمودي بالسلطنة ، فسار لإخضاعِ امراء التركمان على حدود سوريا الشمالية (١٤١٨) فخضعوا لهُ ، وضرب بعضهم النقود باسمهِ . وفي غضون ذلك كان الخليفةُ في مصر يعمل على استعادة السلطنة فاستمال اليهِ الامراءَ والمشايخ ، ووزّع على الاهلين منشوراً يعلن فيهِ خلعَ السلطان . وانتهى الى المؤيد ذلك الخبرُ ، فرجع وعزل المستعين من الخلافة وعهد فيها الى أخيهِ داود ولقّبهُ بالمعتضد بالله . وثار التركمان ثانيـةً بعد رحيلهِ عنهم واستقلوا باماراتهم فخرج عليهم ابراهيم بن المؤيد (١٤١٩) فحاربهم حتى انتصر عليهم ، وضربَ النقودَ في بلادهِم باسمِ أبيهِ ، وعاد الى القاهرة مكللاً بالنصر ، ومات بعد عودتهِ بسنة

واقتفى المؤيدُ أثرَ المستعين باللهِ من حيث العدل واحترام حقوق

الأمة والسهر على مصالحها . ولكنهُ لم يستطعْ ردعَ المماليك عن النهب والجور ، ولا تمكّن من إرضائهم فتألّمت الرعيةُ وساءَ حالها رغم نيّاتهِ الحسنة

وقد شاد المؤيد في مصر مباني كثيرة منها جامعهُ العظيم المعروف باسمهِ

السلطان المظفر شهاب الدين احمد بن المحمودي (١٤٢١) — بويع بعد أبيهِ وعمرهُ سنة ونصف سنة . فتولّى تدبيرَ السلطنة الأَمير ططر ، وفرّق ما جمعهُ المؤيد من الأَموال ، وخرج بالمظفَّر لمحاربة الأُمراء في الشامِ فظفر بهم . ثمَّ خلع المظفرَ وخلفهُ في السلطنة

السلطان الظافر أبو الفتح ططر (١٤٢١) — بويع بالسلطنة وهو لا يزالُ في دمشق . وقد أُصيب بمرضٍ لم يقعدهُ عن التوجُّهِ الى قلعة الجبل في مصر حيث تُوفي لثلاثة أشهرٍ من مبايعتهِ

السلطان الصالح ناصر الدين محمد بن ططر (١٤٢١) — خلف أَباهُ في السلطنة وهو في العاشرة من عمرهِ . فقام بأمور الدولة الأَميرُ سيف الدين أبو النصر برسباي . ولم يلبث أن خلع الصالح ، وتفرَّد بعدهُ بالسلطنة

السلطان الأشرف برسباي (١٤٢٢ — ١٤٣٨) — اغتصب السلطنة ولقّب نفسهُ بالأَشرف . وفي السنة الأُولى لمبايعتهِ فاض النيلُ فوق المعتاد ، فكثرت الخيرات ، وشبع الفقراء وتفاءَل الناسُ خيراً بملكهم الجديد . على أَن برسباي لم يحقق الآمال ، فانَّهُ غمر المماليك بالنعَم ، وأطلق لهم عنان النهب والجور رغبةً منهُ في استمالتهم اليهِ واستبقاء السلطنة في قبضتهِ طويلاً ؛ فتجاوزوا في غيهم الحدّ . وكان برسباي يُشدّد على الشعب ، ويسكّن ثائرَهُ بأعنف الوسائل ، فلم تقع في أيامهِ ، رغم سوء الحال ،

سوى ثورةٍ واحدة في دمشق أخمدها بلا عناء

وكانت جزيرة قبرص على عهدهِ ملجأ قرصان البحر الذين اعتادوا الإعتداء على شواطئ مصر وسوريا . فرأى برسباي انهُ لن يتمكن من قطع دابرهم وكف أذاهم عن بلادهِ الاَّ اذا هو أخذ قبرص . فبعث اليها (١٤٢٤) ببضع سفنٍ حربيَّة رجعت عنها ببعض الاسرى وشيء من الغنائم . وفي السنة التالية وجَّهَ عمارةً ثانية عادت اليهِ بألف اسير وغنائم كثيرة . وفي سنة ١٤٢٦ أرسل عمارةً اكبر من الاولى والثانية ، ففتحت قبرص نهائيًّا بعد قتال شديد ، وحملت ملكها يعقوب ده لوزنيان أسيراً الى مصر . فدُفِعت عنهُ فدية قدرُها ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، وتعهَّد هو بدفع جزية سنوية لمصر ، فأطلق برسباي سراحهُ . وما زالت قبرص منذ ذلك اليوم حتى سقوط دولة المماليك الجراكسة تابعة لمصر معترفة لها بالسيادة

ووجَّهَ برسباي جلَّ عنايتهِ الى توسيع نطاق التجارة مع آسيا وأوروبا ، وخصوصاً مع الهند فسهَّل لتجارها وسائل توريد بضائعهم الى موانيهِ في مصر وسوريا وبلاد العرب ، وأحسن معاملتهم ، ومنع عنهم الاعتداء ، ولم يحملهم سوى رسوم طفيفـة ، على أنهُ كان لمصر من ورائها كسبٌ طائل ؛ وقد فرَّج عن الرعية بالغاء ما كان للأُمراء من الاحتكارات

وفي سنة ١٤٣٣ حارَب التركمان الذين كانوا في ديار بكر فلم ينل منهم وطراً ، وحالف بني عثمان ليأمن اعتداءهم

وقـد بنى الاشرف مدارس وجوامع منها جامعـهُ المعروف بالجامع الاشرفي

السلطان العزيز يوسف (١٤٣٨) — تولى الأميرُ جمال الدين يوسف السلطنة بعد أبيهِ الأشرف برسباي وهو في الخامسة عشرة من عمرهِ ، وتلقب بالعزيز . ووقع خصامٌ بين قائدِ جيوشهِ الأمير جقمق ومماليكهِ أدَّى الى خلعهِ لثلاثة اشهر من مبايعتهِ

السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣) — هو أحد موالي السلطان برقوق ، انتظم في سلك الجيش وما زال يرتقي مراتبـهُ الواحدة بعد الاخرى حتى اصبح أتابكاً ونائباً لبرسباي . بويع بالسلطنة بعد العزيز يوسف ولقب بالظاهر . وفي أيامهِ فشا في القطرِ طاعون أمات كثيرين ؛ ومات أيضاً في أيامهِ الخليفة المعتضد باللهِ نخلفهُ المستكفي باللهِ ٨ سنوات قضاها كسلفهِ في المبرّات ، ثمَّ مات وخلفه اخوهُ القائم بامرِ الله

وكان جقمق ينظر بعين الحذَرِ الى مطامع ولاة الحدود السورية الشمالية ، فحاسنهم وصاهرهم حتى اعترفوا لهُ بالسيادة ، وكفوا عن السعي وراءَ الاستقلال . وجدّد المحالفة مع بني عثمان لما رأى من ازدياد قوَّتهم . وكان ليناً في حكمهِ شديد الاحترام للدين ، فامتنع عن المحرمات ونهى عن المسكر والملاهي العمومية . وكان بعكس برسباي يحسن العربيـة كالتركية . وقد درس اللاهوت والشرع على علماءِ العرب . ولما بلغ الثمانين من عمرهِ تنازل عن السلطنة لابنهِ عثمان

السلطان المنصور عثمان (١٤٥٣) — هو ابن جقمق من زوجة يونانية، بويع بالسلطنة على عهدِ أبيهِ . وكان الخليفة القائم بأمر الله طامعاً بالملك ، فظلَّ يكيد لهُ ، حتى وقعت في مصر ثورة ادَّت إلى خلعهِ والحجر عليهِ .

وبايع بعدهُ الأمراء مملوكاً منهم فذهبت آمال الخليفة أدراج الرياح

السلطان الأشرف سيف الدين اينال (١٤٥٣ — ١٤٦١) — بويع بالسلطنة بعد عثمان بن جقمق ، فعزل القائم بأمر الله وولّى الخلافة أخا المعتضد ولقّبهُ بالمستنجد بالله . وكان اخصام السلطان كثيرين ، فولّى وعزل من الوزراء عدداً كبيراً

وفي السنة الأولى لمبايعتهِ فتح محمد الثاني سلطان بني عثمان القسطنطينية ، وأرسل وفداً الى مصر يحملُ الى اينال بشرى نصرهِ المبين ، فزيّن إينال القاهرة أياماً احتفالاً بنصر حليفهِ وتوثيقاً لعرى صداقتهما ومحالفتهما

وفي سنة ١٤٥٦ وضع الأميرُ ابراهيم حاكم كرامان يدهُ على أطنه وطرسوس ، فسيّر إينال جيشاً لمحاربتهِ ، واستعادهما منهُ (١٤٥٧)

السلطان المؤيد احمد شهاب الدين (١٤٦١) خلف الأشرف اينال ابنهُ احمد ولُقِّب بالمؤيد . ولكنهُ لم يحكم سوى أربعة اشهر رأى فيها نفسهُ عاجزاً عن الاحتفاظ بمنصبهِ ، فتنازل عنهُ للأمير سيف الدين خُشقدم

السلطان الظاهر سيف الدين خشقدم (١٤٦١ — ١٤٦٧) كان يوناني الأصل محباً للآداب والعلوم اليونانية ، يحسن العربية كواحد من أبنائها . وقد أحبتهُ الرعية وأخلصت لهُ لعدلهِ . وكان لا يستوزرُ الاّ من تحققت لهُ نزاهتهم . وقد قبض على أعنة السلطنة بحزم أقعد مناوئيهِ عن الدسائس ، وسجن أشدّهم خطراً وحجر على السلطان السالف أحمد بن اينال

وفي سنة ١٤٦٤ بعث اليهِ محمد الثاني سلطان آل عثمان وفداً أخلّ عمداً بإيعازٍ من موفِدهِ ببعض آداب الوفود بين الملوك ، مما دلّ صريحاً

على استخفافهِ بسلطان مصر وعدم اكتراثهِ لهُ

السلطان الظاهر يلباى (١٤٦٧) — بويع بالسلطنة بعد أبيهِ خُشقدم، واستبدَّ وظلم، فكرهتهُ الرعية وخلعهُ الأمراءُ لشهرين من مبايعتهِ

السلطان الظاهر تمر بغا (١٤٦٧) — كان يونانياً كسلفهِ . وقد أجمع الأمراءُ على مبايعتهِ لورعهِ ولين عريكتهِ وسعة علمهِ . فوجَّه للحال عنايتهُ الكبرى الى قطع دابر كلِّ خلافٍ وشقاق بين الامراء والتوفيق بين الأحزاب، فأطلق سراح السلطانين أحمد بن اينال وعثمان بن جقمق، وأخرج من السجون مَن كان فيها من الأمراء المماليك . فكانت عاقبة أعمالهِ هذهِ أنهُ وَجد نفسهُ بلا حزبٍ خاصٍّ بهِ يدفع عنهُ غائلةَ الطامعين، ولا مال في يدهِ ليبتاع لهُ أعواناً أُمناء، فثار المماليكُ عليهِ وخلعوهُ

السلطان الأشرف سيف الدين قايتباى (١٤٦٧ — ١٤٩٦) — حاول المماليكُ بعد خلع تمربغا أن يُوَلُّوا غير قايتباي . على انهُ غلبهم واستبدَّ بالملك وتلقَّب بالأشرف . وكان حازماً حسن الدراية فلم يلبث أن قبض على أزمَّة الأحزاب المتعددة، وأمَّن البلاد شرَّها، وبثَّ السكينة والعدل نحواً من ٢٩ سنة في كل انحاء وادي النيل

وكان الأشرف قايتباي مقداماً ماهراً في فنِّ الحرب وقد بلغ ما بلغهُ من علوِّ المكانة والشأن ولا سلاح لهُ سوى كبر همتهِ ودهائهِ وشجاعتهِ . وكان في أوّل أمرهِ عبداً اشتراهُ برسباي بخمسين ديناراً . ثمَّ بيعَ لجقمق ثمَّ لإينال؛ فادخلهُ هذا في سلك جيوشهِ حيث توصل على عهد تمربغا الى الأتابكية . وكان بعيد النظر صادقهُ، قويَّ الارادة،

واسع الخبرة ، عارفاً بحقيقة الدنيا والناس . وقد ولع بالبناء والأسفار ، فتجوَّل في مصر وسوريا وبلاد العرب وما بين النهرين ، وحجّ الى مكة وبيت المقدس ؛ وكان يترك اينما مرّ آثاراً جليلة نافعةً من مساجد ومدارس وقلاع ومارستانات وجسور وطرُق الخ . ولهُ في القاهرة من الآثار شيء كثير : منها مسجدان لا يضاهي جمال ما فيهما من الرسوم والنقوش والحفر الدقيق إلاَّ مباني الناصر بن قلاوون . وقد رمم قايتباي ايضاً بعض مباني أسلافهِ ووسع في البعض الآخر

وكان عصيان ولايات التركمان على الحدود السورية الشمالية خطراً دائماً على السلطنة المصرية . وقد زادت الحالة حرجاً بقيام سلاطين بني عثمان ، وكانوا قد اضحوا على عهد قايتباي اقوياء يخشى بأسهم . فأخذوا يتدخَّلون جهاراً في شؤون تلك الولايات ، ويعضدون الطامعين من أُمرائها بالاستقلال عن مصر والتعدي على أملاكها ، حتى بلغ منهم أنهم امدّوا العصاة (١٤٦٨ و١٤٦٩) بالرجال والسلاح في قتال انتشبَ بينهم وبين دعاة قايتباي ؛ وأدرك هذا ان العثمانيين غازون سوريا بلا محالة ، ففضَّل أن يبادئهم القتال فيكون مهاجماً لا مدافعاً

وكان سلطان بني عثمان يومئذٍ بيا يزيد الثاني وقد ناوأهُ الأمر أخوهُ « جم » ، فاحتدم بينهما النزاع وانتهى بفوز الأوَّل وفرار الثاني الى مصر فرحب قايتباي بهِ وانحاز اليهِ ، وكانت لهُ معهُ شؤون أغضبت بيا يزيد واوقعت بين الفريقين حروباً في أرمينيا الصغرى . وكان قائد الجيوش المصرية الأمير ازبك ، فحالفهُ النصرُ مراراً وأخذ من الترك أطنه

وطرسوس . ثمَّ تحوَّل النصرُ الى العدوّ ، ثمَّ عاد اليهِ . وقد كثرت الخسائر ودامت الحرب خمسَ سنواتٍ ولم يفز أحد الفريقين بالآخر نهائياً . فرأى بيا يزيد حقنَ الدماء أولى فتصالح مع قايتباي على أن يستعيد كلٌّ منهما ما يخصهُ من الحصون والمدن (١٤٩١) وعاد الأمير ازبك بجيوشهِ الى القاهرة فاحتفى قايتباي بهِ واكرمهُ . وانشأ كلاهما تذكاراً لهذهِ الحرب الجامع المعروف بجامع الأزبكية :

وبينا مصر رازحةٌ تحت اعباء ضرائب تلك الحروب اذا بوباء فشا فيها (١٤٩٢) وفتك فتكاً ذريعاً ، وعقبهُ كالعادة غلاءٌ وقحط . وفي سنة ١٤٩٥ كان قتال شديد بين فريقين من المماليك أَخمدَ قايتباي نارهُ بما عهد فيهِ من الحزم والتدبير ؛ ولكنهُ لم يستطع إزالة البغضاء من النفوس . وكان قد تجاوز الثمانين من عمرهِ ، وأحنى ظهرهُ الحزن والمرض فسئم الملك وتنازل لابنهِ (١٤٩٦) ومات غداة تنازلهِ ، فكان لموتهِ في البلاد وقع أليمٌ

السلطان الناصر محمد بن قايتباي (١٤٩٦ — ١٤٩٨) — خلف أَباهُ فجارَ واستبدَّ حتى خلعهُ المماليك وقتلوهُ

السلطان الظاهر قنصوه الأشرفي (١٤٩٨ — ١٥٠٠) — بويع بالسلطنة بعد الناصر ، فلعبت بهِ مطامعُ الأمراء ولم يلبث أن خُلع كسلفهِ

السلطان الأشرف جان بلاط الأشرفي (١٥٠٠) — بايعهُ الأمراء بالسلطنة ، وكانوا في شقاقٍ عظيم واضطراب ونزاع ، فرأى جان بلاط ان يبتعد عنهم فتنازل عن الملك

العادل طومان باى (١٥٠١) — تولّى السلطنة مدة ثلاثة أشهر ثم خلعهُ المماليك وقتلوهُ

السلطان قنصوه الغورى الأشرفى (١٥٠١ — ١٥١٦) — هو أحد موالي قايتباي بايعهُ الأمراء وقد تجاوز الستين من عمرهِ دون ان يضعف حزماً وعزيمة . وكان يكرهُ الفتن والاضطراب ، فبذل وسعهُ في التوفيق ما بين أحزاب الأمراء وأَحسن في حكم الرعية ، وأسكن ثائرها . ولكنهُ اضطرَّ الى جباية ضرائب فادحة لخلوّ خزانة الحكومة من المال ، فأَساءَ الناس حيناً ولكنهم ما لبثوا أن رضخوا لمشيئتهِ لا سيما وانهُ أنفق القسم الأكبر من تلك الأموال في تحسين شؤون البلاد وتحصينها وحفر ترع ، وتشييد مبانٍ نافعة كمدرستهِ وجامعهِ في الغورية . ورأى ما يكابدهُ الحجاج من العناء والمشاقّ في أسفارهم ، فأصلح طريق الحج ، وحفر فيها آباراً للشرب ، وبنى فنادق لاستراحة القوافل ومبيتها ؛ وكان يبذل المال في بلاطهِ عن سعة ، وقد استقدم عدداً غفيراً من المماليك واتخذ لهُ حاشيةً كبيرة ، واكثر من شراء الجياد والجواهر ، وجمع في مطابخهِ أفخر أنواع الطعام واندرها وبالغ في تكريم الشعراء والمجيدين في العزف على آلات الطرب وغمرهم بالهدايا النفيسة

وظهرت في سني ملكهِ الأولى طوالع فتن وثورات في الجيش وفي قبائل البدو . ولكنهُ أخمدها قبل استفحالها

وكان البورتغاليون منذ فتحوا كالكوتا يحملون تجَّار الهند والصين على توريد بضائعهم الى اوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح الذي

اكتشفه ڤاسكو ده جاما (١٤٩٧)، بعد ان كانوا يورّدونها الى مصر عن طريق عدن وجدّة وسواكن. وكانوا يقبضون على السفن التجارية التي تدخل البحر الأحمر فاستنجد الأمراء المسلمون في الهند وبلاد العرب السلطانَ قنصوه الغوريَّ على اعدائهم، وكانت الأضرار التي حلّت بتجارة بلادهِ من صادرة وواردة كافية لحضّهِ على نجدتهم

وفي سنة ١٥٠٨ بنى عمارةً بحرية لحاربت مراكب البورتغال في البحر الأحمر وهزمتها. على انَّ البورتغاليين اعتاضوا عن خسائرهم بنصرٍ مبين في السنة التالية. وما زال الفريقان يقتتلان من حينٍ الى آخر حتى فقدت مصر مدينة عدن فقضي على تجارتها مع الهند

وفي سنة ١٥١٢ تولّى سلطنة بني عثمان سليم الأوّل ابن بيازيد الثاني، وكان ولعاً بالفتوحات مقداماً، فوضع نصب عينيهِ احتلال مصر؛ فنقض المحالفة التي كان قد أبرمها اسلافهُ مع سلاطينها، وكانت حجتهُ في ذلك أنَّ السلطان الغوريَّ أجار الأمراءَ الذين نازعوهُ الأمر وأخصهم اخوه كركود، وأنهُ حالف اسماعيل شاه عليهِ. فزحف سليم على سوريا؛ وخرج الغوري (١٥١٦) وهو فوق الثمانين بجيوشٍ جرارة من المصريين والمماليك والبدو والسوريين الى دمشق وسار منها الى حلب لقتال بني عثمان، فالتقى بهم في مرج دابق بجوار حلب، فانهزم رغم بسالة المماليك. وقد سهّل للعثمانيين الفوزَ بعض الخونة من رجال قنصوه الذين تفرّقوا عنهُ وانضمّوا الى عدوّهِ، ومنهم الأمير خير بك. على انَّ قنصوه ظلَّ يحارب مستقتلاً رغم شيخوختهِ حتى سقط عن جوادهِ وقتل تحت أرجل الخيل (١٥١٦)

الأشرف طومان باي الثاني (١٥١٦ — ١٥١٧) — كان قنصوه الغوريّ قد استخلف طومان باي على مصر قبل خروجهِ منها فبايعهُ الأمراء بالسلطنة بعد مقتل قنصوه ولقبوهُ بالأشرف وهو آخر السلاطين الجراكسة . وأرسل السلطان سليم يسألهُ أن يحكم مصر كنائب عنهُ ، وأن يعترف لهُ بالسيادة ، ويضربَ النقودَ باسمهِ ويدعوله في الجوامع . ووَعدهُ لقاء ذلك بالرجوع عن قتالهِ . وكان طومان باي ميّالاً الى قبول هذه المطاليب ، لأنهُ أدرك ان الفوزَ سيكون لأعدائهِ لا محالة . ولكنّ المماليكَ أبوا الاّ الحربَ وقتلوا اعضاء وفدِ السلطان سليم . وكان هذا قد فتح في تلك الأثناء غزّة والعريش والقطيعة ؛ ثم دخل مصر ، وقد علم بما كان من أمر وفدهِ

وفي ٢٢ يناير (١٥١٧) هزم الجيوش المصرية خارج القاهرة بعد قتال أبدى فيهِ طومان من البسالة والبطش والاستخفاف بالموت ما أبداهُ سلفهُ . ولكنّ العثمانيين كانوا يُحسنون استعمال المدافع وعندهم منها شيء كثير . وفي ٢٦ يناير دخل السلطان سليم القاهرة يصحبهُ الخليفة الأسير . وقتل من أهلها ٥٠,٠٠٠ ألفاً واستولى على قلعة الجبل . وفرّ طومان باي من وجههِ . فظفر بهِ أحدُ العربان فخانهُ وباعهُ للفاتح ، فشنقهُ على باب زويلة . وجعل السلطان سليم مصر بعد ذلك ايالةً عثمانية . وكانت مكة تابعةً لها فدخلت معها في حكمهِ

الفصل الحادي عشر

الدولة العثمانية

(١٥١٧ — ١٧٩٨ م) = (٩٢٣ — ١٢١٣ هـ)

بنو عثمان — هم قبائل تترية، طرقت في القرن الأول الميلاد بلاد تركستان الواقعة شرقي بحر قزوين واستوطنتها، واعتنقت الاسلام في أواسط القرن الرابع للهجرة. وفي الربع الأَوَّل من القرن الثالث عشر للميلاد انتهى جنكزخان بفتوحاتهِ الى تلك البلاد، فرحل فريقٌ من سكانها الى آسيا الصغرى يقودهم زعيمهم «ارطغرل بن سليمان». وحدث ان كانت حرب بين علاء الدين السلطان السلجوقي والروم والمغول، فنصرهُ الأتراك على أعدائهِ، فعرف لهم ذلك واقطعهم بلاداً واسعة ينزلون فيها (١٢٦٥). وخلف عثمان أباهُ ارطغرل (١٢٨٨ — ١٣٢٦)؛ ثمَّ تغلب المغول على السلجوقيين (١٣٠٠) وفرَّ علاء الدين عن بلادهِ، فخلا الجوُّ لعثمان واستقلَّ بالحكم، وأسس السلطنة العثمانية، واستولى على قونيه، وكسر الروم في نيقوميديا، وأخذ بروسه (١٣٢٦)، وتوفي على الأثر؛ واليهِ ينتسب العثمانيون. وقام بعدهُ ابنهُ أُورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠) فاتخذ بروسه قاعدةً لسلطنتهِ؛ وألَّف جيشاً من ٦٠٠٠ اسير نصراني، شبُّوا على الأسلام واعتنقوهُ، وسمُّوا «بالانكشارية» اي الفرقة الجديدة.

وعبر أُورخان مضيق الدردنيل ، ووسَّع فتوحاتِ أبيهِ . وقام بعدهُ مراد الأوَّل (١٣٦٠ — ١٣٨٩) ففتح أدرنه وجعلها قاعدة السلطنة . وتعاقب بعدهُ في الحكم بيازيد الأول (١٣٨٩ — ١٤٠٢) ومحمد الأوَّل (١٤٠٢ — ١٤٢١) ومراد الثاني (١٤٢١ — ١٤٥١) فوالوا الفتوحات ، ووسعوا في فرقة الانكشارية حتى زادت على ١٠٠,٠٠٠ مقاتل . وقد عهدوا اليهم في الدفاع عن البلاد . وآلت السلطنة الى محمد الثاني (١٤٥١—١٤٨١)، ففتح القسطنطينية (٣٠ مايو سنة ١٤٥٣) على عهد امبراطورها قسطنطين الثاني عشر ، فأصبحت من ذلك الحين قاعدة السلطنة العثمانية . وخلفهُ بيازيد الثاني (١٤٨١ — ١٥١٢) فحارب قايتباي صاحب مصر كما تقدم . على أنَّ فتحَ البلاد المصرية لم يتمَّ إلاَّ على عهد خلفهِ سليم الأوَّل . ولما مات بيازيد الثاني كانت آسيا الصغرى باكملها ، وشبه جزيرة البلقان حتى نهر الطونة (الدانوب) في قبضة يدهِ

السلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) — تولى السلطنة ، وكان منازعوهُ فيها كثيرين ، فقتل بعضهم وحجر على البعض الآخر . وفي سنة ١٥١٤ حارب شاه الفرس اسماعيل وهزمهُ ، وفتح بعد ذلك ديار بكر وكردستان والموصل . ثمَّ فتح مصر كما تقدَّم ، وشنق طومان باي آخر السلاطين الجراكسة ، ودخل القاهرة منصوراً

ورأى السلطان سليم أن يوزِّع المصالح في مصر ، وينظِّم دوائر الحكومة على طريقة تمنع حصر النفوذ في واحدةٍ منها دون الاخرى ، ليأمن اتحادها عليهِ وخروجها عن طاعتهِ ، فعهد في منصب الولاية الى

خير بك الذي خان قنصوه الغوري ، ومنحهُ لقب باشا ، ووكل اليهِ مراقبة شؤون البلاد الادارية والاقتصادية ، وابلاغ الاوامر السلطانية الى المصريين وتنفيذها . وكانت مصر مقسومة الى ١٢ ولاية أو مديرية ، فجعل لكلٍّ منها حاكماً من الامراء المماليك ، يعينهُ مجلس شورى الباشا لسنة ، ويكون مسئولاً عن حفظ الأمن والنظام في ولايتهِ ، وعن جمع الضرائب . وقسَّم الجيش الى ٦ فرق ، خصَّها بحفظ النظام في البلاد . والذود عنها وجباية الخراج ؛ وكانت أهمّ هذهِ الفرق وأقواها فرقة الانكشارية . وعيَّن لكلّ فرقةٍ منها قائداً مستقلاً عن الباشا تمام الاستقلال ، يرجع أمرهُ الى السلطنة مباشرةً . وجعل للباشا ديوان شورى مؤلفاً من القوّاد الستة ومن ١٢ بيكاً ، لا يستطيع الباشا تقرير عملٍ أو تنفيذهُ الاَّ اذا وافقوا عليهِ . فاذا ما تجاوز حدود سلطتهِ رفعوا شكواهم الى السلطان

وبعد تنظيم مصر على النحو الذي تقدَّم ، عاد السلطان سليم الى القسطنطينية ، واستصحب المتوكل ، وهو الخليفة الخامس والخمسون والأخير من الخلفاء العباسيين ، وسجنهُ واضطرهُ الى التنازل لهُ عن الخلافة ؛ فجمع السلطان بذلك بين السيادتين السياسية والدينية ، وتلقَّب بامير المؤمنين ، واصبحت الخلافة من ذلك العهد في بيت سلاطين بني عثمان . ومات السلطان سليم قبل ان ينفّذ كلّ النظام الذي كان ينويه لحكم مصر

سليمان الثاني القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦) — بويع بالسلطنة والخلافة

بعد ابيهِ ، لحارب اوستريا (النمسا) وقهرها وفرض عليها الجزية ، وأخضع جزيرة رودس (١٥٢٢) وجزائر بحر سفيد (الارخبيل اليوناني) ، وقسماً من شواطئ افريقيا ، وشواطئ بلاد العرب ، وفارس والهند ، وفتح بغداد (١٥٣٤) وهو أول سلطان عثماني عقد معاهدات مع بعض دول الفرنج ، وأخصها مع فرنسيس الاوّل ، ملك فرنسا ؛ فكانت هذهِ المعاهدة اساس « الامتيازات » التي لا يزال الاجانب يتمتعون بها في الشرق . وقد سنّ لبلادهِ القوانين الادارية والعسكرية فأطلق عليهِ لقب القانوني

وأدخل سليمان بعض التعديل في نظام مصر ، وأباح للمماليك الترقي في مناصب الحكومة حتى الباشوية ، وأجاز لهم تأليف فرقةٍ من بقايا جيوشهم . ولم تلبث هذهِ الفرقة أن حالفت الانكشارية ، وقويت على سائر الفرق في القاهرة ، فزاد بها نفوذ المماليك ، فاستبدّوا شيئاً فشيئاً بالباشا ، وأثاروا الفتن في البلاد

وقد ولي مصر على عهد هذا السلطان ١٤ والياً ، خرج ثالثهم «أحمد باشا» عن طاعتهِ واستقلّ بحكم مصر ، ولكنهُ جار وطغى ، فثار عليهِ الامراء وقتلوهُ . وكان سادس الولاة « سليمان باشا » حازماً ماهراً أميناً على عهد مولاهُ ، فأبقاهُ في ولاية مصر نحواً من ١١ سنة ، أحسن خلالها الحكم وشاد مباني كثيرة ، منها جامع في القلعة . وكان خلفهُ الوالي السابع « داود باشا » مثلهُ في الحزم والاستقامة والعدل ، فظلّ في الولاية ١٢ سنة ، نعمت مصر خلالها بالأمن التام . وكان كلفاً بالآداب العربية ، فانشأ مكتبة نفيسة . أما الوالي الرابع عشر فظلم وجمع المال عن طريق

السلب والقتل ، وعبث بحقوق الامة ، فثارت عليهِ وذهب ضحية الثورة

سليم الثاني (١٥٦٦ — ١٥٧٤) — خلف سليم الثاني أباهُ سليمان ففتح جزيرة قبرص

وقد تعاقب على عهدهِ في مصر ثلاثة ولاةٍ ، أوّلهم سنان باشا ، فأحسن التدبيرَ وعدلَ وأصلح ما أفسدهُ سلفهُ ، وتصدّق على الفقراء والأيتام ، ورمَّ قناة الاسكندرية ، وشاد مباني كثيرة في جهاتٍ متعدّدة من القطر. وسار لاخضاع اليمن للسلطان سليم ، فتولّى مصر في غيبتهِ الوالي الثاني ، اسكندر باشا ، وحذا حذوهُ في الحكم . الى ان عاد سنان منصوراً واستلم زمام الأمور ثانيةً نحواً من سنتين . وخلَفهُ حسين باشا ، فاقتفى أثرهُ ، لكنهُ عجز عن حفظ الامن ، فانتشرت على عهدهِ في البلاد عصاباتٌ من اللصوص نهبت المزارع والبيوت

مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) — فتك بمن كان ينازعهُ الملك ، وقبض على زمامهِ ، وشهر حرباً على المجر (هنغاريا) وأخرى على بلاد فارس ظلّت ١٥ سنة . وفي سنة ١٥٩٠ سألهُ عباس شاهُ الفرس الصلح وعقد معهُ معاهدة ، تنازل لهُ فيها عن قسم كبير من مملكتهِ . وقد وَلِيَ مصرَ على عهدهِ ٦ ولاةٍ : أوّلهم مسيح باشا ، خلف حسين باشا حال ارتقاء مراد الثالث كرسي السلطنة . فقطع دابرَ اللصوص من البلاد ، وقتل في بضعةِ أشهرٍ مئاتٍ من زعمائهم ؛ وأعادَ الأمن والنظامَ الى ما كانا عليهِ على عهد الواليين داود باشا وسنان باشا . وتعاقبَ بعدهُ ولاةٌ ثلاثةٌ فلم يأتوا ما يُؤثر . ثمَّ جاءَ أويس باشا ، فأحبّ ان يدخل على نظام

الجيش بعض التغيير، فثار عليهِ الجنود (١٥٨٨)، ونهبوا دورهُ وذبحوا فريقاً من أنصارهِ وحجروا على اولادهِ؛ ثمَّ تحوَّلوا الى المنازل ينهبون ويقتلون. ولم يسكن ثائرُهم إلاَّ بعد ان أجاب الباشا مطالبهم واستقال. وكانت هذه أوَّل ثورة عسكرية على عهد الولاة استطار شرارها الى هذا الحدّ. ومن ذلك الوقت استفحل أمرُ الجند، وأخذ نفوذ الولاة بالتقلُّص حتى أصبح الباشا ألعوبةً في يد الجيش

وخلف أويس باشا الوالي السادس حافظ باشا أحمد. وكان صالحاً حازماً، فصرف همَّهُ الى إسعاد الأمة ورفع شأنها ونشر المعارف في البلاد

محمد الثالث (١٥٩٥ — ١٦٠٣) — تولّى بعد أبيهِ مراد الثالث. وقد خرج من يدهِ قسمٌ من الولايات التي كان قد فتحها أسلافهُ

وتعاقب في ولاية مصر على عهدهِ ٦ ولاةٍ حدثت في أيام ثانيهم السيد محمد باشا ثورةٌ عسكرية عمَّ فيها القتلُ والنهب. ولم يستطع الباشا إخمادَها، فخلعهُ السلطان واستخلف خضر باشا. وأراد هذا ان يقطع عن المعوزين والعلماء رواتبهم فثار عليهِ الأهلون وقتلوا عدداً من رجالهِ واضطروهُ الى صرف المرتبات. وفي أيام الوالي الرابع، علي باشا السلحدار، كانت مجاعةٌ زادها جورهُ واستبدادهُ هولاً، فكثر الموت وعمَّ الغلاء

احمد الأول (١٦٠٣ — ١٦١٧) — خلف أباهُ في السلطنة والخلافة. وقد اضطرّ الى التنازل عن الجزية التي فرضها سليمان القانوني على النمسا، واسترجع الفرسُ بغداد وسائر البلاد التي أخذها منهم أسلافهُ

وقد تتابع على عهدهِ في مصر ٦ ولاةٍ، ثار الجيش على أولهم ابراهيم

باشا وقتلهُ . وجاء الوالي الثاني محمد باشا الخادم ، فاقتصَّ من زعماء الثورة وأعاد السكينة الى البلاد . ولما كانت ولاية محمد باشا رابع ولاة السلطان أحمد ، ثار الجيش ايضاً ثورة كبرى واتخذوا لهم منهم سطاناً سنة (١٦٠٩) واقتسموا البلادَ بينهم ، وعمّوا الدلتا بالقتل والنهب . فجمع الوالي حرسهُ ورجالهُ وبعضاً من القبائل العربية ، وحارب بهم العصاة وأخضعهم ، وقتل سلطانهم وزعماءهم . وقد قوي المماليك إثرَ هذه الحادثة حتى تمكنوا من حصر حكومة القاهرة في زعيمهم وأطلقوا عليهِ لقب « شيخ البلد »

وفي أيام الوالي السادس أحمد باشا الدفتردار أمدت مصر العثمانيين بألف مقاتل لمساعدتهم على الفرس . وكان أحمد باشا من خيرة الولاة ، فحكم مصر نحواً من ٣ سنوات حكماً أسعد الأمة وارضى الباب العالي

مصطفى الأول ابن محمد (١٦١٧ – ١٦١٨) — بويع للمرَّة الاولى بعد ان سجنهُ سلفهُ ١٤ سنة ؛ فزاده السجن ضعفاً وجهلاً بامور الحكم ونازعهُ الامر عثمان ابن أخيهِ أحمد فتمكن من خلعهِ واغتصاب الملك منهُ

عثمان الثاني ابن أحمد (١٦١٨ — ١٦٢٢) — اغتصب السلطنة والخلافة من عمهِ . على انَّ انهزامهُ في حربٍ شهرها على بولونيا كان مدعاةً الى نفور الرعية منهُ . وكان عمهُ المخلوع قد عهد في أمر مصر الى والٍ سيءِ التدبير يُدعى مصطفى باشا لفغلي ؛ فثار الجيش ، وعجز الوالي عن الثائرين . فاضطر السلطان الى استبدالهِ بجعفر باشا . وكان هذا حكيماً لازماً ، فعرف السبيل الى تهدئة الامور . وتبع هذه الفتنة وباءٌ شديدٌ ذهب بالالوف من الناس . فبذل جعفر باشا جهدهُ في تخفيف ويلاتهِ .

وفي أيام الوالي الثالث حسين باشا فاضَ النيل فيضاناً هائلاً فأَغرق البلاد وجرف البيوت والمزروعات . وحلَّ الوباء في مصر ثانيةً فكانت نتائجهُ أشدَّ هولاً وأعظم ضرراً من الفيضان . وجاء حسين باشا ، فكان ظالماً سيء التدبير على أنَّ ولايتهُ لم تطل الا شهرين

مصطفى الأول (١٦٢٢ — ١٦٢٣) — عاد الى السلطنة للمرَّة الثانية فعزل الوالي حسين باشا عن مصر واستخلف ابراهيم باشا ، ثمَّ مصطفى باشا ، وكان هذا حسن السياسة والتدبير فاحبهُ المصريون

مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) — جلس على كرسي السلطنة فاسترجع بعض فتوحات أسلافهِ في النمسا (١٦٣٠) . وكان الدروز في لبنان خارجين عن طاعة الدولة منذ ٣٠ سنة تحت قيادة الأمير فخر الدين المعني ، فحاربهم وأخضعهم (١٦٣٥) وقتل زعيمهم . وفي سنة ١٦٣٨ أرغم الفرس على التنازل لهُ عن بغداد نهائياً

وقد ولِّي مصر ٨ ولاةٍ : أولهم علي باشا لم يستلم زمام الأحكام البتة . ذلك ان المماليك والجيش والمصريين عامة كانوا مرتاحين تمام الارتياح الى ادارة واليهم مصطفى باشا ، فثاروا على الباب العالي وعلى الوالي الجديد وأرغموهُ على أن يقفلَ راجعاً الى الاستانة قبل أن يدخل القاهرة (١٦٢٣) وكانت هذهِ الفتنة الأولى التي تمرَّد فيها المصريون على السلطان ، وجاهروا بالعصيان على هذهِ الصورة . فلم يرَ السلطان مراد بدًّا لقمع الفتنة من تثبيت مصطفى باشا في منصبهِ . وفاض في تلك السنة النيل فيضاناً معتدلاً فزاد خصب البلاد ونعمت حالاً . على أن مصطفى باشا غرَّهُ ما رآه

من تعلُّقِ المصريين بهِ ، فعدل عن الخطة المثلى التي كان قد سار عليها ، وتحوَّل الى السلب والنهب . وقد سهّل عليهِ ذلك تفشي وباءٍ أمات عدداً غفيراً من الاغنياء ، فكان يضعُ يدهُ على ممتلكاتهم غير مبالٍ بورثتهم . فرفع هؤلاء شكواهم منهُ الى السلطان . فرأى الفرصةَ مناسبةً للتخلصِ منهُ فقتلهُ ؛ واستخلفهُ بيرام باشا ؛ وكان هذا حازماً عادلاً ؛ فأعاد الاموال المغتصبة ، وبالغ في التشديد على الجيش ، فلم تقع في أيامهِ فتنٌ ولا اضطرابات رغم الضرائب الفادحة التي أحدثها

وكانت اليمن على عهد الوالي الثالث محمد باشا في هياج مستمرّ . فحشد الوالي بأمر السلطان جيشاً جرَّاراً بقيادة قنصوه بك أمير الحج فسار الى اليمن وأخضعها

وجاء الوالي الرابع موسى باشا فظلم الأمة ظلماً شديداً ، وتناهى في ابتزاز أموالِ الرعيّة ، فخرجَ الأمراء عن طاعتهِ وسألوا السلطان أن يخلعهُ فأجاب سؤلهم . وكان الوالي الخامس خليل باشا عادلاً طويل الاناة ، فرضي الناس عنهُ وأحبُّوهُ . وثارت على عهدهِ فتنةٌ في مكة فسيّر اليها جيشاً قمعها في الحال

وكانت الدولة في حرب مع الدروز على عهد الوالي السادس أحمد باشا الكورجي؛ فأمدّها بالرجال والذخيرة والمؤن . ثمَّ ضرب على المصريين إعانات حربية أثقلت كاهلهم، واغتصب هذهِ الاعانات لنفسهِ . فاستدعاهُ السلطان الى الاستانة وحكم عليهِ بالاعدام

وخلف أحمد باشا في الولاية حسين باشا . ثمَّ جاء بعدهُ محمد باشا

وكان السلطان سليم الثاني جدّهُ لأمهِ . فسار هذان الواليـان على خطة احمد باشا في النهب والجور؛ وألغيا قانون الوراثة، فكانا يستوليـان على تركات المتوفين ويغتصبان ما كان مرتباً من النفقات لليتامى والارامل . ولم يجسر الأمراء والشعب على المقاومة كما كان شأنهم مع سـائر الولاة الظالمين

- ابراهيم الأول (١٦٤٠ — ١٦٤٨) — بويع بعـد اخيهِ فحارب البندقية ، وفتح مدينة خانية في جزيرة كريت (١٦٤٥)

وعزل والي مصر محمد باشا ، واستخلفهُ مصطفى باشا البستنجي ، وكان ضعيفاً فاستبدّ رجال الدولة بالاحكام ؛ وثارت فرق الجيش بعضهـا على بعض ، وكثرت اللصوصية . ورأى مصطفى باشا حرج موقفهِ فاستقال . وخلفهُ مقصود باشا فقطع دابر اللصوص وأسكن ثائر الأمة والجيش ، وعاقب وانصف ، واستاء الامراء لمنعهِ اياهم عن النهب . فوالوا وشاياتهم بهِ الى السلطان حتى خلعهُ . وقد تخلل حكمهُ وباء فتك بالاهلين فتكاً ذريعاً . وثار مسجونو الاسكندرية وأفلتوا من سجونهم ، ونهبوا المدينة ورحلوا عن البلاد قبل أن يتمكن الباشا منهم . وخلف هذا أيوب باشا وكان ذا حكمة ودهـاء ، فاسترضى الامراء والجيش والأمة ، أما الوالي الرابع فقد وقعت على عهدهِ فتنٌ ومنازعات آلت الى خلعهِ

محمد الرابع (١٦٤٨ — ١٦٨٧) — تولى الامر بعد أبيهِ . وكانت ايامهُ كلها حروباً وأهوالاً : ففي (١٦٥٦) حاول البندقيون فتح القسطنطينية ففشلوا ، وحارب العثمانيون اوستريا والمجر (١٦٦١ — ١٦٦٤) فانكسروا.

وكانت كريت قد خرجت عن طاعتهم فحصروها ٣ سنوات واخضعوها (١٦٦٩)

ونقض السلطان محمد المعاهدات التي أبرمها السلطان سليمان الثاني مع فرنسيس الأول، فتأهَّب لويس الرابع عشر ملك فرنسا للزحف على تركيا. فاضطر محمد الى تجديد المعاهدات اتقاء للقتال (١٦٧٣) لا سيما وان الحرب كانت في تلك الاثناء محتدمة بينهُ وبين بولونيا وقد انتهت (١٦٧٦) باستيلائهِ على قسمٍ من أملاكها. وفي سنة ١٦٨٣ انهزم العثمانيون في فينا هزيمة كبيرة. وفي سنة ١٦٨٦ انهزموا في المجر. ثم أخذت البندقية منهم المورة والبانيا. وكان الفرنساويون في تلك الاثناء قد زحفوا على طرابلس الغرب والجزائر وتونس واستأصلوا منها شأفة القرصان

وكان ولاة مصر على عهد محمد الرابع ذوي جشع وطمع، فتمادوا في العسف وسلب الأموال وقتل الابرياء. وكان المماليك يعملون على توريطهم في غيهم حتى يثور الشعب عليهم ويزيد نفوراً منهم فيلتف حول المماليك

سليمان الثالث (١٦٨٧ — ١٦٩١) — خلع أخاهُ محمداً الرابع وتفرَّد بالسلطنة والخلافة. فظلَّت مصر على عهدهِ في أسوإ حال، ولاتها يجورون، وامراؤها يسعون بكل الوسائل الى الاستقلال، والشعب يتألم ويستغيث

احمد الثاني (١٦٩١ — ١٦٩٥) — خلف أخاهُ سليمان وقد أحرزت جيوشهُ في أوربا انتصارات أحيت في قلوب العثمانيين مائت الآمال. ولكنَّها شغلتهم عن مصر فلم تحسن حالها قط ولا سكن ثائر شعبها

مصطفى الثاني (١٦٩٥ — ١٧٠٣) — هو ابن محمد الرابع؛ خلف

عمّهُ أحمـد الثاني ، وكان حظُّ العثمانيين من حروبهم على عهدهِ غير ما كانَ على عهدِ سلفهِ ، فتوالت عليهم الانكساراتُ ، وفقدوا في ساحات الوغى عدداً كبيراً من رجالهم . وفي سنة ١٦٩٩ وقّعَ مصطفى معاهـدة « كرلويتز » التي تنازل فيها عن المجر والقسم الاكبر من فتوحاتهِ

أمّا في مصر فقد استأثر بالنفوذِ أميرُ الحجّ وشيخُ البلدِ ، وكلاهما من المماليك ، فلعبا بالباشا وتنازعا الأمرَ ؛ وكان لكلٍ منهما أخصامٌ يناوئونهُ فيكيدون لهُ سرّاً ، ثم لا يلبثون ان يشهروا عليهِ حرباً علنية ، لا تنتهي الاَّ بانتصارِ أحدِ الفريقين ونفي زعماء الفريق الثاني أو سجنهم . وكان الباشا يلزمُ معهما الحيادَ أو ينضمُّ الى أحدهما ، كما تسوّل لهُ النفس ، فاذا انهزم فريقهُ استدعاهُ السلطانُ للحالِ وخلعهُ ، واذا انتصر اشترط عليهِ الفائزون ان لا يخالفَ لهم أمراً

١. احمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠) — حنقَ العثمانيون على مصطفى لعقدهِ معاهدة « كرلويتز » ، فخلعوهُ واستخلفوهُ أخاهُ أحمد الثالث ، فهزم الروس (١٧١٠) على عهدِ قيصرهم بطرس الاكبر ؛ واستعادَ المورة من البندقيين (١٧١٥) ولكنهُ انكسر في حرب اوستريا (١٧١٦و١٧١٧) فأبرم معاهدةً جديدة ، تنازلَ فيهـا عن قسمٍ كبيرٍ من بلاد السربِ والفلاخ (١٧١٨) . وشهرَ الحربَ على بلادِ فارس (١٧٢٣) ، ومات ولم تنتهِ

وقد عهِدَ أحمد الثالث ، في السنة الرابعة لمبايعتهِ ، في ولايةِ مصرَ الى حسن باشا قبطان ؛ وكان يومئذٍ في مصرَ حزبان قويان من المماليك : القاسميون والفقاريون ، نسبةً الى زعيميهما « قاسم بك » و « ذي الفقار بك »

نخشيَ حسنُ باشا جانبهما ، وألقى بينهما الشقاقَ املاً منهُ بإضعافهما ، فكانت بينهما حرب طاحنة ، انتهت بموتِ شيخ البلدِ قاسم بك عيواظ زعيم القاسمية ، وتولية ابنهِ اسماعيل بك المشيخة فأصلح ما بين الفريقين ، وسجن حسن باشا ، وسعى لدى السلطان الى خلعهِ فخُلع . وتعاقب بعدهُ عدةُ ولاةٍ رضخوا لاسماعيل بك كلّ الرضوخ ، لا سيما وانهُ كان محبوباً مطاعاً من الرعية والامراء . فحكم البلادَ نحواً من ١٦ سنة بلا منازع . ثم حدث يوماً ان أحدَ القاسميين اغتصبَ عقاراً لذي الفقار بك ، وتراخى اسماعيل عنهُ ، فثار عليهِ الفقاريون وقتلوهُ باتفاقٍ مع الباشا . وخلفهُ في منصبهِ « شركس بك » أحد الفقاريين ، فحاربهُ ذو الفقار بك والجأهُ الى الفرارِ وتفرّد بمنصبهِ . ثم عاد شركس بك بأنصارهِ لمحاربة خصمهِ ، فهزمهُ ذوالفقار الى بلاد البربر واضطهد دعاتهُ ودعاةَ اسماعيل ، فتآمروا عليهِ مع الانكشارية ، وأرسلوا يستدعون شركس ويعدونهُ بالمساعدة . فعادَ وحاربَ ومات غرقاً اثناء القتال ، وانهزم اصحابهُ فعمدوا الى نيل بغيتهم من ذي الفقار بالحيلة ، فدبروا لهُ مكيدةً قتلوهُ فيها غدراً ليومين من فوزهِ . وتبعَ هذهِ الحروبَ وباءٌ زاد بهِ الهولُ والاضطراب

وفي سنة ١٧٣٠ ثار الانكشاريةُ على السلطان احمد الثالث وخلعوهُ

محمود الاول (١٧٣٠ — ١٧٥٤) — هو ابنُ مصطفى الثاني ؛ وقد شهرت عليهِ روسيا واستريا الحربَ في آنٍ واحد (١٧٣٥) فانتصرت الأولى وفشلَت الثانية ، ثمّ توسطت فرنسا في الصلحِ بين المتقاتلين فعقدوا معاهدةً (١٧٣٩) زادت فيها أملاك الدولةِ اتساعاً . ونالت

فرنسا لقاءَ توسّطها امتيازاتٍ تجاريّةً جديدةً في الشرق . وفي سنة ١٧٣٨ انتهت الحربُ العثمانيةُ الفارسيةُ ، التي بدأها احمدُ الثالث ، بهزيمة العثمانيين

أما في مصرَ فتعاقب على عهدِ محمود الأول عدةُ ولاةٍ كانوا أطوعَ لشيخ البلدِ من بنانه . وقد خلف ذا الفقار بك في المَشْيَخة احد دعاته « عثمان بك » فانتقمَ لسلفهِ من قاتليه ، وأحسن الحكم في الناس ؛ وعقبَ الوباءَ ضيقٌ وجوعٌ فكان عثمان يفرّقُ فيهم الحبوبَ والمالَ من خزانتهِ الخاصّة . على أنّ ابراهيم كخيا بك واسماعيل بك رضوان لم يلبثا أن طمعا بمنصبهِ فاتحدا عليهِ مع الوالي « احمد كيور باشا » ونازعاهُ الأمرَ وألقيا النفور بينهُ وبين سائر المماليك ، فصعب عليه استرضاؤهم ، وهجر الديار المصرية ، وغنم ابراهيم بك واسماعيل بك أموالهُ واملاكهُ ، وقتلا عدداً غفيراً من أخصامهما ، وتفرّدا بامارة الحج ومشيخةِ البلد ، فكانا يتبادلان المنصبين سنوياً ويغتصبان القسم الاكبرَ من محصولاتِ البلاد ، وكيور باشا لا يستطيع ردعهما . وقبض خلفهُ على ابراهيم واسماعيل ، وزجهّما في سجن القلعة ؛ فثار دعاتهما وأطلقوا سراحهما ، وحاربوا الباشا وهزموهُ ، فعزلهُ السلطانُ وعاقبهُ لتهوّرهِ ، وجاء بعدهُ « راغب محمد باشا » . وكان حكيماً فاستمال الأمة وجاملَ المماليك واكتسبَ ثقتهم . فخشيَ السلطان أن يتدرّج واليهِ الى الاستقلال بحكم مصر ، فبعث يأمرهُ بقتل البكوات . وبعد تردّدٍ طويل ، رضخ راغب باشا للأمرِ ، على أنهُ لم يتمكّن منهم جميعاً وهمّ الذين نجوا ، وفي جملتهم ابراهيم بك ، بالانتقامِ منهُ ثم اطّلعوا على أمرِ السلطان لهُ ، فرأوا لهُ

بعضَ العذرِ واكتفوا بعزلِهِ ، وتفرّد ابراهيم بعدهُ بالولاية

وكان لابراهيم مملوكٌ شجاعٌ كريمُ الخلقِ اسمهُ « علي كاشف » ، فأحبهُ كثيراً ، وما زال يرقيهِ في المناصب حتى جعلهُ في مصافّ البكوات ، فأغضب ابراهيمُ بذلك خصمهُ العنيد « إبراهيم الجركسي بك » ؛ وما زال هذا يكيدُ لهُ حتى تمكَّنَ من اغتيالهِ (١٧٥٤)

عثمان الثالث (١٧٥٤ — ١٧٥٧) — خلفَ أخاهُ محموداً الأوَّل ، وتولَّى مشيخة البلد في مصر ، بعد ابراهيم كخيا ، قرينهُ اسماعيل رضوان . ثم قتلهُ « حسين أَصبح » وخلفهُ فيها ، ولم يلبث أخصامُ حسين أن قتلوهُ واستخلفوهُ خليل بك

مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ١٧٧٤) — قام بالامرِ بعد عمهِ وقضى السنوات الست الاخيرة من سلطنتهِ في قتالِ الروس على عهد قيصرتهم كاترينا الثانية ، فخسر في هذهِ الحربِ خسائر فادحة

وكان علي بك كاشف في القاهرةِ يزدادُ قوّةً ونفوذاً ؛ وخاف شيخ البلد خليل بك عقبى أمرهِ ، فحاربهُ وهزمهُ الى مصر العليا . فجمع عليٌّ فيها رجالهُ وعدتهُ ، وتحالفَ مع أخصام عدوّهِ وعادَ لقتالهِ ، فتغلَّبَ عليهِ وقتلهُ واستولى بعدهُ على المشيخة (١٧٦٣) ، وانتقم لمولاهُ ابراهيم من قاتليهِ واعدائهِ . ثمّ ثار عليـهِ أنصارُ خليل بك ، ففرّ الى سوريا ، واستجارَ الشيخ ضاهر صاحبَ عكا فأجارهُ واكرمهُ . وأرسل السلطانُ امراً بالقبضِ عليهِ ، ولكنهُ ما لبث أن عفا عنهُ وساعدهُ على العودة الى مصر . وفي سنة ١٧٦٥ وشى بهِ أخصامهُ ثانيةً الى السلطان ، ففرَ

الى اليمن ؛ وفي سنة ١٧٦٦ عادَ منها الى مصر وتمكنَ من أَخصامهِ ؛ وكانت القبائلُ العربية ثائرة في الدلتا ، فسيَّر علي بك لاخضاعها حملةً بقيادة أحدِ مماليكه اسمهُ « أحمد » ففتك بالثائرين فتكاً هائلاً ، وقتل منهم خلقاً كثيراً فلُقِّبَ لذلك « بالجزّار » ، وهو نفس « أحمد باشا الجزّار » الذي تولى فيما بعد عكا

واستتب بعد ذلك الأمرُ لعليّ ، فأخذ يعدُّ اهبتهُ للاستقلالِ عن الدولة فرفعَ الى مصافّ البكوات ١٨ من مماليكهِ الاخصاء ليكونوا لهُ عدّةً على أعدائهِ ؛ وقد اشتهر منهم صهرهُ « محمد ابو الذهب » الذي خانهُ ، وأحمد الجزّار ، وابراهيمُ ومرادُ وسيكون لهؤلاء الثلاثة شأن مع القائد بونابرت

وأصلح عليّ شؤون البلادِ ، وبث فيها الأَمن والعدلَ والنظامَ ، وأخفضَ الضرائبَ ، فأحبهُ الشعبُ وكان لهُ عوناً على تحقيق امانيهِ . واستبدلَ عليّ شيئاً فشيئاً رجالَ الدولةِ والجيشِ بغيرهم من رجالهِ ؛ وأدرك الوالي قصدَهُ فاستمالَ صهرهُ أبا الذهب وغيرهُ من الكبراء ، ودبّر لهُ معهم مكيدةً لاغتيالهِ . فعرف عليٌّ بدخيلةِ الأمرِ واقتصّ من الكائدين لهُ ، وأخرج الباشا من الديار المصرية قهراً ، ولكنهُ لم يعتقد الخيانةَ في صهرهِ فلم يمسهُ بأذى . ولم يُقعد القصاصُ أعداءَ عليٍّ عن ترصدِ الفرص للايقاع بهِ ، فلما احتدمت الحربُ (١٧٦٨) بين الدولةِ وروسيا كما تقدَّم، اتَّهموهُ لدى السلطان بمواطئة الروس ، فأصدر السلطان أمراً باعدامهِ ؛ فقتل عليٌّ حامل الأمرِ قبل أن يدخل القاهرة ، وأخرج الوالي الجديد

من مصر ، وأعلن استقلالهُ بها ، واتخذ للحال كل الوسائل الضامنة لبقاء الحكم في يدهِ ، وعقد معاهداتٍ مع البندقية وروسيا

وسيَّر عليٌّ جيشاً لفتح اليمن ، ففتحها ثم فتح سائر شبه جزيرة العرب ، وحمل شريف مكة على تثبيتهِ في السلطنـة ، فتمَّ لهُ الامر فعلاً وشرعاً ، وأُقيمت لهُ الدعوة ، وضُرِبت النقود باسمهِ (١٧٦٩)

وسيَّر بعد ذلك صهرهُ أَبا الذهب لفتح الشام، فاتحد مع « الشيخ ضاهر » صاحب عكا ، وفتح جيشاهمـا في وقتٍ يسير معظم البلاد السورية . ولعبت حميّاً النصر برأس محمد ، فحدَّثتهُ نفسهُ باغتصاب ملك عليٍّ . ورأى في الباب العالي مساعداً لهُ فتحوَّل بجيشهِ عن الشام الى مصر ، وسار عن طريق الصحراء الى الصعيـد ، حيث استمال أخصام عليٍّ والقبائل العربية ، وزحف على القاهرة على حين غرة . فجهَّز علي لمقاومتهِ ما تبقَّى لهُ من الرجال بقيادة اسماعيل بك ، فاغترَّ اسماعيل بمال أبي الذهب ووعودهِ وانضمَّ اليهِ ، واضطُرَّ عليٌّ الى الفرار الى عكا فبلغها مريضاً . ودخل أبو الذهب مصر واستأثر بالامر . وعرفت روسيا ما حلَّ بحليفها فأمدَّتهُ بالمؤن والذخيرة ، وأوفدت اليـهِ جيشاً ، فتح لهُ بعض الثغور . ولما تعافى عليٌّ سار فاتحاً في مقدمة رجالهِ ، ووجهتهُ مصر . وكان أبو الذهب في تلك الاثنـاء يجور فيها ويقتل ويسلب ، فاستنجـد المصريون علياً ، فتقدم للحال الى مصر في طليعة ٨٠٠٠ مقاتل من رجال حلفائهِ ومتطوعي المغاربة وغيرهم . ولقيتهُ جيوش صهرهِ بجوار الصالحية ، فهزمها ودخل تلك المدينة ؛ ولكنهُ جُرح جروحاً بالغـةً أقعدتهُ عن

استئناف السير والقتال . فأعاد أبو الذهب الكرَّة ، ولما رأى انهُ سيُفشل هذهِ المرة ايضاً عمد الى استمالة المغاربة وعدد غفير من مماليك حميهِ ، ومنهم مراد وابراهيم ، فانحازوا اليهِ ، وانقلبوا على اخوانهم ، ومزَّقوا شملهم وألجأوهم الى الفرار . أما عليٌّ فأبى الهرب ، وظلَّ في خيمتهِ طريحاً على فراش الحمّى الى ان قبض عليه جماعة من رجال أبي الذهب وحملوه الى سيدهم . ومات ذلك الفاتح العظيم والمصلح الكبير في السجن (١٧٧٣) فعادت مصر الى حكم بني عثمان

عبد الحميد الاول (١٧٧٤ — ١٧٨٩) — خلف أخاهُ مصطفى الثالث ، فعقد للحال مع روسيا معاهدة كفتهُ شرَّ الحرب الى ان نقضت كاترينه الثانية المعاهدة واتحدت مع اوستريا على الدولة ، فشهر عبد الحميد (١٧٨٧) عليهما حرباً كانت شؤماً عليهِ ، وعلى خليفتهِ من بعدهِ . وقد فقد فيها قسماً من أملاكهِ ، ومات قبل ان تنتهي

أما في مصر فانَّهُ كافأ أبا الذهب على كسرهِ لعليّ بالباشويةِ وثبَّتهُ في مشيخة البلد ، وغضَّ الطرف عن نهبهِ وجورهِ ، واكتفى بما كان يجيئهُ سنوياً من الجزية

وخرج أبو الذهب الى سوريا (١٧٧٥) للاقتصاص من الشيخ ضاهر وسائر حلفاء عليّ ، ولما اقترب من عكا سار الشيخ عنها بعيالهِ ، ودخلها أبو الذهب وانتقم من أهلها ، ولكنهُ قُتل فيها غيلة

وخلفهُ في المشيخة اسماعيل بك ، آخر رجال ابراهيم كخيا ، وكان اميناً على عهد السلطان عليّ ، فاستقدم أصحابهُ الذين لجأوا الى سوريا ،

وأحلهم عندهُ المحلَّ الأسمى . وكان ابراهيم ومراد يناوئانهِ الحكم ، فهزمهما في اول الأمر الى الصعيد ، ثم أرسل جيشاً لقتالهما فهزماهُ وزحفا على القاهرة . فلجأ اسماعيل الى الهرب ، واستولى ابراهيم على مشيخة البلد ومراد على إمارة الحجّ ، واتفقا على تبادل المنصبين سنوياً وعاد اسماعيلُ اليهما بجموع جديدة فهزماهُ الى السودان . وسار كلاهما في النهب والجور على خطة ابراهيم كخيا واسماعيل رضوان ، فرفع الوالي والقناصلُ شكواهم منهما الى السلطان ، فعقدَ لحسن باشا قبطان (١٧٨٧) على جيشٍ لقتالهما ؛ وكانت لهُ معهما موقعة هائلة آلت الى انهزام مراد وابراهيم الى الصعيد ، ودخول حسن باشا القاهرة ، حيث استولى على املاكهما . ثم سيَّر الى الصعيد جيشاً آخر هزمهما الى الشلالات ؛ وعاد حسن باشا الى القسطنطينية ، تاركاً اسماعيل بك شيخاً للبلد ، وعابدين باشا والياً على مصر ، وحسن بك الجداوي أميراً للحج

سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) — جلسَ على سرير السلطنة بعد عمهِ عبد الحميد ، فعقد مع روسيا واوستريا معاهداتٍ لم يستبقِ فيها من فتوحات اسلافهِ إلاَّ النزرَ القليل

وتفشى في مصر على عهدهِ وباء ، ذهب اسماعيل بك وكثيرون غيرهُ من الامراء ضحيتهُ ؛ فاغتنمها مراد وابراهيم فرصة للعودة الى القاهرة والقبض على زمام الاحكام ، وضاعفا الضرائب ، فأضرَّ ذلك بالاجانب والوطنيين . وتعدَّدت الشكاوي الى السلطان ، فلم يحفل بها ، فتحولت الى اوربا وما زال الحال كذلك الى ان زحف بونابرت على مصر (١٧٩٨)

١٨٤٩/١٨/٧

الفصل الثاني عشر

الفتح الفرنساوي

(١٧٩٨ — ١٨٠١ م) = (١٢١٣ — ١٢١٦ هـ)

اسباب الحملة — كان العداء مستحكماً بين فرنسا وانكلترا ، وقد حاولت الجمهورية الفرنساوية ان تُنزل جيشاً في الأرض الانكليزية ، فلم تُفلح . وأدرك القائد بونابرت[١] ما يعترض ذلك من المصاعب ، فعزم على ضرب انكلترا الضربة القاضية في الهند الانكليزية ، وهي اكبر مستعمراتها

(١) هو اعظم قائدٍ عسكريّ ظهر في القرون الحديثة . ولد (١٧٦٩) في اجاكسيو من أعمال كورسيكا ، وتلقى دروسهُ العسكرية في مدرسة بريين (فرنسا) وفي سنة ١٧٩٦ تزوّج بجوزفين ، أرملة القائد « ألكسندر ده بوهارنه » ؛ وتولى قيادة الجيش الفرنساوي في حرب ايطاليا (١٧٩٦ — ١٧٩٧) ، وزحف على مصر وسوريا ، ثمَّ عاد الى فرنسا ، وقبض على زمام الاحكام ، فسمي قنصلاً أوّل لعشر سنوات ؛ وكانت حكومة فرنسا مؤلفة من ثلاثة قناصل . وفي سنة ١٨٠٤ تُوّج أمبراطوراً . وقد قضى ايام ملكهِ في حروب مستمرَّة مع انكلترا والنمسا وبروسيا واسبانيا وروسيا . وتحالفت عليهِ أوربا اكثر من مرّة ، فأحرز عليها انتصارات كثيرةً باهرة . وبعد موقعة « واترلو » الشهيرة اسر ونُفيَ الى جزيرة القديسة هيلانة ، حيث توفي (٥ مايو ١٨٢١) . وكان في سنة ١٨١٠ قد طلَّق جوزفين وتزوج بماري لويز ، ابنة امبراطور النمسا.

في الشرق وأهمها من الوجهتين السياسية والاقتصادية . ورأى أنَّ مصر هي الطريق الوحيد الى الهند ، فعقد النية على فتحها واستعمارها ؛ لا سيما وانهُ كان يرجو ان ينال في الشرقِ شأوَ الفاتحين العظام . فأخذ يمدّدُ لحكومتهِ ، بعد عودتهِ من حرب ايطاليا ، المنافع التي تعود عليها من امتلاك وادي النيل . وكانَ الكثيرون من أركان الحكومة الفرنساوية يوجسونَ خيفةً من نفوذ هذا القائد وشهرتهِ المستطيرة ، ويحسبون لمطامعهِ الف حساب ، فارتاحوا الى إقصائهِ عن البلاد ، وعضدوهُ في تنفيذ مشروعهِ لدى المترددينَ من أُولي الأمر ، وكانوا يحسبون فتح مصر قريب المنال ، لما كانت عليهِ من سوء الحال والفوضى . فلم تلبث الحكومة الفرنساوية أن أذنت لبونابرت في الزحف على بلاد الفراعنة بالعدّة والمال والرجال

القائد نابوليون بونابرت في مصر (١٧٩٨ — ١٧٩٩) — أبحر بونابرت (١٩ مايو ١٧٩٨) من ثغر « طولون » بعمارة تُقلُّ ٣٦,٠٠٠ مقاتل ، وعدداً من أبسل القوّاد ، و١٢٢ رجلاً من العلماء وأرباب الفنون

ولما علمت انكلترا بامرهِ اتبعتهُ بعمارة معقودة اللواء للاميرال نلسن ، ولم يخفَ أمرها على بونابرت ، فأخذ حذرهُ منها . وبلغ جزيرة « مالطة » ، فأخذها عنوةً (١٠ يونيو) ، ثمَّ تقدم الى الاسكندرية ، فرسا على مقربة منها (٢ يوليو) ، ولم يلبث بعد ذلك أن نزل الى البرّ برجالهِ ومعدّاتهِ الحربية . وخرج الاسكندريون وعربانُ البحيرة لصدّهِ ، فانهزموا ؛ والتجأ السكان الى بيوتهم ، وسألوا الامان ، فأمّنهم ، وأمرهم بتسليم

سلاحهم وحمل الشارة الفرنساوية المثلثة الألوان على صدورهم ، وانتهت هذه الاخبار الى القاهرة ، فاضطرب لها الناس ، واجتمع أكابرهم يتقدمهم مراد بك وابراهيم بك ، وتشاوروا ملياً فيما يفعلون ؛ فأجمعوا على المقاومة ريثما ينجدهم الباب العالي ، وشرعوا بعد ذلك يتأهبون للدفاع

وكان بونابرت في تلك الاثناء قد ترك في الاسكندرية ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة كليبر (Kléber) ، وزحف بالباقين على القاهرة ، عن طريق صحراء دمنهور . فكابدوا فيها الشدائد من أهوال الحرّ والعطش . ووافتهم في الرحمانية عمارة ، كان قد أرسلها بونابرت لفتح رشيد ، فاشتدّ بها أزرهم لا سيما وانها وصلت اليهم منصورة مثقلة بالمؤن والغنائم . ولاقاهم مراد بك في شبراخيت ، فانزلوا به خسائر فادحة ، وهزموه الى القاهرة ، حيث انضمّ الى ابراهيم بك واستأنفا معاً الاستعداد لصدّ الفاتح

﴿ موقعة امبابه ﴾ — ولما كان ٢١ يوليو أخذ جيش مراد والجيش الفرنساوي مواقفهما للقتال ، بين امبابه والاهرام [1] ؛ وكانت بينهما موقعة هائلة ، قُتل فيها من المصريين كثيرون ، وانهزم مراد بك الى مصر العليا . وكان ابراهيم بك معسكراً في بولاق ، ففرّ برجاله قاصداً سوريا ، ولم يباشر قتالاً . وكانت هذه المعركة القاضية على دولة المماليك في مصر

أما الجيوش الفرنساوية فدخلت القاهرة (٢٤ — ٢٧ يوليو) ؛ وأقام بونابرت في بيت محمد بك الالفي في الازبكية ، وأمّنَ الناس ، ونشر

---

(١) قبيل هذه المعركة القى بونابرت على عساكره هذه الجملة المأثورة : « أيها الجنود إن اربعين قرناً تشخص اليكم من أعلى هذه الاهرام »

يذيعهم انهُ آتٍ من قبل السلطان لنصرتهم على المماليك . ثم جرّدهم من سلاحهم ، وعكف على تنظيم الادارة الداخلية ، فاضطرّهُ ذلك الى جباية ضرائب واستدانة أموالٍ من التجار يستعين بها على الاعمال . فاستاء الاهلون من ذلك ، ولكنهم سرّوا من جهة أُخرى اذ رأوا القائد الكبير يعاملهم بالحسنى ، ويحترم عقائدهم وتقاليدهم وعاداتهم ويصون حقوقهم وأموالهم ، ويضرب النقودَ باسم السلطان ، ويتتبع اللصوصَ ويشدّدُ في حفظ الأمن والنظام ، حتى لقد أغناهم عن إقفال الدروب ليلاً

وفي أوّل أغسطس أدركَ الأميرال نلسن العمارةَ الفرنساوية في ابي قير، ودمرها وقتلَ أميرالها برويس ؛ فقطعت خسارة العمارة هذه على الفرنساويين كلَّ مواصلةٍ مع أوربا ، وتركت لانكلترا السيادةَ المطلقة في البحر . على أن ذلك لم يُقعد بونابرت عن متابعة الفتح ، فخرج بفرقةٍ من رجالهِ في أثر ابراهيم بك ، وأدركهُ في الصالحية ، وهزمهُ ورجالهُ الى سوريا ؛ وأنفذ في الوقت نفسهِ فرقةً ثانيةً لفتح دمياط والمنصورة ، ففتحهما وكلَّ ما حولهما من الأصقاع ، وبعث ديزه (Desaix) بفرقةٍ ثالثةٍ لمطاردة مراد ، فأدركهُ وهزمهُ ثلاثاً : في الفيوم وجرجا والاقصر . وفتح الصعيد كلهُ ودخل جزيرة فيلوه

وكان المصريون راضين عن الحكومة الجديدة كما تقدَّمَ ، ولكنَّ ذوي الأمر لم يرضِهم تقلص نفوذهم ، فدفعوا الشعب الى العصيان بحجة فداحة الضرائب الجديدة فحدثت فتنةٌ (٢١ اكتوبر) قُتل فيها ديبوي (Dupuy) ، قائم مقام القاهرة ، وعددٌ غفير من رجالهِ ؛ وكثرَ النهب

والاعتداء ؛ وسأل بونابرت قادةَ الشعب ان يسكنوا الفتنةَ ، فاستخفوا بأمرهِ ، فضربَ المدينة بالقنابل ، وخرَّب قسماً من قصورها وبيوتها ومن الجامع الأزهر. ففرَّ الأهلون من المساكن واختبأوا في السراديب . وأتى المشايخ يسألون بونابرت العفو ، فكفَّ عن إطلاق المدافع . ولكنهُ قبض على العدد الاكبر من زعماء الثورة ، وأعدمهم رمياً بالرصاص

﴿ الزحف على سوريا ﴾ ولم يكد يستتب الامر لبونابرت في القاهرة حتى انتهى اليهِ خبرُ حشد جيشٍ عثماني في رودس ، وجيش آخر في دمشق لاجلائهِ عن مصر . فرأى أن لا بدَّ لهُ لتثبيت قدمهِ في الشرق من فتح سوريا ، فاعدَّ عدتهُ وسار اليها (١٠ فبراير ١٧٩٩) بنحو من ١٣,٠٠٠ مقاتل ففتح في طريقهِ العريش وغزَّة والرملة دون أن يلاقي مقاومةً تذكر . ثم فتح يافا عنوةً وقتل من رجالها ٤٠٠٠ اسير ، وزحف منها على عكا . وكان أحمد باشا الجزَّار قد حصنها تحصيناً منيعاً وأنجدها الانكليز بعمارة تحت امرة « سدني سميث » فلم يظفر بونابرت منها بطائل لا سيما وانهُ لم يكن لديهِ ما يساعدهُ بحراً بعد فقد عمارتهِ في موقعة أبي قير .

وقدمت في تلك الأثناء جيوش دمشق الى الأردن فاضطر بونابرت الى إرسال ٢٠٠٠ من رجالهِ بقيادة كليبر لمقاتلتها . وكان الجيش العثماني لا يقل عن ٢٥,٠٠٠ من فرسانٍ ومشاةٍ ، فطوَّقوا كليبر بقرب جبل طابور ، فثبت هذا القائد في النضال الى ان أنجدهُ بونابرت بقسم من من رجالهِ ، ففلّوا تلك الجموع بعد قتال شديدٍ وعادوا الى عكا واستأنفوا

مهاجمتها ، فدمَّروا منها قسماً ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها .
وكان الطاعون قد تفشى بين الجنود الفرنساوية ؛ وبات بونابرت من جهةٍ ثانية يخشى اغارة الجيش المحشود في رودس على مصر وهو غائب عنها ، فرجع (٢١ مايو) عن عكا الى القاهرة وقد فقد ٤٠٠٠ من رجالهِ في حملتهِ على سوريا

ولم يكد الفرنساويون يستريحون من مشاق هذه الحملة حتى تحقق ما خشيهُ بونابرت من زحف جيش رودس على مصر ، وكان يبلغ نحواً من ١٨,٠٠٠ مقاتل ، نزلوا جميعهم في شبه جزيرة ابي قير بقيادة مصطفى باشا . وقامت على حمايتهم في البحر عمارة انكليزية ، فهاجموا الحامية الفرنساوية ، وقتلوا قسماً منها وأسروا القسم الآخر . فأسرع بونابرت اليهم بنحو من ٦٠٠٠ مقاتل واشتدَّ بينهُ وبينهم القتال ، والعمارةُ الانكليزية تعضدهم من البحر ؛ وظلَّت المعركة ٧ أيام (٢٥ يوليو — ٢ اغسطس) ، أبدى فيها العثمانيون شجاعة فائقةً ، على أن الجيش الفرنساوي تمكن من الإحاطة بهم ، وأخذهم بين نارين ، وأباد منهم ١٤,٠٠٠ . وطلب قسمٌ منهم النجاة في المراكب ، فغرقوا قبل أن يبلغوها . وعاد بونابرت الى القاهرة يتبعهُ أسراهُ ، الاَّ مصطفى باشا ، فانهُ أرسلهُ الى الجيزة ، واعتقلهُ فيها معزَّزاً مكرَّماً . وكان من المقاتلين يومئذٍ في صفوف العثمانيين محمد عليّ الذي سيكون لهُ الشأن الاكبر في تاريخ مصر الحديث

واتصل بعد ذلك ببونابرت ما آلت اليهِ الحالة في فرنسا من الفوضى واستياء الشعب من الحكومة على أثر فشل الجيوش الفرنساوية في

ايطاليا والمانيا ؛ فادرك أن مهمتهُ في الشرق قد انتهت ، وأن تحقيق آماله الواسعة سيكون في الغرب . فبرحَ مصر سرًّا (٢٢ اغسطس ١٧٩٩) مصطحباً بعض قوَّادهِ ، تاركاً القيادة العامة في مصر للقائد كليبر . فعدَّ الجيش سفرهُ فراراً ، وأظهر كليبر استياءهُ منهُ في كتاب أرسلهُ الى الحكومة الفرنساوية

القائد كليبر (١٧٩٩ — ١٨٠٠) — تولى القيادة العامة بعد بونابرت وكان الجيش الفرنساوي قد نقص عددهُ ، ولم تكن هناك عمارة تؤيد مركزهُ بحراً أو تمدُّهُ بنجدةٍ جديدةٍ ، فخارت عزائم الجنود ، واستولى عليهم شيءٌ من الملل ، وباتوا يعدُّون مصر منفىً لهم . فلما رأى كليبر حالة الجيش أدرك أنهُ لن يقوى على الثبات بهِ طويلاً تجاهَ عدوٍّ يزداد كلَّ يوم عدة وعدداً ، فعقد بقرب العريش مع سدني سميث والصدر الاعظم يوسف باشا معاهدةً (٢٤ يناير ١٨٠٠) عُرفت بمعاهدة العريش ، مآلها أن يخرج الجيش الفرنساوي حرًّا من مصر ، وان تقلهُ المراكب الانكليزية على نفقتها الى فرنسا دون أن يُنزع منهُ سلاحهُ ولكن انكلترا أبت الموافقة على هذه المعاهدة ، وطلبت من كليبر التسليم والجلاء بلا شرط ، فعدَّ طلبها اهانةً وسار برجالهِ لقتال الجيوش العثمانية في المطرية ، فهزمها واضطر قائدها يوسف باشا الى الرحيل عن مصر

واغتنم في تلك الأثناء ذوو النفوذ في القاهرة فرصة انشغال كليبر بقتال الجيش العثماني ، وأثاروا سكان العاصمة على من ظلَّ فيها من الفرنساويين فعمَّ القتل والسلب ، ودافع الفرنساويون عن نفوسهم

ما استطاعوا الى أن عاد كليبر من المطرية ، فسأل الثائرين الخضوع والتسليم ، فأصرّوا على القتال ؛ فحصر القاهرة وامطرها ناراً وقنابل حتى أخضعها . ثم وضع حدّاً للاعتداء والهياج ، وصفح عن الثائرين ، ولكنهُ قبض على ١٥ من زعمائهم ، ولم يطلق سراحهم الاَّ بعد أن افتدوا نفوسهم بمالٍ جزيل ، وأقسموا ألاَّ يعودوا الى العصيان . ورأى مراد بك بطشَ الفرنساويين ، فصالحهم وأقسم لهم يمين الإخلاص والطاعة ، فركنوا اليهِ وولوهُ حكم مصر العليا

واستتب بعد ذلك الأمرُ لكليبر حتى بات قومهُ يعتقدون أنَّ احتلالهُ البلاد قد تمَّ نهائياً . على أنَّ الاحوالَ لم تلبث أن تبدَّلت . ففي ١٤ يونيو (١٨٠٠) هجم على كليبر رجلٌ يدعى سليمان الحلبي وطعنهُ بخنجرٍ طعناتٍ قضت عليهِ حالاً . فضاعت بموتهِ الآمالُ ، وتبين بعد ذلك أنَّ القاتلَ كان مأجوراً لهذه الجريمة ، وأن ثلاثةَ مشايخ عرفوا عزمهُ قبل تحقيقهِ وكتموا أمرَهُ ، فأُعدموا جميعاً

القائد مينو (Menou) (١٨٠٠ — ١٨٠١) — خلفَ كليبر في القيادةِ العامة ، ولم يكن على شيءٍ من الحزمِ والدراية ، فنفرَ منهُ المصريون والفرنساويون على السواء ، وضعفَ موقفهُ تجاهَ الاعداء بتفريقهِ جيوشهُ في كل أنحاء القطر

وفي ٢ مارس (١٨٠١) رست في أبي قير عمارةٌ انكليزية بقيادة رَلف أبِرْكرومبي (Ralph Abercromby) ، وأنزلت جيشاً الى البرّ (٨ مارس) . ولم تكن حاميةُ الاسكندرية تزيد عن ١٥٠٠ مقاتل ؛

فقاومت إنزال الجيش جهد طاقتها ، وقتلت منهُ ١١٠٠ رجل ، على انها لم تقدر على أكثر من ذلك ؛ فزحف على القاهرة جيشٌ انكليزيٌّ مؤلّفٌ من ١٦،٠٠٠ مقاتل . واتهت هذه الأخبار الى مينو ، فترك في القاهرة ٥،٠٠٠ من جيشهِ بقيادة بليار (Belliard) ، وأرسل فرقةً من رجالهِ الى دمياط

وسار بمن بقي معهُ الى قتالِ الاعداء ، فقابلهم قرب أخربة قانوب (٢١ مارس) وكانتِ الغلبةُ في هذهِ المعركة للانكليز ، وتقهقر مينو الى جهة الاسكندرية غير قادرٍ على الثبات في وجهِ العدوّ ، لأنَّهُ كان قد وزَّع قواهُ كما تقدَّم . وقد جُرِح القائدُ الانكليزي أبركرومبي . ومات لثمانية أيام من نصرهِ . وخلفهُ هتشنسون (Hutchinson) في قيادة جيوشهِ . وقد توقف الانكليز ١٠ أيام عن القتال ؛ وكان في وسع مينو اغتنام هذه الفرصة لجمع جموعهِ من كل صوبٍ فأضاعها كما أضاع غيرها ؛ وكان من ذلك أنهُ عجز عن الثبات أمام الانكليز عند ما أعادوا عليه الكرّةَ لا سيما وانّ تركيا أمدَّتهم في تلك الأثناء بنجدةٍ جديدةٍ ضاعفت قوتهم ، حتى انهُ تيسَّر إرسال ١٢٠٠٠ مقاتل لفتح رشيد ففتحوها وزحفوا منها على القاهرة يقودهم هتشنسون نفسهُ بينما كان يوسف باشا الصدر الأعظم قادماً اليهِ بعد أن فتح دمياط بنحوِ من ٢٠،٠٠٠ عثماني . واتحد الجيشانِ تحتَ أسوار القاهرة ، فقاومهم بليار حيناً ، ثم اضطُرَّ الى مفاوضتهم في الصلح على شروط معاهدة العريش ، فعقدوا معهُ معاهدة (٢٥ يونيو) وسلَّم بليار القاهرة (٢٦ يونيو) . وخرج منها برجالهِ مع الاكرام العسكري .

وفي ٧ أغسطس نقلتهم المراكب الانكليزية الى فرنسا

أما هتشنسون فانهُ بعد فتح القاهرةِ عادَ الى الاسكندرية ، فامتنع مينو فيها ، وعزَم على المقاومة حتى النهاية

وكانت بحيرة مريوط في تلك الايام يابسةً تضمُّ نحواً من ١٥٠ قريةً ، وبينها وبين بحيرةِ أبي قير سدٌّ منيعٌ يمنعُ انسيابَ الماء اليها ، ففتحهُ الانكليز، ولم تلبث مريوط ان تحوَّلت الى بحرٍ ، وحوَّلت الاسكندرية الى جزيرةٍ ، لا سبيل لاحدٍ الى دخولها أو الخروج عنها ؛ وقد أحاطت بها عمارة الاعداء من كلِّ جانبٍ ، وضربتها بالقنابل ، فاضطرَّ مينو الى التسليم بالشروطِ التي سلم بها بليار . وبدأ الفرنساويون بالجلاء من أوائل سبتمبر، فتمَّ في ١٥ اكتوبر (١٨٠١) . وكانوا ٣٦,٠٠٠ عند دخولهم مصر ، فعادوا عنها ٢٣,٠٠٠ ، وعادت مصر لحكم بني عثمان

اصلاحات الفرنساويين — لم يمكثِ الفرنسويون في مصر الا ثلاثَ سنواتٍ وثلاثةَ اشهرٍ . على أنَّ التأثير الأدبيَّ والماديَّ الذي تركوهُ في هذهِ المدَّةِ الوجيزة قلما أُتيح للفاتحين الذين طرقوا واديَ النيل أن يتركوه ،وذلك بفضل اللجنة العلمية التي كانت ترافقُ الحملة العسكرية . فبينما كانت الجنودُ تفتحُ المدُن وتقاتل الأعداءَ في الداخل والخارج ، كان أعضاء اللجنة يطوفون الوادي من الدلتا الى الصعيد يدرسون احوال البلاد ، ويطبّقون الحقائق العلمية النظرية على الفوائد العملية . وكان فيهم العالم والباحثُ والرياضيُّ والمهندسُ والمؤرخُ الخ . فألّف منهم بونابرت « المجمع العلميّ المصريّ Institut d'Egypte » الذي لا يزالُ

الى يومنا ؛ وقسمهُ الى أقسام اربعة : ١ً — الرياضيات ؛ ٢ً — الطبيعيات ؛ ٣ً — الإقتصاد السياسيُّ ؛ ٤ً — الآداب والفنون . ونقَّب هؤلاء العلماء الأعلامُ عن كل ما يتعلق بمصر وجوّها وتربتها وتاريخها وجغرافيتها وآثارها ؛ وبحثوا في أمور التشريع والإدارة والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة والفلك والطبّ . ووضعوا أساس « علم العاديات المصرية Egyptologie » فأتوا أعمالاً جليلة خالدة : وهكذا يخلّف العلمُ آثاراً تفنى آثار الفاتحين وهي باقية

وقد عني بونابرت بتنظيم شؤون مصر ، لا سيما وأنهُ دخل البلاد والفوضى ضاربة فيها أطنابها كما تقدّم . فأصلح المحاكم ، وانشأ محكمة أهلية يتولى القضاء فيها ١٢ قاضياً للحكم في الدعاوي المدنية والتجارية والمواريث . وألف مجالسَ نيابيةً ، كان من اعضائها علماء الشرع والفقهِ والتجار والمزارعون وأرباب الحرَف ورجال الجيش؛ فكانت هذه المجالس تمثّلُ جميعَ طبقات الأمة وعناصرها وطوائفها ، وتنظر في شؤون الوطنيين . وجعل لأعضائها رواتبَ مقرَّرة يتقاضونها ، فأغناهم عن الإرتشاء والاعتداء ، وكان يستشيرهم في كل ما يتعلق بمواطنيهم

ورمّم بونابرت بعضاً من دور الأمراء وشاد غيرها . وخصّ بكل علم وبكل فنّ أو حرفة داراً . وبنى مدرسة لصغار الفرنسويين ، ومعملاً كيماوياً استحضر لهُ العقاقير والآلات اللازمة . وكان المصريون يزورون المعمل ويعجبون لما يرونهُ فيهِ من التجاريب الكيماوية . وبنى ايضاً مرصداً للافلاك ودور صناعة للاسلحة والآلات ولعمل الورق ونسج

الأقمشة ؛ وشاد الطواحين الهوائية والمائيـة والمستشفيات ؛ وردم بركاً كثيرة ، وجفّف المستنقعات منعاً لاضرارهـا . وتذرّع بكل الوسائل الصحية لمنع الأوبئـة التي طالما كانت تتفشى في البلاد وتحصد الاهلين . وأقام جسوراً وقناطر ، وأنشأ متنزهات وأماكن للهو وداراً للتمثيل ، وطرقاً أنارها بالمصابيح وغرس على جانبيها الأشجار . وقد حصّن القاهرة والاسكنـدرية ودمياط ورشيد . وكان يدفع اجور الفعلة عن سعة ولا يسخّر احداً ؛ و يأخذ نفقات جيشـهِ من المال الاميري الذي كان يُصرَف على الانكشارية

وكانت الهند لا تزال نصب عين بونابرت فاهتمّ كثيراً بنقض البرزخ الفاصـل بين البحرين المتوسط والأحمر ، لتكون مصر طريق تجارة الشرق الاقصى ومفتاح تلك الاصقاع . فناط هـذا العمل بلجنة فنية . على ان الحوادث حالت دون تميم هذا المشروع يومئذٍ

وانشأ بونابرت في مصر جريدة سياسية اخبارية (١) ، واخرى علمية فنية (٢) ومكتبة عمومية للمطالعة جمع فيها الشيء الكثير من الكتب العربية والافرنجية

---

(١) Le Courrier d'Egypte

(٢) La Décade Egyptienne

الفصل الثالث عشر

الأسرة العلوية

(من ١٨٠١ م = ١٢١٦ هـ الى يومنا)

ولاية محمد على (١٨٠٥ — ١٨٤٩)

وُلدَ محمد عليّ في قرية قوله في مقدونيا (١٧٦٩)، ومات والداهُ وهوَ في الرابعة من عمرهِ، فاحتضنهُ عمهُ طوسون حاكم قوله، ولم يلبث هذا ايضاً أن مات، فمالَ محمداً صديقٌ لابيهِ يدعى براوسطه. وكان محمد أبيَّ النفسِ عزيزها، فابى أن يكون عالةً على الغير، وحاول منذ شبَّ عن الطوقِ أن ينالَ بنفسهِ مقاماً سامياً، فلم يلبث أن انخرط في الجندية فابدى من البسالة والحنكةِ والدقة في القيام بواجباتهِ ما لفتَ اليهِ نظرَ رؤسائهِ، فرقوهُ الى رتبة البلوك باشية. ثم تزوجَ محمدٌ بذات مالٍ طائل، فانصرف مدةً عن الجندية الى تجارة التبغ. على أنهُ لم يلبث أن عادَ الى الجيش، فتطوّع في الحملة التي زحفَ بها حسين قبطان باشا على الفرنسويين في مصر، حيث تولى بعد موقعة ابي قير قيادة ٣٠٠ الباني ورُفعَ الى رتبة البكباشية

ولما تمَّ جلاء الفرنساويين عن وادي النيل، تمكّنَ الانكليز

والعثمانيون من الدلتـا ، واستبدَّ المماليكُ بحكم الصعيد ، وانصرفوا على عادتهم الى الجورِ والنهب ، وأخذوا يكيدون للصدر يوسف باشا ، ويثيرون الأمة عليهِ ؛ فنصب لهم بالاتحادِ مع حسين قبطان باشا شركاً وقعَ القليلون منهم في حبالهِ ، واستجار الباقون الانكليزَ فأجاروهم ، وكادوا ينصرونهم عليهِ . وكان نابوليون بونابرت ، بعد عودتهِ الى فرنسا وقبضهِ على زمام الاحكام فيها ، قد شغل اوربا قاطبةً بحروبٍ طاحنة ، فاضطرت انكلترا الى استقدام رجالها من كلّ صوب لمقاومتهِ ، فتنازلت للعثمانيين عن مصر لقاءَ امتيازاتٍ تجارية خصُّوها بها . ولكنها ظلَّت تعضدُ محمد بك الألفي ، أحد زعيميَ المماليك ، بينمـا كانت فرنسا تعضد الزعيم الآخر عثمان بك البرديسي

تنازع العثمانيون والمماليكُ الأمر ، وعجزَ كلٌّ من الفريقين عن التغلب على الآخر ، فأشعلوا في مصر جذوةَ الفتن ، وأنهكوا البلادَ قتلاً وسلباً ، حتى بكى أهلوها زماناً مضى . ورأى محمد علي المجال واسعاً للعمل في بلدٍ سادت فيـهِ الفوضى ، فعمد أولاً الى توطيد مركزهِ باستمالةِ الاحزاب والشعب ، وكان معوّلهُ الاكبر على مواطنيهِ الألبانيين أو الارناؤوط

وكان السلطان قد عهدَ في ولايةِ مصر الى خسرو باشا ، فحاولَ هذا مراراً عديدة اخضاعَ الصعيد والتنكيلَ بالمماليك ففشل . وفي سنة ١٨٠٣ ثارت عليهِ الجيوشُ في طلب رواتبهـا المتأخرة ، وكانت لها معهُ مواقعُ انتهت بفرارهِ عن القـاهرة الى دمياط . وخلفهُ في الولاية أحدُ أركان حربهِ ، طاهر باشا ، فقتلهُ الثائرون ، وأضحت مصر بغير والٍ

يدير شؤونها . وكان محمد علي في تلك الاثناء قد أصبح قائداً لـ ٤٠٠٠ ألباني . وعظم شأنهُ في البلاد ، فسار برجالهِ الى دمياط ، وحارب خسرو وسجنهُ في القلعة . فأرسلَ البابُ العالي ، والياً على مصر ، علي باشا الجزائرلي ؛ فجاهر الوالي الجديدُ بالعداء لمحمد عليّ وللمماليك ، فقتلوهُ ، وأخرجوا خسرو من سجنهِ وأرسلوهُ الى الاستانة ، طالبين والياً جديداً . فولاّهم السلطانُ أحمدَ خورشيد باشا . ورأى هذا اتساع نفوذ محمد علي ، وشدَّةَ تعلق الامة والألبانيين بهِ ، فاستقدم اليهِ جيشاً من المغاربة ليكونوا عوناً لهُ عليهِ ، وأطلق لهم العنان ، ينهبون ويقتلون ؛ فكرههم الناسُ وكرهوا خورشيد من أجلهم ، وزادوا تعلقاً بمحمد ، حتى خشيَ السلطانُ مطامعهُ فأصدرَ أمراً بتوليتهِ جدَّة ليبعدهُ عن مصر . فكان من هذا الأمر أنهُ هاجَ الجيش ، فهبَّ دفعةً واحدةً يطلبُ محمداً والياً على مصر ، وحصر خورشيد في القلعة ؛ فاضطرَّ السلطان الى عزلهِ وتوليةِ محمد علي (٩ يوليو ١٨٠٥)

أما ما كانَ من شأنِ الألفي والبرديسي ، فانهما كانا قد عادا الى القاهرة يتنازعان السيادة فانهزم الألفي الى الصعيد ؛ وثارَ بعد ذلك الألبانيون على البرديسي في طلب راتبهم المتأخر ، ففرض على القاهرة ضرائب فادحة ، وشدَّد في تحصيلها ، فاثار عليهِ الأهلين واضطرَّ الى الفرار (١٨٠٤) وكان ذلك آخر عهدهم بهِ . وتلت هذه الثورة مواقع كثيرة بين محمد علي والمماليك ، كان حظهم منها فقدَ الرجالِ والمالِ وضعف والنفوذ . ولما تولى محمد علي مصر كما تقدَّم (١٨٠٥) عرضَ

الألفي على انكلترا ، إن هي ساعدتهُ على عزل محمد ، أن يساعدها على احتلال الديار المصرية فما زالت تسعى لدى السلطان الى عزلهِ وإعادة السيطرة للمماليك ، حتى أصدر البابُ العالي امراً بتولية محمد علي سالونيك، واستخلافهِ في مصر موسى باشا ، وإعادة المماليك الى مناصبهم السالفة. على أنَّهُ لم يلبث أن ألغى تلك الأوامرَ اتقاء للحرب مع مصر وفرنسا ، وقد ألحَّت الأولى باستبقاء محمد علي والياً عليها لارتياحها الى حكمهِ ، وشددت الثانية في تأييدهِ منعاً لانكلترا عن احتلال مصر . وفي سنة ١٨٠٧ تولَّى مصطفى الرابع السلطنة بعد أخيهِ سليم الثالث ومات في تلك السنة الألفي فخلا الجوُّ لمحمد علي ، وعمدت انكلترا الى نيل بغيتها من مصر بالقوة ، فأنفذت اليها جيشاً بقيادة الجنرال فرازر ، فاستولى على الاسكندرية (١٧ مارس ١٨٠٧) ، ولكنهُ انهزم في رشيد (٢١ مارس) وفي حمد (٣٠ مارس) ؛ وأقام بعد ذلك في الاسكندرية بضعةَ أشهرٍ ، ثمَّ عقد الصلح وانسحب فاستتبَّ الأمر لمحمد عليّ في الدلتا وفي مصر الوسطى ، وقد انضمَّ رجالُ البرديسي الى رجالهِ وحاربوا الانكليز باخلاص تحت لوائهِ . أما الصعيد فظل في قبضة مماليك الالفي ودعاتهِ

وفي سنة ١٨٠٨ استقال السلطان مصطفى الرابع ، وخلفهُ محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول . فسأل محمداً علياً في أواخر سنة ١٨١٠ ان يسيّر حملةً لاخضاع الوهابيين (١) في بلاد العرب ؛ وكان زعيمهم سعود قد

(١) هم احدى شيع الاسلام . وُلد زعيمهم الاول محمد بن عبد الوهاب في نجد (١٦٩٦) وشبَّ على المذهب الحنبلي ، ثم اخذ ينشر تعاليمهُ في الناس والتفَّ حوله دعاةٌ وأنصار سموا بالوهابيين نسبة اليه . وما زالوا يزدادون عدًّا

احتلها بأكملها، وهزم كل الجيوش العثمانية التي وُجّهت اليهِ، ودخل سوريا. فلم يستطع محمد علي رفض طلب الباب العالي وشرع في الحال يعدُّ الحملة، ويبني لهـا المراكب اللازمة. ولكنهُ خشي أن يثور عليهِ المماليك بعد اقصاء رجالهِ عن البلاد، وأن يستأثروا بالاحكام أو يعودوا الى الاعتداء والجور، فدعاهم الى وليمة في القلعة، وأمر رجالهُ فأقفلوا عليهم أبوابها وفتكوا بهم جميعاً (١ مارس ١٨١١). ولم ينجُ منهم إلاَّ مملوك واحد يُدعى امين بك فرّ للحال عن البلادِ المصرية. فجاء عمل محمد أشبه شيء بما أتاهُ قبلهُ بطرس الاكبر في روسيا (١٧٠٣) وما عمـلهُ بعدهُ السلطان محمود الثاني في القسطنطينية (١٨٢٦)

﴿ الحملة على الوهابيين ١٨١١ — ١٨١٨ ﴾ — سيَّر محمد عليّ حملتهُ الأولى بقيادة طوسون ثاني أولادهِ، ففتح ينبع على الشاطئ الشرقي من البحر الأحمر، ولكنهُ انهزم عن صفر هزيمةً كبرى انتهى خبرُها الى محمد علي، فأمدَّهُ بنجدةٍ عظيمةٍ أعاد بهـا الكرَّة على الأعداء، وفتح المدينة وأعمل في أهليها السيفَ؛ ثم دخل مكة ظافراً وقد فرّ الوهابيون عنها قبل أن يدخلها

واستأنف سعود القتالَ (١٨١٣) فاستعاد بعض المدن فسار محمد علي بنفسهِ لنجدة ابنـهِ طوسون (١٨١٤) وكانت بين المصريين والوهابيين مواقع ومناوشات عديدة حالف النصرُ فيها المصريين. وقد مات في تلك

وقوةً حتى تمَّ لهم فتح كل شبه جزيرة العرب على عهد زعيمهم الثالث سعود وهو حفيد الزعيم الاول

الاثناء سعود نخلفهُ ابنهُ عبدالله ولم يكن على شيء من بسالة أبيهِ ودرايتهِ .
وعاد محمد علي الى مصر قبل أن يُجهزَ على الوهابيين . ولم يلبث طوسون أن تبعهُ اليها ، ومات فيها بعلة مجهولة ، فحزن عليهِ حزناً شديداً . وفي سنة ١٨١٦ ألحَّ الباب العالي على محمد عليّ في غزو الوهابيين ثانيةً وقطع دابرهم من البلاد . فسيَّر اليهم جيشاً بقيادة ابنهِ الاكبر ابراهيم باشا . فانتصر هذا انتصاراتٍ باهرة وأجهز على الوهابيين ، وخرَّب درعية عاصمتهم ، وأسر زعيمهم عبدالله وأرسلهُ الى مصر ، فسيَّرهُ محمد عليّ الى الاستانة ، فاجتُزَّ فيها رأسهُ . وكافأ السلطان ابراهيم بان منحهُ لقب أمير مكة ، وأنعم على محمد علي بلقب خان لقاءَ ما تحمّلهُ في هذهِ الحرب من النفقات وما أبداهُ للدولة من الاخلاص

﴿ الحملة السودانية ١٨٢٠—١٨٢٣ ﴾ — وكان الألبانيون قد أضحوا قوةً كبيرةً يخشى أمرها ، فرأى محمد عليّ أن يشغلهم عن مصر بغيرها ، وكان يميل الى فتح السودان لما اتصل بهِ عن ثروة تلك البلاد ، فسيَّرهم اليها بقيادة ابنهِ اسماعيل (١٨٢٠) ففتحوا أعالي النوبة وسنار وكردوفان وشواطيء الصومال . وقُتلَ قائدهم اسماعيل . وكان صهرهُ أحمد بك الدفتردار قد أتاهُ بنجدةٍ فقتل ألوفاً من السودانيين وخرَّب شندي انتقاماً لهُ . ثم أخضع البلاد وحكم سنار وكردوفان حتى سنة ١٨٢٤

﴿ حرب اليونان ﴾ — وكانت بلاد اليونان في تلك الاثناء تعملُ على خلع السيادة العثمانية واستعادة استقلالها . وفي سنة ١٨٢١ بدأت الثورة في « المورة » ومنها امتدت الى سائر البلاد اليونانية؛ وهبَّت أوربا

قاطبةً تؤيد هذه الحركة ، فطلب الباب العالي نجدةً من محمد علي . فسار ابراهيم باشا بعمارةٍ مصرية كبيرة تُقِلُّ ٢٠,٠٠٠ مقاتل (١٨٢٤) انضمت الى العمارة العثمانية فقابلت العمارة اليونانية بقيادة ميوليس تينك العمارتين ، فكان لها عليهما الغلبة . على أن ابراهيم باشا تمكن في السنة التالية من النزول برجالهِ الى المورة ، ففتح فيها مُدُناً وحصوناً كثيرة ، وكاد يتمُّ لهُ إخضاعُ كلِّ البلاد اليونانية لولا ان انكلترا وفرنسا وروسيا أرسلت مراكبها الحربية لمساعدة اليونان فشتتت المراكبَ العثمانية والمصرية في موقعة ناڤارين الشهيرة (٢٠ اكتوبر ١٨٢٧) ؛ ورأت تركيا ان تعدلَ عن مواصلة القتال تجاهَ هذهِ القوّات المتحالفة ، فسلّمت باستقلال بلاد اليونان وعاد ابراهيم الى مصر (١٨٢٨)

أَما الباب العالي فتنازل عن جزيرة كريت (١٨٣٠) لمحمد علي لقاءَ ما خسرته مصر في هذه الحرب من الرجال والمال . وكان محمد يطمع في سوريا ، فلما لم ينلها جزاءَ نجدتهِ هذه ، أصبح يتحيّن الفرص لضمها الى مصر كيفما كان الأمر

﴿ الحملة على سوريا ﴾ — وفي سنة ١٨٣١ اتخذ حجةً لذلك ما وقع بينهُ وبين عبد الله باشا والي عكا من الخلاف ، فعقد لابراهيم على حملةٍ لقتالهِ . فسار ابراهيم في سوريا فاتحاً كلَّ الثغور التي مرَّ بها من غزة ، حتى بلغ عكا . فحصرها برًّا وبحراً مدةَ ستة أشهرٍ واخذها عنوةً بعد قتال عنيف . ثم توغّل في البلاد فأخذ دمشق ، ولم يجد في سائر المدن مقاومة تذكر

﴿ الحرب الأولى مع تركيا ١٨٣٢ — ١٨٣٣ ﴾ — ولما علمَ السلطان محمود باعتداء محمد على املاكهِ السورية أصدر فرماناً بعزلهِ وتجريدهِ من كل القابهِ وأنفذ الى سوريا الشمالية ٣٥٠٠٠ مقاتل بقيادة محمد باشا والي طرابلس لمقاومة ابراهيم. فالتقى بهِ بقرب حمص (٩ يوليو ١٨٣٢)، وانتهى بينهما القتالُ بانتصار ابراهيم انتصاراً مبيناً، وقد قتل وأسر من العثمانيين نحواً من ٣٢٠٠٠ وغنم من سلاحهم ومتاعهم شيئاً كثيراً، وتحوَّل عنهم الى حلب، فسلَّمت (٢١ سبتمبر)، فترك فيها حامية، وتابع مطاردة جيش حمص فادركهُ في مضيق بيلان وهزمهُ مرَّة ثانية، وأسر منهُ ٢٠٠٠ مقاتل، وغنم عدداً وافراً من مدافعهِ فجرَّد عليهِ الباب العالي جيشاً آخر فلم يثبت في وجههِ اكثر من الجيش الاوَّل. ولما تمَّ لابراهيم فتح سوريا طرق آسيا الصغرى، فاستولى على أطنه وطرسوس ثمَّ انتهى اليهِ تجريد الباب العالي لجيشٍ ثالثٍ بقيادة الصدر الاعظم رشيد باشا. فجدَّ ابراهيم للقائهِ وفتح في طريقهِ ازمير. وفي ديسمبر (١٨٣٢) التقى بالجيش العثماني في قونيه فمزَّق شملهُ وأسر قائدهُ رشيد باشا وأصبح ابراهيم بعد هذهِ الانتصارات يهدد الاستانة، ولم يبقَ في وجههِ ما يردُّهُ عنها. على أن اوربا خافت عقبى ذلك. فاوقفتهُ عند هذا الحدّ من فتوحاتهِ؛ ثم أبرمت معاهدة كوتاهيا (١٤ مايو ١٨٣٣) التي تنازلت الدولة بموجبها لمحمد علي باشا عن مصر والحجاز وكريت، ولابراهيم باشا عن سوريا واطنه على ان يكون كلاهما تابعين للباب العالي

وعاد ابراهيم باشا الى سوريا وجعل انطاكية قاعدةً لولايتهِ، وأقام

في حلب واطنه وطرسوس ولاة من رجالهِ . وسهر على جيوشهِ بنفسهِ ، وسعى جهدهُ الى بثّ النظام والامن في ولايتهِ بعد ان عمت فيها الفوضى إِثر الحروب المتقدّمة . على ان ما ابداهُ ابراهيم باشا في حكمهِ من الدراية والعدل ، لم يمنع حدوث فتنٍ في البلاد . ففي سنة ١٨٣٤ اتقدت نار الثورة بقرب الكرك والسلط ، ثمَّ امتدَّت الى اورشليم فالى السامرة وجبال نابلس . فعمد ابراهيم الى اخمادها بالقوة . وتلتها فتنٌ أُخرى في صفد والناصرة وبيت لحم وغيرها . فانجد محمد عليّ ابنهُ بنفسهِ ، واخضع الثائرين ، وهدم بعضاً من حصونهم ، ووقعت بعد ذلك فتنةٌ في جبال النصيرية فسيَّر محمد عليّ جيشاً مصرياً ، انضمَّ اليهِ جيشٌ لبناني بقيادة الأمير خليل ابن الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان فقمعوا ثائريها واقتصّوا من زعمائهم . وجرَّد ابراهيم بعد ذلك كلَّ السوريين ما عدا اللبنانيين من سلاحهم ، فاستتبَّ لهُ الأمرُ تماماً

﴿ الحرب الثانية مع تركيا ١٨٣٩ ﴾ — وعلم السلطان محمود الثاني بعد ذلك انَّ ابراهيم يتأهب لفتوحات جديدة ؛ وكان من جهةٍ ثانية يرغبُ في استعادة سوريا منهُ ، فارسل لقتالهِ على حين غرَّة ٨٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة حافظ باشا ، فهزمهم ابراهيم في سهل نزيب (غربي عين تاب) الى مرعش (٢٤ يونيو ١٨٣٩) وقتل منهم ٤٠٠٠ ، وأَسر ١٢٫٠٠٠ ، وغنم ١٧٢ مدفعاً و ٢٠٫٠٠٠ بندقية . وكانت الدولة في تلك الاثناء قد أرسلت عمارة بحرية الى ثغر الاسكندرية فسلّمها قبطانها الى محمد علي بلا قتال .

ومات السلطان محمود بعد موقعة نزيب بثمانية أيامٍ ، فخلفهُ عبدالمجيد

الاول ، وعقد مع روسيا وبروسيا واوستريا وانكلترا معاهدة لوندرا (١٥ يوليو ١٨٤٠) سلَّم بمقتضاها بان يكون حكم مصر لمحمد علي ولذريتهِ الاكبر فالاكبر من بعدهِ وان تكون ولاية عكا لهُ فقط مدة حياتهِ ، على ان يتنازل لقاء ذلك عن سائر فتوحاتهِ . وبعثت الدول الى محمد علي تُبلغهُ رسمياً هذهِ المعاهدة ، وتهدِّدهُ بحرمانهِ من كل شيء إن هو لم يُذعن لشروطها . فأبى التسليم بها ، واستعدَّ للقتال . وكانت فرنسا تعضدهُ وتطلب لهُ ولذريتهِ مع حكم مصر نصف سوريا

فأصدر السلطان فرماناً بعزل محمد علي عن مصر ، وخرجت عمارات الدول المتحالفة الى سوريا لترغم ابراهيم على الجلاء . ففتحت سوريا ، ولم يستطع ابراهيم مقاومتها لا سيما وانهُ اضطرَّ في تلك الاثناء الى إخماد ثوراتٍ جديدة في داخلية البلاد

وأقلعت العمارة الانكليزية الى الاسكندرية ، وجرت المفاوضة مع محمد علي في أمر الصلح ، فرضي بهِ اتقاءً للحرب وضناً بأرواح رعاياهُ . وكان من شروط الصلح أن يسلِّم محمد علي سوريا والعمارة العثمانية في الحال ، وان يكتفي بمصر لهُ ولذريتهِ . وامتنع عبد المجيد في أول الأمر عن القبول بهذهِ الشروط ، ولكنهُ لم يلبث ان وافق عليها (ابريل ١٨٤١) بعد موافقة الدول

وتبع ذلك الصلح اتفاق آخر أبرمتهُ الدول في لندرا (يوليو ١٨٤١) . وأصدر السلطان فرماناً ثانياً فحواهُ تثبيت محمد علي والياً مدة حياتهِ على الأصقاع السودانية التي فتحها ، وتوليتهِ سواكن ومصوَّع لقاء جزيةٍ

يؤديهـا عنهما للدولة . ونصّ ذلك الفرمان ايضاً على ان لا يتجاوز عدد الجيش المصري ١٨,٠٠٠ جندي ، وأن يدفعَ محمـد عليّ ربع ايرادت الجمارك والضرائب لخمس سنواتٍ جزيةً للدولة ، وان يضرب النقود باسم السلطان . ولم يكن محمد علي راضياً بهذهِ النتيجة بعد فتوحاتهِ المجيدة وقد رأى فيها إِجحافاً بحقوقهِ ، ولكنهُ اضطرّ الى قبولها بسبب اتحاد أوروبا عليهِ

﴿ اصلاحات محمد علي ﴾

﴿ الاصلاحات العسكرية ﴾ — جعل محمد علي الخدمة العسكرية إجباريةً ، وعلَّم جيوشهُ المستحدثة ، من بريّة وبحريةٍ ، النظامَ العسكريّ الاوربي على أمهر أرباب هذا الفنّ من فرنساويين وايطاليين وانكليز . وبنى لهم مدارس علمية عُرفت بالتجهيزية ، وأخرى حربية ؛ فكانوا يتعلمون في الأولى القرآنَ والتركية والفارسية والعربية والايطالية والنحو ومبادئ الرياضيات والرسم وغير ذلك من العلوم ، وكانوا بعد اتمام هذه الدروس ينتقلون الى المدارس الحربية

وكان محمد علي يؤلف من نجباء هؤلاء الطلبة إرسالياتٍ يبعثها الى أوربا لاتقان الفنون الحربية فيها وتعلُّم بناء السفن والملاحة وعلم الآلات والطبيعيات وما شابه . وكان فريقٌ يدرس الطبّ ليكون منهُ اطباء للجيش ، وقد شاد محمد علي مدرسة للطوبجية ومعامل لصبّ المدافع وسائر أدوات الحرب وترسانة في الاسكندرية ؛ وبنى حصوناً كثيرة منيعة حول هذهِ

المدينة وسائر الثغور . وكان من أشهر مدرّبي الجيش المصري الجنرال سيف ، وقد ترك الجندية الفرنساوية بعد سقوط نابوليون ونفيهِ ، وأتى مصر ؛ فعهد محمد علي اليهِ في البحث عن مناجم الفحم الحجري في السودان ؛ ثمَّ أرسلهُ مع ابراهيم باشا الى المورة وسوريا ، فأبدى بسالةً وحنكةً في القتال ؛ واعتنق سيف الاسلام ، فعُرف بسليمان باشا الفرنساوي ومات في مصر (١٨٦٠) ولهُ تمثال في الميدان المعروف باسمهِ امام فندُق ساڤوي في القاهرة

واشتهر من أساتذة البحرية سريزي وموجل بك وبيسون ؛ واليهم يرجع الفضل الكبير في إحياء بحرية مصر وتنظيم عمارتها بعد أن كانت قد دُمّرت في موقعة ناڤارين

﴿ الاصلاحات العلميـة ﴾ — شاد محمد علي مدارس ابتدائية لتعليم العربية والحساب ، ومدارس ثانوية لتعليم التركية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات ، ومدارس عليا للضباط ولطلبة الطبّ والزراعة والفنون الجميلة ؛ وأنشأ لها ديواناً عُرِف بديوان المدارس ، وكان أشبهَ شيء بنظارة المعارف الحالية ، وعهد اليهِ في مراقبة التعليم ونظامهِ ؛ فتجاوزت المدارس التابعة لهُ في سنوات قليلة السبعين بين ابتدائية ، وثانوية ، وعليا ، كمدارس الطبّ والصيدلة والزراعة والهندسة والصنائع والفنون الخ

وكانت العربية في الغالب اللغة الأساسية ، على أن نظام المدارس كان فرنساوياً محضاً ، وكانت العناية باتقان الفرنساوية كبيرة

وجعل محمد علي التعليم مجانياً ؛ وكان يقوم فوق ذلك بنفقات الطلبة

كلها ؛ فبلغوا على عهدهِ ٩٠٠٠ طالب رغم كرهِ الناس للتعلم في تلك الأيام. وكان يُوفِد ارساليات علمية الى أوربا كالارساليات العسكرية . وشاد في باريس مدرسةً كان رئيسها مصرياً ، وأساتذتها فرنساويين تختارهم الحكومة الفرنساوية من خيرة ضباطها

واشتهر من أساتذة الطب في مصر الدكتور الفرنساوي كلوت بك ، واليهِ يُنسب شارع كلوت بك في القاهرة . استقدمهُ محمد علي طبيباً لجيوشهِ ، واستعان بهِ على نشر تعليم الطبّ ، واتخاذ الوسائل الصحية في كل انحاء القطر ، وعلى تشييد المدارس الطبية والمارستانات ، وكان أهمها مدرسة القصر العيني . وأنشأ كلوت بك مجالس ولجاناً طبية لمراقبة الأحوال الصحية في البلاد ، وكان يسهر بنفسهِ على سيرها ، وقد نبغ من تلاميذهِ كثيرون فأعانوهُ في جهادهِ الحميد ، وترجموا أيضاً الى العربية والتركية والفارسية كتباً كثيرة في الطبّ والجراحة والطبيعيات

وأنشأ محمد علي جريدة « الوقائع المصرية » ومطبعة في بولاق على انقاض المطبعة الفرنساوية ، فكانت تُطبع فيها الكتب المفيدة ، وأكثرها منقول عن مؤلّفات أوربية في التاريخ والجغرافيا والطبيعيات والفنون الحربية والعلوم السياسية والطبّ

وقد احترم محمد علي العلماء كثيراً وقرَّبهم اليهِ وشجَّعهم ، فكانت بداية النهضة الأدبية الحديثة التي سرت من مصر الى سائر ربوع الشرق . وفي أيامهِ قدم إلى مصر شامپوليون ، وهو العالم الفرنساوي الذي توصّل الى قراءةِ الكتابة الهيروغليفية ، فأفاد التاريخ فائدةً كبرى ، وأماط

النقاب عن كثير من حوادث مصر القديمة

﴿ الاصلاحات الاقتصادية ﴾ — لما استتبّ الأمر لمحمد علي ، كانت الصناعة والتجارة في أسوإ حالٍ ؛ وكان القسم الاكبر من الأراضي الزراعية قفراً قاحلاً لتقاعد الأهلين عن الزراعة بسبب ما كانوا يلاقونهُ من الحيف على أيام المماليك. وأراد محمد عليّ أن يُعيد الى مصر عزّها الغابر ، وإلى ابنائها السعادة والصفاء ، ورأى شدّة الاحتياج الى المال لتحقيق هذهِ الأماني ، فحاول أن يسيرَ بالمصريين الى جناء خيرات وافرة طمرها في واديهم نهر ميمون ؛ ثمّ عرف ما يقتيضـهِ احياء ميت نشاطهم من السنين الطوال فاضطرّ الى احتكار الزراعة والتجارة والصناعة . واستأثر (١٨١٤) بالأراضي الزراعية ومسحها ووزّعها في الناس وسهرَ على زراعتها بنفسهِ ، وانتقى لكل جهة منها الزرع الذي يصلح لها ، وقد أدخل (١٨٢٣) زراعة القطن في الدلتا فكانت في المستقبل ثروة كبيرة لمصر ، وأدخل زراعة الأفيون في الصعيد ، وجاء بأنواع كثيرة من الأشجار والأثمار والحبوب والبقول والأزهـار . وكان يستعمل كلّ الوسائل في تشجيع المزارعين ومنع الحيف عنهم ويرسل ذوي الاستعداد منهم الى أوربا لتعلم الزراعة فيها على نفقة الحكومة

ورأى ما يقتضيهِ انتشار الزراعة ونجاحها من وفرة الماء ، فحفر في القطر نحواً من ٤٠ ترعة ؛ وفكّر في بناء خزّان عند رأس الدلتا على فرعي النيـل لضبط المياه إبّان الفيضان ، والريّ منهـا إبّان الهبوط ، وعهد (١٨٣٤) الى «لينان باشا بلفون» والى «موجل بك» في هذا العمل العظيم

الذي لم يتم الاَّ على عهد خلفائهِ وهو المعروف بالقناطر الخيرية . وكان سد أبي قير لايزال خرباً كما تركهُ الانكليز بعد موقعتهم مع الجنرال مينو ، فأصلحهُ ، وبنى غيرَهُ لحبس المياه عن الأراضي المغرقة الصالحة للزرع . وكانت أراضي مصر الزراعية في أوائل حكمهِ لا تكاد تتجاوز ١٠٠٠٠٠٠٠ فدّان فبلغت في آواخر أيامهِ أربعة أضعاف ذلك

وكان محمد علي يستولي على حاصلات القطر فيستوفي منها الضرائب ، ويعطي المزارعين نصيبهم منها ، ويبيع القسم الاكبر من باقيها الى التجار الأوربيين بأثمان عادلة ، فأقبل هؤلاء عليها اقبالاً كبيراً لاسيما وان محمداً علياً أكثر لهم من وسائل الاتجار مع بلادهِ، وأحسن معاملتهم ومنع عنهم كلّ اعتداء . وبنى للسفن التجارية مرفأً في الاسكندرية ، وأنشأ فيها مجلساً تجارياً من الوطنيين والأجانب للنظر في الدعاوي التجارية ، وحفر من المدينة الى النيل ترعةً دعاها « المحمودية » نسبة الى السلطان محمود ، فسهَّل بذلك المواصلات التجارية بين النيل والبحر الأبيض المتوسط

وبنى محمد علي في انحاء القطر الطواحين ، والمعامل الكثيرة لنسج الصوف والكتّان والحرير والقطن ولصنع الطرابيش ولاستحضار السكر وتكريرهِ ، ولطبخ الورق ، وكان يضطر الى التسخير في انجازِ هذهِ الأعمال اتقاء للاستدانة

﴿ الاصلاحات الادارية ﴾ — قسم محمد علي مصر الى مديريات ، والمديريات الى مراكز ، والمراكز الى نواحٍ ؛ ووكل أمورها الى مديرين ومأمورين ومشايخ بلد . ووضع البريد برّاً وبحراً ، وأقام في كل انحاء

القطر فرقاً من الجيش لحفظ الأمن دعاها « الفرق الضابطة » وأنشأ مجالس قضائية وسنّ لها القوانين والنظام وألّف دواوين لكل دائرةٍ من دوائر الحكومة كديوان الخارجية وديوان الداخلية وديوان المدارس ودواوين الترسخانة والأبنية والمعامل والتفتيش والاشغال والمالية والحقانية والحربية والضابطة والاوقاف وهلم جرّا . وكان يرجع أمرها كلها الى الديوان الأكبر ويسمى « ديوان المعاونة » فينظر فيما تفعل وما تعرض عليهِ من المشروعات والأمور الهامة ، ويراقب كذلك أعمال المديرين في المديريات. وكانت سلطة محمد علي مطلقة تعلو كلّ هذه الدوائر . وما زال يسهر بنفسهِ على سير حكومتهِ ويراقب أعمالها ونظامها بهمةٍ لا تعرف الكلل الى أن أقعدهُ المرض والضعف عن العمل (١٨٤٨) فاضطرّ الى التنازل عن الحكم لابنهِ ابراهيم . ومات محمد علي سنة ١٨٤٩ في القاهرة . فدُفن في الجامع الذي بناهُ في القلعة ، وكان قد أقامهُ على انقاض قصر صلاح الدين ، وزيّنهُ بالرخام والرسوم الذهبية . وهذا الجامع يُشرِف على القاهرة وضواحيها الى مسافات شاسعة ، فكأنهُ يمثل سلطة محمد علي على القطر

ولا عجب إذا لُقّبَ محمد عليّ بالكبير ، وسمّيَ مصلح مصر العظيم ، بعد كلّ هذه الاصلاحات المتنوّعة التي تمّت على عهدهِ . فإنهُ كان لا يألو جهداً في إنهاض مصر ودفعها الى مجاراة أرقى البلاد في التقدُّم والحضارة. وكان يرمي الى تأسيس سلطنةٍ شرقية عُظمى على قاعدة ممالك الغرب ، وكاد يتمُّ له ذلك بفضل حزمهِ ونشاطهِ وصدق نظرهِ وسعة مداركهِ . وقد خبر الدنيا وعجم عودها وعرف سياسة الناس فوضع الأمور في

موضعها . قال الكونت بندتي «كان محمد علي عزيز مصر أشبهَ ولاة المسلمين بهارون الرشيد ، فانهُ ساد مصر ، وفتح لها ينابيع الثروة ، وهدم الحواجزَ التي كانت تفصلُ بينها وبين اوربا »

ابراهيم باشا (١٨٤٨)

وُلدَ في قوله (١٧٨٩) ؛ وقد عني محمد عليّ بتعليمهِ وتهذيبهِ . فدرس ابراهيم التركية والعربية والفارسية وتواريخ الامم الشرقية وكان ولعاً بالقتال والفتوحات ، فأتقن صغيراً الفنون الحربيّة ، وبرز شاباً في مصافّ أبسل قوّاد عصرهِ وأعظمهم ، وزان حياتهُ بالفتوحات المجيدة ، ولما زار أوربا (١٨٤٥ — ١٨٤٦) وجد من ملوكها وأمرائها كلّ حفاوة واكرام

وما زال يقود الجيوش المصرية من نصر الى نصر (كما مرّ) ويعين أباهُ في تدريبها على النظام الحربيّ الأوربيّ ، حتى كانت سنة ١٨٤٨ خلفهُ في منصبهِ ، وحذا حذوهُ في حسن التدبير والعدل . ولكنهُ مات لأشهرٍ من حكمهِ قبل ان يُخرج الى حيّز العمل الاصلاحات الإدارية والسياسية التي خبرها اثناء سياحتهِ في أوربا ، وعقد النية على تنفيذها في مصر

عباس باشا الاول (١٨٤٩ — ١٨٥٤)

هو ابن طوسون بن محمد علي وُلدَ في جدّة (١٨١٦) . ولما مات أبوهُ احتضنهُ جدُّهُ محمد عليّ ، وأحبهُ شديداً ، وصرف أكبر عنايتهِ الى تثقيفهِ وتهذيبهِ على يدي أفضل الأساتذة والعلماء . غير أنّ عباساً كان

أميل الى الرياضة البدنية والفنون الحربية وامتطاء الجياد وتحمّل مشاق الأسفار منهُ الى الدرس والعلم فصحب عمهُ ابراهيم في بعض حروبه ؛ ثم خلفهُ في الحكم (١٨٤٩) قبل وفاة محمد علي ، فأهمل أكثر إصلاحات سلفيهِ ، واضطهد الأجانب وشدّد على الرعية ، واستقدم الى مصر الجيوش التي أبعدها جدّهُ ، وبنى لهم في ضواحي مصر ثكنات واسعة ، وشاد لهُ بقربها قصراً أقام فيهِ ، ولكنهُ رخّص لشركة انكليزية بمدّ خطوط حديدية بين الاسكندرية والقاهرة ، وانشأ خطوطاً تلغرافية في جهات عديدة من القطر ، وأباح لماريت (Mariette) خلف شامپوليون التنقيب في صحراء سقّاره على نفقة فرنسا ، واستحضر من فلوريدا بذرة قطنٍ يفضلُ كثيراً القطن الذي كان يُزرع في مصر حتى ذلك العهد

وكان عباس مخلصاً للدولة ، فأمدّها في حرب القرم بعمارة بحرية و ١٥,٠٠٠ مقاتل . وطلب منهُ الباب العالي أن يلغي في مصر التسخير والجلد ، وأن يُقصر مدة الخدمة العسكرية فأجاب الطلب . وكان لهُ ولدٌ يُدعى ابراهيم الهاميّ ، فأزوجهُ السلطان عبد المجيد ابنتهُ ، فرزقت منهُ ابنة تزوّج بها فيما بعد المغفور لهُ توفيق باشا ، وهي والدة سمو الخديوي الحالي عباس باشا الثاني

وكان الباب العالي قد عقد (١٨٣٨) معاهدة تجارية مع انكلترا أباح فيها للأجانب الاتجار مع الافراد في كل انحاء الدولة لقاء رسوم طفيفة ، ولكنهم وجدوا يومئذٍ في مصر من محمد علي باشا مقاومة شديدة في الدفاع عن احتكاراتهِ . وفي أيام عباس الأول بدأ ذلك

الاحتكار بالزوال فكانوا يبتاعون من المزارعين مباشرة كلَّ ما يتبقى من حاصلاتهم بعد دفع الضرائب

وفي سنة ١٨٥٤ مات عباس باشا فجأةً ، في قصرهِ في بنها العسل فنقلت جثتهُ الى مدفن أسرتهِ في القلعة

محمد سعيد باشا ١٨٥٤ — ١٨٦٣

هو أَصغرُ ابناء محمد علي باشا . وُلدَ في مصر (١٨٢٢) ، فعهدَ أبوهُ في تربيتهِ وتهذيبهِ الى أَساتذةٍ فرنساويين ، وكان ينوي إدخالهُ البحريةَ ، فرسمَ بتعليمهِ الملاحةَ والرياضياتِ والرسمَ وبعضَ اللغاتِ الاوربية . وكان سعيد لينَ العريكةِ ، ذكيَّ الفؤادِ ، محباً للاطلاع ، فعملَ بنصائحِ اساتذتهِ ، وكدَّ في دروسهِ فأَتقنها غايةَ الاتقانِ . وخلفَ (١٨٥٤) ابنَ أخيهِ عباس في حكمِ مصر ؛ وقد آلى على نفسهِ إسعادَ الأمةِ المصريةِ من كلِّ الوجوهِ ، فقرَّبَ اليـهِ من الوطنيين والأجانبِ أشدَّ الناسِ عطفاً عليها ، وأَدراهم بحاجاتهـا ، وأَفضلهم تدبيراً ؛ وانصبَّ معهم على الإصلاح . وكان المديرون والمأمورون ومشايخُ البلادِ قد تمادوا ، على عهد سلفهِ ، في الاستبـداد ، فضيَّقَ في سلطتهم كلَّ التضييق ؛ وألَّف مجلس شورى للنظر في الأمورِ العمومية الخطيرة قبـل إصدار أوامرهِ بشأنها . وتفرَّد بتعيين قضاة البلاد ، فاختارهم من أنزهِ رجاله . ومنع المتاجرة بالرقيق في مصر ، وحرَّر من كان فيها من الارقاء (١٨٥٦) وأبطل التعذيب (١٨٦١) ، وضرب بيدٍ من حديد على الطغاة وقبائل قطَّاع

الطرُق البدوية ، فرفع عن رعيتهِ كلَّ حيف

وأعادَ سعيدُ باشا للمزارعين ملكيةَ الأراضي التي نزعها أبوهُ منهم ، وسنَّ لهم قوانينَ عادلةً لجبايةِ الضرائب ، وأعفاهم من دفعِ المتأخرِ منها ، وكانت قيمتهُ لا تقلُّ عن ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ غرش . وأعفى حاصلاتهم من رسوم الجماركِ الداخليةِ ، تسهيلاً لبيعها للتجّار ، وطهّرَ ترعةَ المحمودية من الرمالِ التي كانت تُعيق سيرَ السفنِ ؛ وقد اشتغل في هذا العمل ١١٥,٠٠٠ رجل مدة ٢٢ يوماً وأتمَّ سعيد باشا الخطوط الحديدية بينَ القاهرةِ والاسكندرية ، ومدَّ خطاً آخر بين القاهرةِ والسويس ، وأسلاكاً تلغرافية كثيرة . وبنى قلعةً واستحكامات قرب القناطر الخيرية . وعني بتحسين حالة العساكر ونظامهم . وأقصى عن البلاد الجنود الالبانية التي كان قد أعادها عباس الأول ، وجعل الخدمةَ العسكريةَ إجباريةً لمدّةِ سنةٍ واحدة . وقد قاتلَ جيشهُ ببسالةٍ مع الجيوش المتحالفة في حرب القرم التي ابتدأت على عهد سلفهِ

وقد اهتمّ سعيد باشا باحياء مدنيـة مصر القديمة والبحث عن آثار الفراعنة ، فأجرى حفرياتٍ كثيرة بادارة ماريت بك في منف ودندره وطيبة وادفو وغيرها ؛ وانشأ في بولاق داراً للعاديات جمع فيها شيئاً كثيراً من الآثار القديمة

﴿ قناة السويس ﴾ — وفي عهد سعيد باشا نُفِّذَ في مصر أكبر مشروع تمَّ في القرن التاسع عشر ، وهو نقضُ برزخِ السويس الفاصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، فتحوّلت تجارة الشرق الاقصى عن

طريق رأس الرجاء الصالح الى البحر المتوسط ، وأضحت مصر الطريق اللاحبة بين الشرق والغرب . تمّ هذا المشروع العظيم على يد فردينان ده لسبس F. de Lesseps الفرنسوي القائم الآن تمثالهُ على مدخل القناة شاهداً بفضلهِ

وكان ده لسبس صديق محمد سعيد الحميم ؛ فلما تولىّ هذا الأخير الديار المصرية ، أسرعَ اليهِ ده لسبس ، وعرض عليهِ فكرة حفر القناة ؛ فأصدر سعيد باشا فرماناً يُجيز تأليف شركة مالية للقيام بهذا العمل . ولكنّ جميع الدول لم تكن راضيةً عن هذا المشروع لما كان هناك من تزاحم المصالح ؛ فدخلت المسألةُ في طور السياسة والمفاوضات بين السفارات والنظارات . على أن كل ذلك لم يُضعف عزيمة ده لسبس ، فسافر الى الاستانة ولندرا وباريس ، وقابل رجال الحلّ والربط حتى ذلّل الصعاب ، وتغلب على كل ما كان يعترض تحقيق فكرتهِ الى أن فاز بالمرغوب ، وتحصّل على موافقة حكومات أوربا . وكان سعيد باشا يتتبّع هذه المفاوضات بمزيد الاهتمام لما رأى في هذا المشروع من الخير لبلادهِ . وبعد الأعمال التمهيدية ، عُقِد قرضٌ بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ، مقسوم الى ٤٠٠,٠٠٠ سهم ، فراجت اسهمهُ في الاسواق المالية ، واشترت فرنسا منهُ ٢٠٧,١١١ سهماً ، وتركيا ٩٦,٥١٧ وسعيد باشا ٨٥,٥٠٦ سهوم

وفي ٢٥ ابريل (١٨٥٩) ابتدأ العمل بادارة ده لسبس ؛ وكان سعيد باشا يواليهِ بكل أنواع المساعدات . وظلّ العمل جارياً بهمة ونشاط ، حتى تمّ حفر القناة وتدشينها على عهد اسماعيل باشا كما سيأتي الكلام

وقد عادت اصلاحاتُ سعيد باشا على البلاد بفوائد جمة لكنها اضطرتهُ الى الاستدانة ، فعقد ثلاثة قروض (١٨٥٨ و ١٨٦١ و ١٨٦٢) وكان ذلك فاتحة القروض المصرية التي أثقلت كاهلَ البلاد بالديون

وزار سعيد باشا السودان (١٨٥٦) فأولى تلك البلاد أيضاً نصيباً من عنايتهِ خصوصاً من حيث تنظيم جباية الضرائب . وزار سوريا (١٨٥٩) وزار أوربا (١٨٦٠) وقد أنشأ على مدخل قناة السويس مدينة سُمّيت بور سعيد نسبةً اليهِ . وفي سنة ١٨٦١ قام على عرش السلطنة بعد عبد المجيد السلطان عبد العزيز . وتوفي سعيد باشا سنة ١٨٦٣ ودُفنَ في الاسكندرية

اسماعيل باشا ١٨٦٣ — ١٨٧٩

هو ثاني اولاد ابرهيم باشا ، وُلدَ في القاهرة (١٨٣٠) وعلَّمهُ جدُّهُ محمد عليّ العربية والتركية ومبادىء العلوم ، ثم أرسلهُ الى فرنسا (١٨٤٨) فأتقنَ فيها الفرنسوية والرّياضيَّات والهندسة والرَّسم والطبيعيات وشخصَ بعد ذلك الى الاستانة ، حيث عُيّنَ عضواً في مجلس الأحكام ، الى أن تولَّى عمهُ سعيد باشا (١٨٥٤) ، فاستدعاهُ الى مصر ، وأخذ يُدرّبهُ على الاحكام . ولما زار أوربا (١٨٦٠) استنابهُ في الحكم ، فقام بالنيابة أحسنَ قيام

وفي سنة ١٨٦٣ تُوفي سعيد باشا ، وكان بكرُ أنجال ابراهيم باشا « البرنس أحمد » قد تُوفي أيضاً ؛ فآلتِ الولايةُ الى اسماعيل

وكانت ولاية مصر لا تزال تنتقل الى الأكبر فالأكبر من أفراد

العائلة المحمدية العلوية ، على قاعدة الوراثة في السلطنة العثمانيـة ؛ فسعى اسماعيل باشا الى تغييرها ، وجعلِ الوراثة لبكر ابنائهِ ولبكر هذا من بعدهِ ؛ فأصدر السلطان عبد العزيز فرماناً بذلك ، وبمنحِ والي مصر لقب « خديوي » ؛ وهو لقبٌ تلقَّبُ بهِ بعضُ أُمراء الفرس والعثمانيين ، يخوّل حاملهُ حقَّ التقدُّم على سائرِ امراء الدولة ، ويجعـلُ لهُ بعضَ الاستقلال عن السلطة المركزيةِ . وقد بذلَ اسماعيل باشا أموالاً طائلةً للحصول على ذلك

وأرادَ اسماعيل ان يرفع مصر الى ذرى العظمة والمجد ، فلم يدَّخرْ وسعاً في إعلاء شأنها ، والسير بها الى مجاراة ممالك أوربا عمراناً وحضارةً ونظاماً . فأنفقَ الملايين في تشييد القصورِ ، والمدارس ، والمعاملِ ، والمتـاحفِ ، وتخطيط الشوارع ، والحدائق ، وإدخال الاكتشافات والاختراعات الحديثة الى مصر ، وتنشيط الفنون والآداب ، فأغنى مصر بآثارِ مجدهِ وعظمتهِ ، ولكنهُ أثقل كاهلها بالديون

ومن أعظم مبانيهِ قصرهُ في الجزيرة ، وسراي الزعفران في العباسية ، وسراي القصر العالي ، وكثير غيرها من القصور والسرايات في القاهرة والاسكندرية وفي حلوان حيث انشأ الحمَّامات المعدنية الشهيرة

وشادَ اسماعيلُ ايضاً داراً للتمثيل ، وهي المعروفةُ اليوم بالاوبرا الخديوية ، وداراً للآثار العربية ، ومرصداً للافلاك في العباسية ، ومكتبةً في دربِ الجماميز ، جمع فيهـا من الكتب والمخطوطات والآثار الشرقية النفيسة شيئاً كثيراً ، وهي الكتبخانة الخديوية التي نُقِلت فيما بعد الى

باب الخلق . ووسَّع في دار العاديَّات في بولاق ، وفي المطبعة الأميرية ، واختطَّ الاسماعيلية أجملَ احياء القاهرة ، ونظَّمَ الشوارع ، وعهِدَ الى لبون (Lebon) في إنارتهـا بالغاز ، وغرسَ على جوانبها الاشجار ، وغرسَ حديقة الازبكية ، وشادَ جسوراً (كباري) عديدة ، أعظمها كبري قصر النيل بين القاهرة والجزيرة ؛ ولم تكن عنايتهُ في تحسين الاسكندرية وغيرهـا من مدُنِ القطر الكبرى دون عنايتهِ في تحسين القـاهرة

وحفر اسماعيل باشا ترعاً كثيرة ، أهمها ترعة الاسماعيليـة بين القاهرة والسويس ، والترعة الابراهيمية في الوجهِ القبلي ؛ وأقام المنائر على شواطئ البحرين المتوسط والأحمر لهداية المراكب ، وبنى للسفن مرفأً في الاسكندرية وحوضاً في السويس لاصلاحها ؛ واختطَّ على قنـاة السويس مدينة الاسماعيليـة ؛ ومدَّ في انحاء القطر الخطوط الحديدية والاسلاك التلغرافية ، فربط بها مصر بالسودان . واليـهِ يرجع الفضل في إنشاء مصلحة البريد المصرية ، وتنظيمها وإدخالها في اتحاد البوستة العام (١٨٧٤)

فأحدثت كل هذه الأعمال والاصلاحات حركة في البلاد ، وراجت سوقُ الأشغال ، وأمَّ الأجانبُ القطرَ المصري من كل صوب ، فقدمها الصنَّاع والتجار والعلماء والأدباء ؛ ونتج عن ذلك ايضاً نهضةٌ ادبيـة ، كان لاسماعيل فيها الفضل الأكبر بما بذلهُ لنوابغ الـكتَّاب والمؤلفين من المساعدة الأدبية والمادية ؛ فأُنشئت الصحفُ والمجلات ، وتُرجمت الـكتب ،

ووضعت المؤلَّفات الكثيرة . وحبَّبَ اسماعيل العلمَ الى الناس وجدَّدَ نظام المدارس ، وأعادَ الارساليات العلمية الى أوربا ، وأباح لأدهم باشا رئيس ديوان المدارس ، ان يُنفِقَ كلَّ ما يحتاجهُ من المال على معاهد التعليم . ومن أشهر مدارس الخديوي اسماعيل مدرسةُ الحقوق ، ومدرسة دار العلوم ، ومدرسة الصنائع والفنون في بولاق ، ومدرسة المعلمين ، ومدرسة دعاها « مدرسة الألسن » لتخريج الكتّاب والمترجمين . وأنشأ غير ذلك عدداً كبيراً من الكتاتيب ، حتى فاق عددُ التلاميذ على عهدهِ ١٠٠٫٠٠٠ طالب وطالبة . وكان اسماعيل يحضر حفلات المدارس ، ويوزّع بنفسهِ الشهادات والجوائز على مستحقيها

ووضعَ اسماعيلُ المدارسَ العسكرية تحت مراقبة نظارة الحربية ؛ وأنشأ نظارةَ المعارف العمومية ، وعهد اليها في تنظيم سائر المدارس وإدارتها . وهو الذي أسَّسَ سائر النظارات على نظامها الحديث ، وولَّى رئاستها نوبار باشا ؛ وكان هذا حكيماً ، حسنَ التدبير ، واسع الدراية ، كثيرَ الاهتمام باصلاح شؤون البلاد . فأعان اسماعيلَ في تنظيم مديريات البلاد ومجالسها الحسبية ، ودوائر الحكومة والقضاء ، وانشاء المحاكم المختلطة (١٨٧٥) للنظر في الدعاوي التي تقعُ بين الوطنيين والأجانب ، أو بين الأجانب المختلفي الجنسية . وقد أنفق اسماعيلُ في سبيل انشاء هذهِ المحاكم أموالاً طائلة ، وقضى سنواتٍ عديدة يفاوضُ الدولَ في أمرها ، حتى تأتى لهُ إقناعُ ١٤ دولة بالموافقة عليها

وفي أيامهِ تمَّ حفر قناة السويس بعد تذليل صعابٍ كثيرة ، وإنفاق

أموال طائلة ، وتسوية خلافاتٍ عديدة ، قامت بشأن هذا المشروع بين الدولة العلية ودول اوربا ومصر . فاحتفل اسماعيل بتدشين القناة احتفالاً عظيماً (١٧ نوفمبر ١٨٦٩)[١]

وكان اسماعيل باشا من جهةٍ ثانية يرمي الى توسيع ولايتهِ ليجعلها

---

(١) دعا اسماعيل الى هذا الاحتفال كلَّ ملوك أوربا ، وألوفاً من الأمراء والسفراء ، وأقطاب السياسةِ ، وحملةِ الاقلام ، وأرباب العلومِ والفنون والصنائع والتجارة ، حتى ضاقت بهم القصور ، فنصب لهم في الصحراء ألف سرادقٍ . وأنزل الامبراطورة اوجيني وسائر الملوك وامراء الاسرات الملكية في قصر منيف ، شادهُ خصيصاً لهم . وفي ١٦ نوفمبر أقيمت حفلة دينية لاستمطار البركات الالهية على القناة اشترك فيها مشايخ الاسلام وأساقفة النصارى وكهنة اليهود . وفي الصباح التالي افتتح الاحتفال باطلاق المدافع ، ثمَّ تقدَّم يخت الامبراطورة اوجيني في القنال ، وتبعهُ يخت فرنسوا جوزف امبراطور النمسا ، ويخت فردريك غليوم أمير بروسيا ، فيخوت سائر الملوك والأمراء فالسفن المقلَّة للمدعوين والمتفرّجين وكان عددها ٦٨ سفينة . ولما بلغ اليخت الامبراطوري بحيرة التمساح حيَّتهُ ثلاثة مراكب حربية مصرية باطلاق المدافع فجاوبتها مدافع البرّ ، وعزفت الموسيقى ، وهتفت الجماهير المتجمهرة على الشواطىء من القبائل والاقوام المختلفي الجنسيات . وكان الخديوي اسماعيل قد جمعهم من كل أنحاء مصر والصحراء والسودان فاحتشدوا في الاسماعيلية ومعهم نساؤهم وأولادهم وخيولهم ونوقهم ومواشيهم وغزلانهم. فكان مشهد هؤلاء الالوف من بدوٍ وحضرٍ ودراويش ومغاربة وسودانيين الخ بأزيائهم وألوانهم المختلفة مشهداً فريداً في بابهِ قلَّما أتيح للعين ان تقع على مثله . وفي ١٩ خرجت السفن من بحيرة التمساح الي البحيرات المرَّة ، وفى اليوم التالي بلغت البحر الاحمر قبيل الظهر بعد ان اجتازت القنال . ومن ذلك العهد فتحت هذه الطريق للمراكب

اكبر سلطنةٍ في أفريقيا؛ فاهتم بأمر السودان الذي كان أهمله سلفهُ، وعهد الى الرحالة «صموئيل بيكر» في تنظيم شؤونهِ والاستيلاء على البلاد المجاورة، فتوغل بيكر في تلك الاصقاع وأقام نقطاً عسكرية في أعالي النيل؛ وعمل على إبطال النخاسة فلم ينجح. وفي سنة ١٨٧٤ عيَّن الخديوي اسماعيل غوردون حاكماً لمقاطعة اكواتوريا، فزاد في النقط العسكرية على النيل الابيض ونهر سوباط، وجعل لادو عاصمةً لهُ. ثمَّ أقامهُ الخديوي حاكماً عاماً على السودان، فانتقل الى الخرطوم، وكان حكمهُ يشمل سنَّار وكردوفان وبحر الغزال ودارفور. وكان الزبير باشا قد أخضع هذهِ المقاطعة الاخيرة (١٨٧٥) ومدَّ سلطة مصر الى أواسط أفريقيا. ووجد غوردون في جماعةٍ من الاوربيين أعواناً لهُ، منهم سلاتين باشا وامين باشا (الدكتور شنتزلر)

وكانت الحبشة قد اعتدت على تخوم الاملاك المصرية (١٨٧٤)، فعبَّأَ اسماعيل باشا حملةً عادت خاسرة. على انهُ كان لا يزال يرغب في ضم الحبشة الى ممتلكاتهِ الجديدة فجرَّد حملةً ثانية (١٨٧٥) ردَّت في اول الامر النجاشي عن مصوَّع وتوغلت في بلادهِ. ثم اندحرت وقُتل قائدها، فاضطرَّ الخديوي الى العدول عن فتح الحبشة والى مفاوضة النجاشي في امر الصلح، وقد كلفتهُ هذهِ الحملة مليوناً من الجنيهات

ومنذ ذلك العهد أخذ نجم اسماعيل بالأفول فان بذخهُ وكرمهُ المفرط والنفقات الطائلة التي صرفها في سبيل مشروعاتهِ اضطرَّتهُ الى استنفاد مال البلاد وعقد قروضٍ متوالية بفوائد فادحة. ولما وجد نفسهُ

عاجزاً عن تسديد الاقساط المستحقة لم يرَ مندوحة من تسليم ادارة مالية مصر الى مُراقِبَين احدهما انكليزي والثاني فرنسوي . على أن هذا الحلّ لم يأتِ بالنتائج المطلوبة ونشأ عنهُ ما حمل اسماعيل باشا على الاستقالة (٢٤ يونيو ١٨٧٩) ، وصدر امرٌ من الباب العالي (٢٦ يونيو) بتولية توفيق باشا . أما الخديوي اسماعيل فانهُ غادر الديار المصرية (٣٠ يونيو) الى نابولي ، تاركاً على مصر من الديون ما يبلغ ٩٠،٩٨٣،٩٠٠ جنيه مصري ؛ ثم استدعاهُ السلطان عبد الحميد الى الاستانة حيث بقي حتى وفاتهِ (١٨٩٥) ونُقلت جثتهُ الى مصر

توفيق باشا ١٨٧٩ — ١٨٩٢

هو بكر أَنجال اسماعيل باشا ؛ وُلدَ سنة ١٨٥٢ ، وشبّ ولعاً بالعلوم والآداب ، فأحرز نصيباً وافراً من الجغرافية والتاريخ والطبيعيّات والرياضيّات والعربية والتركية والانكليزية والفرنساوية ، فعهد اليهِ أبوهُ في أسمى مناصب حكومتهِ ، واستعان بهِ في أعمالهِ واصلاحاتهِ

وخلف توفيقٌ أباهُ اسماعيلَ في الخديوية (١٨٧٩) . وكانت مصر في حالةٍ سيئة : ديونٌ باهظة ، وجيشٌ ثائر ، وشعبٌ مضطرب . هذا والدول تُراقب الحوادث فيها عن قريب وتتدخل في شؤونها . وكان الباب العالي من جهةٍ ثانية غير راضٍ عن نتيجة توسيعهِ في سلطة اسماعيل ، فعمل على تضييق سلطة توفيق ، وأراد أن ينزعَ منهُ بعضَ الامتيازات كحصر ولاية العهد في اكبر البنين ، وعقد المعاهدات التجارية

والقروض المالية ، وزيادة الجيش . ولكنَّ فرنسا وانكلترا أَبتا عليهِ ذلك ، وحملتاهُ على الاكتفاء بتحديد زيادة الجيش الى ١٨,٠٠٠ عسكري فقط

وأَراد توفيق باشا ان يُصلحَ أُمورَ القطرِ المضطربة ، ورأى حاجتهُ في ذلك الى أعوانٍ يثقُ بهم ، فسألَ رياض باشا ان يؤلِّفَ وزارةً ليحكمَ البلادَ معها وبها . فألَّف رياض الوزارةَ ، وتولَّى رئاستها . وأصدر توفيق أمراً بتثبيت المراقبة الفرنساوية - الانكليزية على ماليـة القطر وديونهِ ، وعهد فيها الى مسيو بلينيار والكبتن بارنج ، وهو الذي صار فيما بعد اللورد كرومر ، فوجَّهَ المراقبان جلَّ اهتمامهما الى تأمين الدائنين على حقوقهم ، فضيَّقا في مصروفات الحكومة وخفَّضا رواتب عددٍ كبير من الضباط والموظفين ، فساءَ ذلك الوطنيين

وفي يوليو (١٨٨٠) صدرَ قانونُ تصفيةِ الديون المصرية ، وقد أُشير فيهِ الى التدابيرْ الواجب اتخاذهـا لضمانة تسديد أقساط الدين وفوائدهِ تدريجاً

﴿ ثورة عرابي ﴾ — وكان ناظرَ الحربية يومئذٍ جركسيٌّ يُدعى « عثمان باشا رفقي » ، فزاد في استياء الوطنيين وهياجهم ، بتقديمهِ الضباطَ الأتراكَ على العرب والمصريين . وكان في الجيش اميرالاي مصريٌّ ، اسمهُ « أحمد عرابي » ، ذو مطامعَ وجرأةٍ كبيرة ، وقد استفحل أمرهُ وعظم نفوذهُ بين مواطنيهِ فشكوا اليهِ الحيفَ اللاحقَ بهم ، وأنابوهُ في الدفاع عنهم . فرفع عرابي الى مجلس النظار عريضة ، ذيَّلها بتوقيعهِ وتوقيع آخرين من زعماء المتظلمين ، وطلبوا فيهـا تعديل

نظام الجيش تعديلاً يضمن المساواة بين أفراد الجند ، وطلبوا أيضاً عزل رفقي باشا وتعيين ضابطٍ مصريّ بدلاً منهُ الى غير ذلك من المطاليب ، فلم يكن من مجلس النظّار إلاّ أن قرّر سرًّا القبض على موقعي العريضة ؛ فاستدعاهم بحجة النظر في أمرهم . ولم تخفَ نيتهُ على عرابي ، فاجتمع بانصارهِ ، ورسم معهم خطة المقاوَمة . وفي اول فبراير (١٨٨١) سار باثنين من زُملائهِ الى القصر ، وكرّروا مطاليبهم بشدّةٍ ، فأمرَ توفيق باشا بايقافهم . ولكنهُ لم يلبثْ أنْ أطلق سراحهم تسكيناً لثائر الجماهير التي أحاطت بالقصر تسألُ الإفراجَ عنهم . ورأى أن يأخذهم هذهِ المرّةَ بالحسنى ، فعزل رفقي باشا واستخلَفهُ محمود باشا سامي البارودي ، وأصدر بعد ذلك أمراً بزيادة رواتب الجيش وبتعديل النظام والقوانين العسكرية

على ان ذلك زاد عرابي وأنصارهُ جُرأةً وتمادياً ، وحذَراً من سوءٍ قد يُبطنهُ لهم الخديوي ومجلس النظار في طيّ ما نالوا من النعم . فجعل عرابي يبثُّ في الخفاء روحَ التمرُّدِ والثورة في نفوسِ أبناء البلاد وعربانها ، ويحثُّهم على الإيقاع بوزارة رياض . وكان الخديوي ورياض باشا من جهةٍ أُخرى يعملان سرًّا على كسر شوكة الجيش شيئاً فشيئاً . فآل الأمرُ الى وقوع نفورٍ بينهما وبين محمود باشا سامي أدّى الى عزل هذا واستخلافهِ في نظارة الحربية داود باشا يكن . ولم يرضِ الناظرُ الجديد عرابي وحزبَهُ فثاروا ثانيةً (سبتمبر ١٨٨١) طالبين إسقاط وزارة رياض وعزلَ شيخ الاسلام ، وتأليف مجلس نوّاب وزيادة عساكر الجيش وتنفيذ نظام العسكرية الجديد . ولم يستطع الخديوي تفريق جموعهم إلاّ

بعد ان تعهَّد باجابة مطاليبهم ؛ وأسقط وزارة رياض ، وخلفتها وزارة شريف باشا ، فأُعيد محمود سامي الى نظارة الحربية وعُيِّن عرابي وكيلاً لها . ثمَّ وافقت الحكومة رسمياً على القوانين العسكرية وألَّفت في اكتوبر مجلس النوَّاب من ٨٢ نائباً عن كل انحاء القطر برآسة « سلطان باشا » . وقد قابل الخديوي انعقاد مجلسهم بكلّ ارتياحٍ ، وسألهم أن يكونوا عوناً لهُ على إسعاد البلاد ونشر الأمن والعلم فيها . على أنهم لم يلبثوا أن انضمُّوا الى عرابي فأصبح لهذا الحولُ والطول ، وأصبحوا آلةً في يدهِ . فاضطرَّت انكلترا وفرنسا الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لصيانة أرواح الأجانب وأموالهم مما قد يطرأُ من الفتن ، وانحازتا الى الخديوي على الجيش ومجلس النوَّاب ، فأُصبح في البلاد قوَّتان تتنافسان وتعمل الواحدة على الاستئثار بالنفوذ دون الأُخرى . ووقع بعد ذلك خلافٌ بين النوَّاب والوزراء استحكم أمرُهُ وآل الى سقوط وزارة شريف باشا ، فخلفتها وزارة محمود سامي باشا البارودي (٢ فبراير ١٨٨٢) ، وعُيِّن عرابي باشا فيها ناظراً للحربية ؛ فنفَّذَ القوانين العسكرية ، وعزل فريقاً من ضباط الترك والجركس ، وأبعد فريقاً الى السودان ، وسجن ٤٠ ضابطاً كبيراً وفي مقدَّمتهم عثمان باشا رفقي ، بتهمة المؤامرة ، فحكم عليهم بالتجريد من رتبهم وبنفيهم الى السودان فأبى سموّ الخديوي الموافقةَ على هذا الحكم

ثم تفاقم الأمرُ وعُرِضت رآسة النظَّار على مصطفى فهمي باشا ، فأبى قبولها . وأرسلت انكلترا وفرنسا مراكبها الحربية ؛ فطلب الاسطولان

عَزْلَ الوزارة وإبعادَ عرابي وزعماء حزبهِ . فاستعفت الوزارة (٢٦ مايو ١٨٨٢) ، وقبل شريف باشا تأليف وزارةٍ جديدة . على أن فريقاً من الجند جاهر بأنهُ لا يقبل ناظراً للحربية غير عرابي باشا ، فأُبقي عرابي في وزارتهِ ريثما يصل الوفد المرسل من السلطان لحلّ هذهِ المشاكل . وأرسل عرابي الى القناصل يتعهد بحفظ الأمن بشرط إبعاد الاسطولين من المياهِ المصرية . ثم أخذ يسعى لخلع الخديوي . ووصل في هذهِ الغضون وفد الاستانة ، فشجَّعَ عرابي

﴿ الاحتلال الانكليزي ﴾ — وفي ١١ يونيو ١٨٨٢ اختصم حمَّارٌ ومالطي في الاسكندرية فنجم عن ذلك فتنةٌ بسبب اضطراب الافكار وبغض الاجانب ، فحدثت مذبحةٌ قُتِل فيها مئاتٌ من الناس وهاجر نحو ٢٠٠,٠٠٠ . وفي ١٣ يونيو سافر الخديوي الى الاسكندرية وأسقط وزارة شريف ، وألَّف وزارة راغب باشا ، وأبقى عرابي فيها . فتولى قيادة ٩٠٠٠ جندي في الاسكندرية ، وأخذ يقيم الحصون ، فاتخذ الاميرال سيمور الانكليزي ذلك حجةً لضرب الثغر فجأةً . فذهب عرابي بعساكرهِ الى كفر الدوَّار . وأصدر الخديوي أمراً بعزلهِ ، فأبى مجلس الاعيان في العاصمة الموافقة على ذلك . والتفَّ حول عرابي أفواجٌ عديدة من أنحاء القطر . وفي ٢٠ و ٢١ و ٢٢ اغسطس هاجمهُ الانكليز في كفر الدوَّار ، فارتدَّ الى الوادي . وكان بين الانكليز والعرابيين مواقع انتهت بموقعة التلّ الكبير (١٢ سبتمبر) التي انجلت عن فرار عرابي الى القاهرة واندحار جيشهِ . وواصل الانكليز السير ،

فدخلوا القاهرة في ١٤ سبتمبر . وفي ١٥ منهُ سلَّم عرابي ، فسجنوهُ في العباسية ، وحكموا عليهِ بالاعدام ؛ ثمَّ استبدلوا الإعدام بالنفي ، فنفي والبارودي وغيرهما الى جزيرة سيلان ؛ حيث ظلَّ عرابي الى ان صدر عنهُ العفو (١٨٩٧) ، فعاد الى القاهرة ، وتوفي فيها (٢١سبتمبر١٩١١)

﴿ ثورة المهدي ١٨٨٠ — ١٨٨٥ ﴾ — بينما كانت حوادث الثورة العرابية تَتتابع في مصر ، كان السودان ميداناً لثورةٍ أُخرى ، أوقد نارَها محمد أحمد الملقَّب بالمهدي . وُلد هـذا في جزيرة ضرار من أعمال دنقلة (١٨٤٨) ، فشبَّ متديّناً متقشّفاً ، وأخذ الناسُ يلتفّون حولهُ ، ويعملون بأقوالهِ . فشرع يبيّنُ لهم حالةَ الضيق التي وقعت فيها بلادُهم ، ويحرّضهم على تحريرها ، ويبشّرهم بقرب ظهور المهديّ . فلم يلبثوا ان آمنوا بهِ واعتقدوا انهُ هو المهديُّ المنتظر . وكثر دعاتهُ وأنصارُهُ ، وانتشروا في كلّ انحاء السودان ؛ وعمَّ الهياجُ هاتيك الاصقاع . فسار رؤوف باشا (دسمبر١٨٨١) بجيشهِ لقتال المهدي ، فعاد عنهُ مدحوراً ، وأصاب يوسف باشا (يونيو ١٨٨٢) ما أصابهُ . فازداد نفوذُ المهديّ ، واستولى رجالهُ على الأُبيّض . ثمَّ زحف على الخرطوم ، فأسرع القائد الانكليزي هيكس باشا بعشرة آلاف رجل لنجدة المدينة ، فنال بعضَ النجاح ، وتأثَّر المهديَّ الى كردوفان الغربي . ولكنَّ المهديَّ أحاط بهِ فقتلِ هيكس باشا وضباطهُ وفريقٌ كبيرٌ من رجالهِ (نوفمبر ١٨٨٣)

وكان الجنرال بيكر قد أُرسل بجيشٍ من القاهرة لكسر شوكة العصاة ؛ فسار الى السودان الشرقي حيث كان عثمان دقنه قد نشر دعوة

المهدي ، فالتقى بهِ ؛ ولكنَّ عثمان كسرهُ وشتَّت جيشهُ (فبراير ١٨٨٤) .
فكانت نتيجة هذه الانتصارات المتوالية أن أصبح المهديُّ صاحبَ الحولِ والطول في كلِّ السودان . فأرسلت الحكومة الانكليزية الى غوردن باشا ان يُخلي السودان ، فلم يتيسر لهُ ذلك ، وتحصن في الخرطوم حيث حاصرهُ رجال المهدي وغلبوهُ وقتلوهُ (يناير ١٨٨٥)

وعلى أثر هذه الانكسارات تلقت الجيوش الانكليزية — المصرية الأمرَ بالجلاء عن السودان . فأصبحت حدود مصر تنتهي في وادي حلفا . وظلَّت الامور على هذه الحال حتى سنة ١٨٨٨ اذ باشرَ الجيش الانكليزيُّ المصريّ استعادة السودان كما سيأتي

وفي هذه الأثناء كانت انكلترا قد احتلَّت وادي النيل كما تقدَّم ، وأرسلت سفيرها في الاستانة لورد دفرين لدرس حالة البلاد ، فوضع تقريراً مفصلاً عن الاجراآت اللازمة لإصلاح الحكومة المصرية . فكانت نتيجة تقريرهِ انشاء القانون الأساسي (النظامي) والقانون الانتخابي (مايو ١٨٨٣) القاضيين بتأسيس مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ونظام مجالس المديريات

وتوفي الخديوي توفيق باشا في ٨ يناير سنة ١٨٩٢

عباس باشا حلمي الثاني

سمو الخديوي المعظم الحاج عباس باشا حلمي الثاني هو نجل المغفور لهُ محمد توفيق باشا. وكانت ولادة سموهِ في ٢٩ مايو سنة ١٨٧٤. وقد ابتدأ دروسهُ في مصر؛ ثمّ أرسلهُ ابوهُ الى جنيف في سويسرا، وانتقل منها الى مدرسة ڤينا، فأحرز من العلوم نصيباً وافراً؛ وزار عواصم أوربا الكبرى، فدرس نظامها واحوالها. وكان يصحبهُ دولة شقيقهِ البرنس محمد علي باشا. وانتهى اليهِ وفاة والدهِ وهو في ڤينا، فعاد الى مصر ودخل القاهرة (١٦ يناير ١٨٩٢) حيث تبوّأ عرش الأريكة الخديوية، فاستبقى وزارة مصطفى فهمي مدة السنة الاولى من خديويتهِ، ثم تعاقبت على عهد سموهِ خمس وزارات: وزارة رياض باشا (١٨٩٣ — ١٨٩٤) ووزارة نوبار باشا (١٨٩٤—١٨٩٥) ووزارة مصطفى فهمي باشا (١٨٩٥—١٩٠٨) ووزارة بطرس باشا غالي (١٩٠٨—١٩١٠) ووزارة محمد باشا سعيد

أما الدولة المحتلة فكان عميدها في مصر لورد كرومر حتى سنة ١٩٠٧ وخلفهُ سر الدُن غورست، وخلف هذا لورد كتشنر

﴿ استعادة السودان ﴾ كان محمد احمد المهدي قد توفي سنة ١٨٨٥ وخلفهُ عبد الله التعايشي. وكان الآمرَ الناهيَ في السودان، وعلّل نفسهُ بفتح مصر بعد ان انتصر على الحبشة. وفي سنة ١٨٨٨ عادت الجيوش الانكليزية — المصرية الى السودان كما مرّ في الكلام عن خديوية المغفور لهُ الخديوي السابق، وكانت بقيادة السردار فرنسيس غرنفيل،

فانتصرت على الدراويش في مواقع متتابعة؛ وقد ساعد نجاشي الحبشة الجيوشَ الانكليزية المصرية . ثمَّ واصل الجيشُ الزحفَ على توشكي فهزم السودانيين فيها شرَّ هزيمة (١٨٨٩) وقتل منهم ١,٢٠٠ وأسر ٤,٠٠٠ . وكان بين الفارّين عثمان دقنه . وأحرز السردار في طوكر انتصاراً باهراً (١٨٩١) . على أن فتح السودان لم يتمَّ إلاَّ على يد السردار كتشنر باشا فإنهُ زحف من مصر بجيشٍ مؤلفٍ من مصريين وانكليز . فكان لهُ مع الأعداء بين حلفا والخرطوم مواقع أهمها موقعة عطبره التي أُسر فيها ابن عمّ التعايشي والفـان من رجالهِ . وواصل كتشنر باشا الزحف فلاقاهُ التعايشي وكان لهُ معهُ موقعة ام درمان الشهيرة (٢ سبتمبر ١٨٩٨) انكسر فيها السودانيون وفرَّ التعايشي ، ودخل الجيش الانكليزي المصري الخرطوم بعد ان قتل وأسر من الأعداء عدداً كبيراً . وفي سنة ١٨٩٩ جرت موقعة في « جديد » بين ونجت باشا والتعايشي ، قُتلَ هذا فيها وتشتت رجالهُ . وفي ١٩ يناير من تلك السنة عُقدَ الاتفاق الانكليزي المصري الذي أصبح السودان بموجبهِ تابعاً للحكومتين الانكليزية والخديوية ، يحكمهُ سردارٌ انكليزي تختارهُ حكومة لندرا ويُصدِرُ الأمرَ بتعيينهِ سمو الخديوي

وقد امتاز عهد مولانا العبّاس بنهضةٍ أدبية جعلت مصر في طليعة البلاد الشرقية . فازهرت فيها المدارس والمعاهد العلمية ، وكثرت صحف الاخبار ومجلات العلم والادب ، ونبغ الكتاب والشعراء الاعلام ، فرفعوا منار اللغة العربية ، واعادوا اليها عصرها الذهبيّ

وما برحت حكومة سموه ، حرسهُ الله ، تضع وتعضد المشروعات التي تعود على البلاد بالخير الأدبي والمادي ، وعلى الأهلين بالراحة والرخاء

وها نحن نذكر في ما يلي بعضَ إفاداتٍ عن حكومة البلاد وإدارتها وشؤونها مأخوذة عن الاحصاءات الرسمية الأخيرة (١٩١٢ — ١٩١٣) :

﴿ الادارة ﴾ — تُقسم مصر إدارياً الى ١٤ مديرية يرئس كلاً منها مدير . أما المديريات فهي : اسوان وقنا وجرجا واسيوط والمنيا وبني سويف والفيوم والجيزة في الوجه القبلي ؛ والقليوبية والمنوفية والبحيرة والغربية والدقهلية والشرقية في الوجه البحري

وفي مصر ، عدا المديريات المذكورة ، ٥ محافظات وهي : القاهرة والاسكندرية والقنال (بور سعيد والاسماعيلية) والسويس ودمياط ويرئس كلاً منها حاكم يُعرف بالمحافظ

وبلغ سكان القطر المصري في إحصاء (١٩٠٧) ١١,٢٨٧,٣٥٩

﴿ المالية ﴾ — تقدّر ايرادات الحكومة بمبلغ ١٦,١٣٠,٠٠٠ جنيه ، والمصروفات بمبلغ ١٥,٦٣٠,٠٠٠ . أما الدين الباقي على مصر فيناهز ٩١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه

وتدفع مصر للدولة العلية أتاوة سنوية قدرها ٦٦٥,٠٤١ جنيهاً

أمّا النقود المصرية فتضرب باسم جلالة السلطان

﴿ المدارس ﴾ — تُشرفُ نظارة المعارف العمومية مباشرةً على المعاهد الآتية :

١٤٦ كتّاباً و٣٢ مدرسة ابتدائيـة في القاهرة والاقاليم ، ومدرسة لمعلمي الكتاتيب وأُخرى لمعلماتها في القاهرة ، ومدرستان ابتدائيتان للبنات في القاهرة ايضاً ، ومدرسة زراعية في الجيزة وأُخرى في مشتهر ، ومدرسة صناعيـة وورش في بولاق ، ومدرسة صناعيـة في المنصورة وأُخرى في اسيوط ، ومدرسة المحاسبة والتجارة في القـاهرة ، ومدرسة التدبير المنزلي في القبة ، وثلاث مدارس ثانوية في القاهرة ، واثنتان في الاسكندرية ، وواحدة في طنطا وواحدة في اسيوط ؛ وكليات عاليـة للحقوق والطب والصيدلة في القاهرة ، والمهندسخانة في الجيزة ، ومدرستا المعلمين الخديوية والنصرية في القاهرة ، ومدرسة المعلمات السنية . هذا وهناك عددٌ كبير من المدارس التي تديرها الاوقاف ، والمدارس الحرّة للوطنيين والاجانب

﴿ الضرائب ﴾ — والضرائب المفروضة الآن في مصر هي : الضرائب التي تحصّل على الاطيان ؛ وضرائب النخيل باعتبار قرشين ونصف قرش على النخلة الواحدة ، ويتجدّد تعداد النخيل مرةً كل خمس سنوات ؛ والعوائد التي تُدفع عن الأملاك ، بواقع ½ ٨ ٪ او ⅔ ٢ من قيمة الايجار السنوي ما عدا القاهرة فان الضريبة فيها ١٠ ٪ ويجري تثمين المباني مرةً كل ثماني سنوات

وهناك أيضاً ضرائب غير مقرّرة ، أهمّها : العوائد الجمركية ، وتحصّل باعتبار ٨ ٪ من قيمة الواردات ، ما عدا الخشب والفحم والمواشي وسوايل الوقود فالرسم المتحصل عليها ٤ ٪ فقط . أما المدن التي فيها جمارك فهي

الاسكندرية والقاهرة وبورسعيد والسويس ودمياط والقصير . ويوجد أيضاً مكاتب جمركية في القنطرة والاسماعيلية ورشيد

ومن هذه الضرائب : ضريبة احتكار الملح والسكّر والنطرون والصودا ، ورسوم التسجيل . ويوجد أيضاً رسوم الموانى والمنائر ، ومصايد الاسماك ، والدمغة ، ودمغة المصوغات ، والصحة العمومية

﴿ الريّ ﴾ — لما كانت مصر بلاداً زراعية كان لتنظيم الريّ فيها اكبر تأثير في عمرانها ونموّ ثروتها ؛ ولذلك وجّهت الحكومة عنايةً كبرى الى حفر الترع والمصارف لتوزيع المياه وصرفها ، وحسّنت في القناطر الخيرية ، وأضافت الى هذا الخزّان خزّانات ثلاثة في زفتى واسيوط واسوان ، وهذا الأخير هو أهمها ؛ فصارت المياه تسدُّ حاجة مصر الزراعية إبّان هبوط النيل ، وزادت الاراضي الصالحة للزراعة زيادةً كبرى ، ولمعظمها ثلاثة مواسم في السنة : الصيفي والنيلي والشتوي

﴿ الصحة ﴾ — صدرت قوانين واوامر عالية عديدة تتعلق بالصحة العمومية منها قانون قيد المواليد والوفيات ؛ وقانون يقضي بالإنباء عن كل إصابة وبائية ؛ وامر عالٍ بجعل تطعيم الجدري إجبارياً ، وأوامر عالية يمنع مزاولة الطب والصيدلة دون ترخيصٍ من مصلحة الصحة

وللحكومة مستشفيات في انحاء القطر لمعالجة الأمراض على اختلاف انواعها ، منها أثنان للمجاذيب (في العباسية والخانكة) ، ومستشفى للكَلَب ، ومستشفيات للرمد . وتوجد مكاتب للكورنتينة ومحاجر صحية في جميع الموانى الشهيرة

﴿ المحاكم ﴾ — هي على أربعة أنواع : ١ً الأهلية ؛ ٢ً المختلطة ؛ ٣ً محاكم الأحوال الشخصية ؛ ٤ً المحاكم القنصليـة . ويوجد أيضاً محاكم خصوصية معينة للنظر في بعض الأمور الشاذَّة . أما المحاكم الاهلية فتنحصر في محكمة استئناف ، ومحكمة نقض وإبرام ، ومحاكم جنـايات ومحاكم ابتدائية وجزئية ومركزية ، ومحاكم اخطاط . وتنظر هذه المحاكم في جميع الدعاوي المدنية والتجارية بين الوطنيين وقضايا الجنح والجنايات التي يكون فيها المتَّهم مصرياً . وتختصّ المحاكم المختلطة بالنظر في القضايا المدَنيـة والتجارية التي تقع بين أجانب مختلفي الجنسية ، أو بين وطنيين وأجانب ، أو بين أجانب من جنسية واحدة في حالة التنازع على عقارٍ ثابت

ومحاكم الأحوال الشخصية إمَّا شرعية اسلامية ، وإمَّا مجالس ملية للطوائف غير الاسلامية . وتنظر هذه المحاكم في قضايا الاحوال الشخصية وقضايا الكفاءة والزواج وحقوق الارث وتعيين الوصي والقيّم . وتنظر محاكم القنصليات في القضايا التي تقع بين الرعايا التابعين لها وفي الجرائم التي يكون المتهم فيها من رعاياها

﴿ العلَم المصري ﴾ — لونهُ احمر وفيه هلالٌ ونجمةٌ لونهما ابيض . أمَّا العلَم الخاصّ بسمو الحضرة الفخيمة الخديوية ففيهِ ثلاثةُ اهلةٍ ونجوم

وخيرُ ما يُختم بهِ هذا الكتاب تحية ذلك العلَم العزيز والدُعاء بان يظلّ خافقاً في سماء العزِ والمجد

شركة حمص حلب
الخط الحديدي للسودان

البحر الأبيض المتوسط
القطر المصري
الحدود
السكك الحديدية
مقياس الرسم بالميل
السودان
البحر الأحمر
شبه جزيرة طور سينا
نجد التيه
جبل موسى
الطور
العقبة
رفح
العريش
بورسعيد
دمياط
رشيد
الاسكندرية
المنصورة
الزقازيق
الاسماعيلية
القاهرة
السويس
مديرية الجيزة
بركة قارون
مديرية الفيوم
مديرية بني سويف
مديرية المنيا
المنيا
ملوى
مديرية سيوط
منفلوط
اسيوط
مديرية جرجا
سوهاج
نجع حمادى
مديرية قنا
الأقصر
ارمنت
اسنا
ادفو
اسوان
الشلال الاول
مديرية أسوان
كورسكو
ابو سمبل
وادى حلفا
الشلال الثانى
الواحة البحرية
واحة الفرافره
الفرافره
قصر الداخل
الواحة الداخلة
الخارجه
الواحة الخارجه
جبل غريب
جبل الدخان
القصير
ام الروس
راس محمد
جبل حماده
ام جاريارت
SABONGI

i13875321
B12506916

AUC - LIBRARY

DATE E

A.U.C
AY 1985

main
00000061788
DT 77 A4 1913/c.1
7 MAY 1987